د/ أبو اليُسر رشيد كُهُوس

إتحاف العباد بحقيقة الجهاد

الحكمة
طباعة - نشر - توزيع

د/ أبو اليُسر رشيد كُهُوس
إتحاف العباد بحقيقة الجهاد

الدكتور

رشيد كُهُوسْ

الطبعة الأولى

1434 هـ/ 2013 م

دار الحكمة
طباعة - نشر - توزيع

جمهورية مصر العربية – زهراء مدينة نصر – المرحلة الثانية
ص.ب: 10 – الرمز البريدي: 11528
تليفون: 24106748 – 01000135406
www.darelhekma.net
hassanelsherif@darelhekma.net

رقم الإيداع	2012/80785
الترقيم الدولي	978-977-5077-34-9

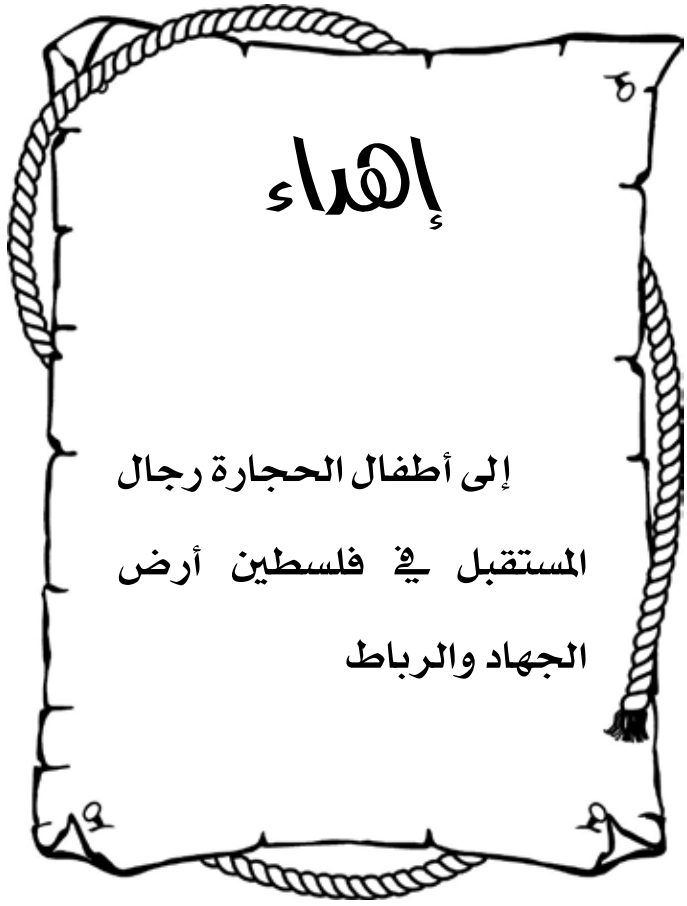

إهداء

إلى أطفال الحجارة رجال

المستقبل في فلسطين أرض

الجهاد والرباط

تقديم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه ومن اتبع أثرهم وسلك منهاجهم ثم اهتدى.

وبعد؛

فإن الجهاد في سبيل الله من أعظم الموضوعات التي أسيء فهمها في الداخل والخارج، وأثيرت حولها شبهات وافتراءات، وألصقت به تهم وأباطيل، وعلق على مشجبه كل زيغ وضلال.

إن الجهاد في الإسلام قوام الدين وفريضة عظيمة، لها أهداف ومقاصد، وشروط وضوابط، وعقبات ومحاذير... هدفه السامي نشر الخير وتحقيق العدل وإصلاح الفرد والمجتمع، ورفع الظلم والفساد والطغيان من الأرض.

وهذا ما سأبينه في ثنايا هذا الكتاب وأكشف اللبس عنه، حتى يتضح المفهوم الحقيقي والشامل للجهاد في سبيل الله، لنرد بضاعة أهل الزيغ والضلال إليهم ونفسد عليهم رأيهم، ونلقمهم جبالا من الحجارة، ونبين لهم رحمة الإسلام وعدله ورفقه وقوته. كما نبين لهم أنواع الجهاد وأبوابه ودرجاته وغاياته.

أسأل الله تعالى التوفيق والسداد والهدى والرشاد وأن يجعلنا خدام دينه وكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وكتبه أبو اليسر رشيد كهوس عشية يوم الأحد 22 جمادى الآخرة 1433هـ وفق 13 أيار (ماي)2012م، بالمغرب الأقصى.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين خالق الخلائق أجمعين، أحمده سبحانه وتعالى أن جعل الجهاد ذروة سنام الإسلام تشريفا له وإعظاما، وفضل المجاهدين على القاعدين من المؤمنين ولو كانوا سجدا وقياما، فيا لها من تجارة رابحة، تلوح منها بشائر النصر غادية ورائحة.

وصلى الله على سيدنا وسندنا وحبيبنا محمد سيد الأبرار وزين المرسلين الأخيار، وأكرم من أظلم عليه اليل وأشرق عليه النهار، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار، وعلى من اقتفى أثرهم واهتدى بهديهم من المؤمنين الأحرار.

إن الجهاد في سبيل الله تعالى، شرف هذا الدين وذروة سنامه، وحافظ مقدساته، وناشر لوائه، والذائد عن حماه، فلا قيام للمجتمع الإسلامي إلا به، به نال المسلمون النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، وبالقعود عنه وتعطيله أصيبت أمة الإسلام بالصَّغار، واستولى عليها الكفار، ونزل بها الهوان وأحاط بخيامها، وأحدق بساحتها العذاب، وأنزل الله بها أنواعا من البلاء وألزمها مذلة وخزيا، وتداعت عليها الأمم من كل أوب وصوب، فنهشت في جسمها، وقضمت أطرافها، واحتلت أراضيها، واغتصبت شرفها -القدس-، ونزع الله المهابةَ من قلوب أعدائها ووضعها في قلوب أبنائها.

ولهذا فإن أية محاولة لتغيير ما بالأمة تتجاهل حقيقة الجهاد وأهميته في الحفاظ على ثوابت الأمة وأركانها وحصن ذاتها؛ تلك الحقيقة التي هي سنة من السنن الإلهية التي لاتقبل التبديل ولا التغيير ولا التحويل، فإن هذه المحاولة ستؤول إلى الفشل الذريع والهزيمة النكراء، لأنها ضيعت روح الأمة وعمودها الفقري وبرجها العاجي الذي بدونها لن تكون الأمة شيئا.

وهذا ما دفع أعداء الملة والدين إلى تشويه صورة الجهاد، وتخذيل المسلمين عنه، وزرع الشكوك في قلوبهم، ووضع العراقيل في طريقهم الجهادي، وقصر معنى الجهاد على "الحرب المقدسة" ضد معتنقي الأديان الأخرى،-كما يسمونها- فقط، كل ذلك وغيره خوفاً من أن يؤوب المسلمون إليه كما آب إليه من سبقنا بالإيمان فيما مضى، فتعود لهم روح المغالبة ومصدر القوة فيهزموهم ويخرجوهم من بيوتهم أذلة صاغرين.

دواعي اختيار الكتابة في هذا الموضوع:

أولا: ما شاع بين كثير من الأوساط الإسلامية اليوم من أن الجهاد إنما هو قتال العدو ورد عدوانه فقط، ثم الهجمة الشرسة على هذا المفهوم من قبل أعداء الإسلام بدعوى أنه يتنافى مع "حقوق الإنسان".

ثانيًا: بيان حقيقة الجهاد وأنواعه، وما يصدق عليه الجهاد وما لا يصدق عليه الجهاد؛ وذلك نظرا إلى سوء استخدام هذا المفهوم بواسطة العديد من الحركات والمنظمات التي تحمل السلاح وتعمل باسم الجهاد في سبيل الله، وتحصد الأبرياء بانفجارات في الحافلات والفنادق والمقاهي باسم الجهاد وتحت لوائه[1]، والجهاد بريء منها براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

ثالثا: الحملات الشيطانية الخبيثة الماكرة على فريضة الجهاد في سبيل الله، لها هدف مقصود؛ وهو جعل المسلمين يتخلون عن هذه الفريضة ويفرون منها فرارهم من الأسد، وها قد حدث فعلا. فقال بعض الناس: ما لنا وللجهاد! وقال الآخرون: قد وضعت الحرب أوزارها! وقال غيرهم: إذا قام به البعض سقط عن الآخرين؛ وها قد قاموا له!

---

(1) حاشا إخواننا في فلسطين الذي يجاهدون ويقاتلون لاسترجاع أرضهم المغتصبة من يد اليهود الغاصبين، فكل عملياتهم الاستشهادية -ويسميها إعلامنا المُصَهْيَن انتحارية كما يحلو له- جهاد قتالي مشروع، لأن طرد العدو المغتصب لأرض المسلمين منها فرض عين، بشتى الوسائل وفي كل مكان من فلسطيننا الأبية تاج الأمة.... مسرى الحبيب ﷺ، قال الحق جل وعلا: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۖ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة].

فلابد إذن، من دراسة توقظ الوسنان، وتبعث الأمل في قلوب الناس، وتكشف الستار عن تلك الدسائس الخبيثة، والحملات الشيطانية، حتى ترجع إلى مصدر عزها وكرمها، لتتوج بإكليل النصر والتمكين والظهور في الأرض.

رابعا: إن تحرير ثوابت الإسلام من التزييف والتلفيق الذي حاول أعداء الإسلام أن يلصقوها به أمر ضروري... وهذا ما أحاول تحقيقه في هذا الكتاب؛ وذلك لنضع قدمنا على المنهاج الصحيح، وهو المهيع الوحيد الذي اختاره الله لعباده، فقال سبحانه تعالى وتقدس: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[1]، فللإسلام رؤية واضحة ومنهاجا شاملا، وله في كل قضية نظرة ثاقبة، أما طريق التبعية الذليلة لدعاة على أبواب جهنم، فهي التي دفعتنا إلى التيه في الصحراء، بلا حادي ولا دليل.

باعتبار الموضوع جديدا في مجاله، هاما بما تحمله نتائجه، يفك مجموعة من الألغاز، ويحل كثيرا من الإشكالات التي تعاني منها الأمة الإسلامية في واقعنا المعاصر الذي أصبحت فيه هدفا يرمى من قبل الغرب الصليبي الحاقد، فضلا عن المغرضين من المستشرقين، دعك من المغربين من بني جلدتنا.

خطة الموضوع:

انطلاقا مما سبق ذكره قسمت هذا الموضوع إلى مقدمة وخاتمة وسبعة مباحث:

المبحث الأول: الإرشاد إلى معاني الجهاد؛ وتحدثت فيه عن: تعريف الجهاد لغة واصطلاحا؛ فذكرت تعريف القدامى للجهاد وكذلك المعاصرين، ثم تعريف المستشرقين للجهاد وقمت برد شبههم ومكائدهم انطلاقا من نصوص كتبهم ومن واقعنا المعاصر.

أما **المبحث الثاني:** فخصصته لفقه الجهاد عند الجيل المعاصر؛ وذكرت ثلاث اتجاهات:

(1) سورة الأنعام:153.

الأول: المتشددون التكفيريون

والثاني: المستسلمون للواقع،

والثالث وهو الأخير: جيل الانبعاث الإسلامي الجديد.

أما المبحث الثالث فتحدثت فيه عن أبواب الجهاد، فذكرت فيه أحد عشر بابا أو نوعا:

جهاد النفس، جهاد المال، جهاد التعليم، جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جهاد الكلمة والحجة، جهاد التعبئة والبناء، الجهاد السياسي، جهاد الكفر والفقر، الجهاد الاقتصادي، جهاد التوحيد، الجهاد القتالي.

وتحدثت في **المبحث الرابع** عن غايات الجهاد: الغاية الاستخلافية هي التمكين لدين الله في الأرض وتحقيق العدل بين الناس، ثم هذه الغاية الاستخلافية وسيلة لغاية عظمى وهي الغاية الإحسانية أي نيل رضى الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة.

وفي **المبحث الخامس** تحدثت فيه عن فضائل الجهاد والاستشهاد انطلاقا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

أما **المبحث السادس**، فقد خصصته للمحاذير التي تعترض سبل الجهاد.

أما **المبحث الأخير**: فتحدثت فيه عن الجهاد ومستقبل الأمة، ففصلت القول في هذه الصحوة الإسلامية المنتشرة في العالم، ثم ذكرت الأمة ببشارات نبوية بانتشار الإسلام في العالمين.

ثم خاتمة لهذا الموضوع.

اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك سيدنا محمد ﷺ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك سيدنا محمد، وأنت المستعان وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة والنجاة من النار، اللهم لا تدع لنا ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا، إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا وحبيبنا محمد وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين

وكتبه أبو اليسر رشيد كهوس ظهر يوم الأحد 23 رجب الفرد1429 من هجرة الحبيب المصطفى، وفق 27 حزيران 2008 من تاريخ النصارى. بوجدة المحروسة المغرب الأقصى.

المدخل العام

من الناس في واقعنا المعاصر من يتصور الجهاد تصورا ضيقا، كلما سمع كلمة الجهاد إلا وتصور خيولا وسيوفا ومقارعة في ساحة الوغى.. والجهاد أوسع من هذا، وردت كلمة الجهاد في القرآن الكريم مقترنة بالنفس والمال؛ عندما تسافر وتترك راحتك فهو جهاد، عندما ترابط في المسجد تعلم الناس فهو جهاد، عندما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فهو جهاد، عندما تكتب كتابا أو مقالة تدافع فيها عن الإسلام وتنشر دعوة الإسلام فهو جهاد، عندما تحسن إلى الناس وتميط الأذى من طريقهم فهو جهاد، عندما تدافع عن حمى الإسلام وتذود عنها فهو جهاد... وأعظم جهاد تعليم الصبية كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بهذا تضع اللبنات الأولى في صرح الإسلام.

ولهذا فإن مما استقر في أذهان الناس اليوم هو أن الجهاد الذي هو جزء أصيل من أحكام الإسلام وشرائعه، إنما شرع بعد الهجرة النبوية إلى المدينة، فلم يكن للجهاد قبل ذلك حكم ولا ذكر.

على أن الحقيقة البلجاء تنقض هذا التصور وتبين هشاشته؛ فالعهد المكي حفل بالجهاد، كما حفل به العهد المدني، والقرآن المكي تحدث عن الجهاد وحض عليه وأمر به، كالقرآن المدني تماما.

ولا ريب إذن، أن هذا التصور الذي استقر في أذهان كثير من الناس حول الجهاد في سبيل الله، أدى إلى إزالة سمته عن كثير من أبوابه ومراتبه، إذ لا شك أن أهم أبواب الجهاد، هو ذلك الذي نقرأه في العهد المكي من السيرة النبوية العطرة إبَّان بزوغ فجر دعوة الإسلام، الذي كان ممهدا لفتح باقي الأبواب التي ذكرناها في فصل الجهاد، إنه جهاد تربية الرجال على بذل الغالي والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله، وتربيتهم على تزكية نفوسهم والتفقه في دينهم وتبليغ رسالة الإسلام للناس أجمعين.

أما الجهاد القتالي الذي شرع في المدينة المنورة في السنة الثانية من الهجرة النبوية، إنه أشبه بالدواء المر الذي يلجأ إليه المرء اضطرارًا وفرارًا من عوارض الأوجاع والأدواء، لقوله

تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[1].

إن الجهاد كلمة جامعة تشمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد، وتستوعب مختلف مجالات العمل، وإنه وقبل كل شيء مبايعة مع الله، لقوله جل ذكره: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[2].

(1) سورة البقرة: 216.

(2) سورة التوبة: 111.

المبحث الأول

الإرشاد إلى معاني الجهاد

الإرشاد إلى معاني الجهاد

1- تعريف الجهاد لغة:

إن لفظة "الجهاد" مأخوذة من الجهد، و" الجُهْدُ بفتح الجيم وضمها الطاقة، والجَهد بالفتح المشقة، يقال: جَهَدَ دابته وأجْهَدَهَا إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها، وجَهَدَ الرجل في كذا، أي جدَّ فيه وبالغ وبالُهما قطع. وجُهِدَ الرجل على ما لم يسم فاعله فهو مَجْهودٌ من المشقة وجاهَدَ في سبيل الله مُجَاهَدَةً وجِهَادً والاجْتِهادُ والتَّجَاهُدُ بذل الوسع والمَجْهودِ" [1]، في "المدافعة والمغالبة، فهو مجاهد وهم مجاهدون.

وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مرادا به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية"[2].

ومما سبق ذكره من المعاني نخلص إلى هذا المعنى اللغوي العام للجهاد وهو: "بذل المجهود في حصول المقصود"[3].

2- تعريف الجهاد اصطلاحا:

أ) الجهاد عند الفقهاء المتقدمين:

إن المقصود بالجهاد في الاصطلاح الشرعي: "الدعاء إلى الدين الحق وقتال من لم يقبله" [4].

---

(1) مختار الصحاح، محمد الرازي، مادة:جهد، ص57.

(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، مادة: جهد، 1/ 226.

(3) تفسير النيسابوري، 6/ 503.

(4) التعريفات، للجرجاني، حرف الجيم، المادة رقم: 664، ص84. حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه أبي حنيفة، لابن عابدين، 4/ 121. سفرة الزاد في سفرة الجهاد، أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي البغدادي، مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، الرقم العام: 27363، الرقم الخاص: 834، ص9.

وعرِّف كذلك بأنه:"بذل الوسع في قتال الكفار ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق من الكفار وغيرهم"[1].

وقيل:"الجهاد قتال مسلم كافرا غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله"[2]، وقيل:"الجهاد قتال الكفار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله، وقمع دين الشيطان "[3].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله– في تعريف الجهاد: " بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد"[4].

إن هذه التعريفات المذكورة للجهاد والتي قصرته على معناه القتالي فقط؛ تفتح المجال واسعا للأفاكين والمفترين على الشريعة الغراء الذين يحاولون النيل من الدين الحنيف، والتنقيص من أحكامه، وتدمير مقدساته وعلى رأسها الجهاد.

فالجهاد في الاصطلاح القرآني والسني يشير إلى جملة كبيرة من المعاني، تشمل الدِّين كله؛ وتشمل حياة الفرد والمجتمع كلها، بمجالاتها وجوانبها المختلفة التربوية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والعلمية، والإعلامية.. هذا رغم محاولات أعداء الدين ومكائدهم الذين يسعون بخيلهم ورجلهم لعزل هذا المصطلح عن معناه الشامل والعام ليقتصروا على نوع واحد من الجهاد وإقصاء الأنواع الأخرى، ألا وهو القتال والكفاح المسلح كما يصورونه هم ببشاعة وهمجية، وذلك في محاولة بائسة لتدمير دعائم الإسلام.

---

(1) فضائل الجهاد، محمد البابلي الشافعي، مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، الرقم العام:28822، الرقم الخاص:934، ص5. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، 6/ 3. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، للزرقاني، 3/ 3. موسوعة الفقه الإسلامي، عبد الحليم عويس، 1/ 453. مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة: جهد، ص208. الجهاد ركن الإسلام، محمد إسماعيل إبراهيم، ص61.

(2) كتاب شرح حدود أبي عبد الله بن عرفة، للرَّصاع التونسي، ص193.

(3) إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري، للقسطلاني، وبهامشه صحيح مسلم بشرح النووي، 5/ 31. تفسير السعدي، 1/ 98.

(4) تفسير السعدي، ص230.

ومن التعريفات الواردة في باب الجهاد ما جاء في مقدمات ابن رشد:"الجهاد في سبيل الله: المبالغة في إتعاب النفس في ذات الله وإعلاء كلمته التي جعلها الله طريقا إلى الجنة وسبيلا إليها"[1].

وعرف الشيخ ابن تيمية –رحمه الله– الجهاد بقوله: "وذلك لأن الجهادَ حَقِيقَتُهُ الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح؛ ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان"[2]. ويضيف قائلا:"والجهاد هو بذل الوسع وهو القدرة في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق"[3].

ب) الجهاد عند بعض المفكرين والفقهاء المسلمين المعاصرين:

قال الشيخ أبو الحسن الندوي –رحمه الله– في تعريفه للجهاد:"هو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب. وأكبر وطر للمسلم طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه والإسلام لأوامره، وذلك يحتاج إلى جهاد طويل شاق ضد كل من يزاحم ذلك من عقيدة وتربية وأخلاق وأغراض وهوى وكل من ينافس في حكم الله وعبادته من آلهة في الأنفس والآفاق"[4].

ويقول الشيخ العلامة يوسف القرضاوي:"الجهاد فهو يعني: بذل الجُهد أو تحمل الجَهد البدني والنفسي والعملي من أجل الدفاع عن الدين، حتى تكون كلمة الله هي العليا.

وهو يبدأ بجهاد النفس، ثم جهاد الشيطان، ثم جهاد الظلم والفساد في المجتمع، ثم بجهاد الكفار والمنافقين"[5].

---

(1) مقدمات ابن رشد مطبوع مع المدونة الكبرى: بيان ما اقتضته المدونة من الأحكام، لابن رشد، 8/ 2829.

(2) الفتاوى الكبرى، 5/ 187.

(3) الفتاوى الكبرى، 5/ 188.

(4) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص186.

(5) نحن والغرب أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة، ص50.

ويقول الدكتور ماجد عرسان الكيلاني في تعريف شامل وجامع وموافق لمقاصد الشريعة الإسلامية ومطالبها[1]:"الجهاد اصطلاحا: يعني استفراغ الطاقة لتحقيق الأهداف التي توجه إليها الرسالة الإسلامية في ميادين الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعسكرية وغيرها في أوقات السلم والحرب سواء"[2].

ويقول منير البعلبكي:"الجهاد حرب مقدسة تشن في سبيل الله، توسيعا لرقعة ديار الإسلام أو دفاعا عن هذه الديار، إذا تهددها باغ بالعدوان، أو باشر الاعتداء عليها فعلا وهذه الحرب مفروضة على المسلمين، في مواطن من القرآن الكريم متعددة"[3].

---

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية معروفة؛ وهي حفظ الكليات الخمس: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، أما مطالب الشريعة الغراء فقد غفل عنها الكثير ممن خاضوا في هذا المجال وأجمل أهمها في: المطلب الأول: العدل؛ بمعناه الشامل، العدل في قسمة الأرزاق، والعدل في الحكم بين الناس وبشرع الله تعالى، إذ هو صلب الدين وأم المصالح التي يقصد إليها الدين الإسلامي.وهذا العدل قنطرة يمر عليها الإنسان إلى الدار الآخرة ورضوان الله تعالى. وبإجمال فالمعنى الشامل لهذا المطلب هو: الاستقامة في حقوق الله وفي حقوق العباد. والثاني: وحدة المسلمين وهي من أهم الضروريات والواجبات؛ فإسلامنا محروم حتى يجتمع شملنا وتتوحد دارنا. الثالث: النهضة الاقتصادية أو "التنمية" بالتعبير المعاصر: فهي مطلب حيوي، نحققها بإسلامنا لا بما يمليه علينا الغرب الغافل عن الله والدار الآخرة، نحققها بفَرْضية السعي النشيط والكسب الحلال والعدل والعمل الصالح. الرابع: الشورى: وهي مبدأ إسلامي في الحكم، فرضه الله تعالى علينا كما فرض باقي الأحكام من صلاة وزكاة وصيام... الخامس: الاجتهاد؛ كان فيما مضى قضية فردية، لكن ما نلاحظه اليوم من شرود عن الدين وتفاقم المشاكل لا يستطيع المجتهد الفرد أن يقوم لذلك وحده مهما كانت قدمه راسخة في علوم الشريعة، بل لابد أن يكون قضية جماعية شورية يشترك فيه ذوي الاختصاصات المتنوعة. السادس: المنهاج المحمدي: إن التمسك بمنهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وعلما وعملا مطلب قرآني جليل، وهو المخرج الوحيد من هذا الكهف المظلم الذي ضلت فيه الأمة الطريق، وهو الحل لكل معضلاتها التي تنهش في جسمها بالمخلب والناب. ويوم ترجع الأمة المسلمة إلى منهاج نبيها فهما وفقها وتمسكا وتطبيقا يومذاك تكون أهلا للنصر والتمكين والظهور في الأرض. السابع: التعليم: لابد من تعليم مبين على أسس إسلامية ومستمد من نور الشريعة الغراء، ضمن خطة تعليمية متكاملة ومنسجمة مع أهداف الإسلام ومقاصده، لتتحرر الأمة من الجهل الجاثم على عقلها، ومن التعليم الجاهلي الغربي الذي نخر كيان أبنائها، تعليم يعبئ جهودها ثم تنمية تغذيها الأدمغة المتعلمة وتديرها تقف في وجه التحديات المعاصرة وتسبح بها في بحار المنافسة العالمية وأمواجها. الثامن: لغة القرآن: لابد من إعطاء الأهمية للغة العربية لغة القرآن، فهي مفتاح لفهم القرآن الكريم.

(2) الأمة الإسلامية مفهومها –مقوماتها–إخراجها، ماجد عرسان الكيلاني، ص63.

(3) موسوعة المورد العربية: دائرة معارف ميسرة مقتبسة عن موسوعة المورد، 1/ 400.

وهذا التعريف انطلق من قراءة سطحية للآيات القرآنية التي تتناول موضوع الجهاد والقتال، في محاولة لحشر الجهاد في معركة القتال العسكري وانتهى الأمر، أضف إلى ذلك أن هذا الفهم يفتقر إلى حقيقة التعامل مع نصوص الشريعة؛ ويتضح هذا الفقر في التصور في تعريف الجهاد بكونه "حربا مقدسة"، هذا التعريف بعيد كل البعد عن روح الجهاد وغاياته ومقاصده النبيلة، فضلا على أن تعبير "الحرب المقدسة" لم يرد في القرآن الكريم ولو مرة واحدة، ولا نعلم بوروده في سنة سيدنا رسول الله ﷺ، والتعبير إنما هو ترجمة حرفية للتعبير الإنجليزي (Holy War) وهو تعبير لا يمت بصلة لمفهوم الجهاد في الإسلام، كما أنه يتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية.

ولهذا فإن ذلك الخلط بين الجهاد الإسلامي بمفهومه الشامل وبين الحرب المقدسة هو أثر من آثار سوء الفهم للإسلام، أو سوء النية في تصوير الإسلام والنيل منه، فإن هناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامي في القتال الذي تحدث عنه القرآن الكريم ومارسه المسلمون في عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه الراشدين من بعده وعلى مر التاريخ الإسلامي.

ولذلك استغل أعداء الإسلام مثل هذا التصور للجهاد، وجعلوا هذا الضعف في التصور وسيلة لِبَثِّ سمومهم في مجتمع الإسلام، ونشر أفكارهم الضالة، وإلصاقهم التهم بالشريعة الإسلامية؛ بأنها شريعة العنف والحرب وإراقة الدماء.

قال حسن مرعي في تعريفه للجهاد هو:"قتال من يجوز قتالهم"[1].

إن تعريف الجهاد بأنه قتال وانتهى الأمر فهم مبتور للتصور الإسلامي للجهاد، ولذلك فإن أكثر ما يعرف به الجاهليون أمة الإسلام أنها أمة الحرب المقدسة كما سيأتي.

وفي رسالة الدكتوراه للدكتور محمد خير هيكل خلص -بعدما أورد مجموعة من التعريفات- إلى التعريف الآتي:"[الجهاد] هو القتال في سبيل الله بشروطه"[2].

(1) القاموس الفقهي، حسن مرعي، ص66.
(2) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، 1/ 46.

فلم يستطع الباحث المذكور الخروج عما قاله السابقون في تعريف الجهاد، فقد ضيق واسعا، لما حصر الجهاد في القتال، رُغم أن البيان القرآني واضح، والسنة النبوية جلية كذلك ولم تستعمل الجهاد في معناه القتالي فقط، بل جاءت لفظة الجهاد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية بمعاني متعددة.

جـ) تعريف الجهاد عند المستشرقين وأعداء الإسلام:

لقد وجه الاستدماريون الاستخرابيون والمنصرون والمستشرقون واليهود وسائر أعداء الإسلام سهامهم الملوثة إلى فريضة الجهاد الكبرى وذلك عبر وسائل ماكرة متعددة، محاولة منهم لتشويه صورته، والتنقيص من قدره، وتخذيل المسلمين عنه.

وكان من شبهاتهم التي ألصقوها بتلك الفريضة العظمى شبهة انتشار الإسلام بالسيف، وإكراه الناس عليه، ثم بعد ذلك قاموا بمحاولة لإفراغ الجهاد في سبيل الله من مضامينه ومعانيه السامية، ليكون القتال في سبيل أهداف مختلفة بعيدة عن الإسلام كالقومية والعصبية والوطنية...كما خططوا جاهدين لزرع الفرق الأجيرة التي تعمل على إلغاء الجهاد في سبيل الله، بحيل شتى، إضافة إلى إطلاق الجهاد على الحركات القتالية التي تحمل شعار الجهاد الإسلامي تقتل الأبرياء واستغلال هذه الصورة المصطنعة للتنفير من فريضة الجهاد في سبيل الله، مع أن هذه الصورة لا تمت بصلة لدين الإسلام، بل يحرمها ولا يأذن بها، هذا إضافة إلى ما تقوم به المنظمات الدولية كالماسونية والصهيونية... من بث الشكوك حول تلك الفريضة ونشر الأفكار الرامية إلى القضاء على دين الإسلام بإلغاء الجهاد في سبيل الله.

هذا ومن اللافت للنظر أن التعصب الغربي بمستشرقيه وترسانته الإعلامية الكاسحة قد قام بتشويه صورة الجهاد في الإسلام، وأفرغه من معانيه المتعددة، واحتفظ بصورة القتال والعنف الذي ينبذه الشرع، بعد أن أضفى على هذه المعاني معنى الإرهاب ليكون ذريعة له لاستئصال الإسلام والمسلمين من جذورهم. والموسوعات التي ألفها المستشرقون في مطلع السبعينات من القرن العشرين-خاصة الإسلامية منها- مليئة بهذه الصور المشوهة لحقيقة الجهاد، وإن كان التمهيد له قد بدأ قبل ذلك بكثير.

لنقف هنا مع تعريف المستشرقين للجهاد وتشويههم لصورته، وحصر معناه في قتال الكفار والمشركين بالسيف فقط.

يقول بُطرُس البُسْتاني:"الجهاد في اصطلاح الشرع: محاربة من ليس بمسلم، ويسمى المغازي أيضا، وله عندهم فضل عظيم لبذل النفس فيه، وركوب المشقات والمخاطر وقد جعله النبي [ﷺ] في الفضل بعد الصلاة وبر الوالدين.." [1].

هذا التعريف منقول من تعريف الفقهاء للجهاد، ولم يأت (بطرس) بجديد في تعريفه.

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية-التي شارك في إعدادها عدد من المستشرقين- تحت عنوان (الجهاد) ما يلي:"نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة.. " [2].

ويقول المستشرق (د.ب ماكدونالد): "الجهاد يعني فرض الإسلام بالسلاح، إنه واجب ديني على المسلمين بصفة عامة" [3].

وقال المنصر المكرم متحدثا عن النبي ﷺ بقوله:"فإنا لم نره دعا الناس إلا بالسيف وبالسلب والسبي والإخراج من الديار.." [4].

أما الراهب الإسباني سان بدرو باسكوال المتوفى سنة 1300م فإنه يقول في كتابه (الفرقة المحمدية):"القرآن على حد سواء أمر بالسلب والحرب، والحديث أكد هذا"[5]. هكذا يعبرون عن ذلك الحقد الدفين الذي ملأ كيانهم وكليتهم.

هذا هو الجهاد في عُرف الجاهلين بحقائق الإسلام جهاد السيف وانتهى الكلام. وكأن الإسلام نقمة على العالمين.

---

(1) دائرة المعارف، 6/ 572.

(2) دائرة المعارف الإسلامية، تأليف: مجموعة من المستشرقين، يصدرها بالعربية: أحمد الشنتاوي وزملاؤه، 7/ 188-189.

(3) موسوعة الإسلام، تأليف: مجموعة من المستشرقين،1/ 1072.

(4) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة ردود على حملات تشويه صورة خاتم المرسلين، الحسيني الحسيني معدّى، ص33.

(5) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة ردود على حملات تشويه صورة خاتم المرسلين، ص38.

ث) مناقشة وردود:

إن المتدبر في تعريفات المستشرقين وأعداء الإسلام السابقة التي ترمي إلى استدامة العدوان والحروب بين الشعوب؛ هو نتاج لجهل محض بحقيقة الشريعة الإسلامية الغراء، التي انتشرت بمبادئها النابعة من الوحي القرآني والسنة النبوية المطهرة، ولم تنتشر بحد السنان، ولا بالغزو.

إنه تأويل منحرف لمفهوم الجهاد في الإسلام؛ وزاد انحرافا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول التي جعلته مرادفا للإرهاب والقتال.

هكذا لم يذكر الجهاد إلا وذكرت معه الكراهية، والانتقام، وسفك الدماء... مما يحول ذلك إلى هستريا جماعية في الأوساط الغربية فيزيد في تشويه صورة الإسلام، والانتقاص منه حتى يفقد الإسلام مصداقيته في وسط تلك الشعوب.

ويزيد الجرح عمقا حينما يروج أعداء الإسلام من المستشرقين والمغربين لفكرة تقسيم العالم إلى منطقتين: "دار الإسلام"، و"دار الحرب"[1]؛ وجعل الحرب هي العلاقة بين كل الشعوب، والمستهدف هو الإسلام.

ويا للعجب! كيف يتناسى هؤلاء ما في العهد القديم من عنف ومجازر؛ مجازر وحشية بشعة، قائمة على القتل والتمثيل بالقتلى والهدم واستلاب الثروات.

والحرب في اليهودية قائمة على الإبادة والاستئصال، ومحو أي أثر لما كان قائماً من ناس وتراث، أو من ماشية... وما يقع في فلسطين السليبة عامة وفي قطاع غزة خاصة لخير دليل على بشاعة الحرب عندهم.

جاء في الطبعة الأمريكية من الكتاب المقدس (عند اليهود)الصادرة بالعربية:"فهتف الشعب في القرون عندما نفخوا في القرون. وكان حين سمع الشعب صوت القرن وأطلق الشعب صيحة حرب عظيمة، أن السور سقط في مكانه. ثم صعد الشعب إلى المدينة،

(1) ونحن نسمي الأمة الإسلامية بأمة استجابة، أما الغرب فنسميه بأمة دعوة؛ أي يحتاج إلى من يحمل إليه رسالة الإسلام وعدل الإسلام ورحمة الإسلام.

وساروا قدما كل في جهة، واستولوا على المدينة. وحرموا[1] بحد السيف كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، من شاب وشيخ، وثور وخروف وحمار"[2].

وجاء في الكتاب المذكور كذلك:"وأحرقوا المدينة وكل ما فيها بالنار. إنما الفضة والذهب وكل متاع من نحاس وحديد أعطوها لخزينة بيت يهوه"[3]. وجاء فيه كذلك:"فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها واستولى عليها. وأخذ تاج ملكام عن رأسه. وكان وزنه وزنة من الذهب، مع حجارة كريمة؛ فصار على رأس داود وكانت الغنيمة التي أخرجها من المدينة كثيرة جدا، وأخرج الشعب الذي فيها وجعلهم على نشر الحجارة وقواطع الحديد وفؤوس الحديد، وأجبرهم على العمل بصنع اللِّبن. وهكذا فعل بجميع مدن بني عمون. وأخيرا رجع داود وكل الشعب إلى أورشليم"[4]. ومن المضحك أن نجد فقرة من نفس الإصحاح في الطبعة الفرنسية 1860م، وتم تغييرها بالفقرة السابقة، جاء في الطبعة الفرنسية عن الملك داود:" وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفئوس وأمرّهم في أتون الآجُر[5]، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم"[6]. تم تغيير هذه الفقرة بعد المصالحة التي تمت مع اليهود عام 1965 وتبرئتهم من دم المسيح.

وجاء في سفر حَزْقِيال من الكتاب المقدس عند اليهود ما يلي:"لا تشفق عيونكم ولا تترأفوا. اقتلوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء حتى الهلاك. ولكن كل إنسان عليه السمة لا تقتربوا منه. وابتدئوا من مقدسي فابتدؤا من الشيوخ الذين أمام البيت. وقال لهم: دنسوا البيت واملاؤا الديار من القتلى"[7].

وتكمن الوحشية القتالية عند اليهود في هذا النص من كتابهم المقدس:"ملعون من يمنع سيفه عن الدم"[8].

---

(1) أي قتلوا وقطعوا دابر أهل المدينة.
(2) سفر يشوع، الإصحاح:6، الفقرة: 20و21.
(3) سفر يشوع، الإصحاح:6، الفقرة: 24.
(4) سفر صَمُوئِيل الثاني، الإصحاح:12، الفقرات: 29-31.
(5) أي أحرقهم في أفران من الآجر.
(6) سفر صَمُوئِيل الثاني، الإصحاح:12، الفقرة: 31.
(7) الإصحاح:9، الفقرات: 5-7.
(8) سفر إِرْمِيا، الإصحاح:48، الفقرة: 10.

أما الحرب عند النصارى فرغم أنهم يعتبرون أنفسهم أهل تسامح وسلام؛ فإن ما جاء في كتابهم يبين حقيقتهم البلجاء، ومما جاء فيه مما افتروه على لسان السيد المسيح ليؤصلوا لحروبهم وجرائمهم:"جئت لألقي على الأرض نارا، وكم أتمنى أن تكون اشتعلت! وعلي أن أقبل معمودية الآلام[1]، وما أضيق صدري حتى تتم. أتظنون أني جئت لألقي السلام على الأرض؟ أقول لكم: لا، بل الخلاف. فمن اليوم يكون في البيت خمسة، فيخالف ثلاثة منهم اثنين، واثنان ثلاثة. يخالف الأب ابنه والابن أباه، والأم بنتها والبنت أمها، والحماة[2] كَنَّتها والكَنَّة[3] على حَماتها"[4]، وجاء فيه كذلك:"ومن لا سيف عنده، فليبع ثوبه ويشتر سيفا"[5].

وفي كتبهم الطوام وكثير من الإجرام، ولولا مخافة التطويل لاستخرجنا كل الفقرات التي تتحدث عن البشاعة والوحشية في القتال عند اليهود والنصارى، ولأثبتنا من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عن القتال-وهي قليلة جدا-، والأحاديث النبوية الشريفة لخرجنا بنتيجة-والتاريخ شاهد عليها- أن الحروب عبر التاريخ لم تعرف الفضيلة ولا الرحمة ولا العدل مثل حروب الإسلام التي انضبطت بضوابط -كما سيأتي بيان ذلك في بابه-ولم يقتل فيها إلا عدد قليل من الطرفين، بالمقارنة مع حروب اليهود والنصارى التي أبيدت فيها ملايين الشعوب، وأجريت فيها الأنهار من الدماء، كل هذا تحت مظلة الدين كما سطروا ذلك في كتبهم المقدسة، ولبيان كل هذا يحتاج الأمر إلى كتاب آخر على شكل دراسة ومقارنة للقتال في الإسلام واليهودية والنصرانية، وبهذا نرد بضاعة أهل الزيغ والضلال إليهم ونفسد عليهم رأيهم ونثبت في النهاية بتأصيل علمي وعقلي وواقعي أن دين العدل والرحمة والفضيلة والسلام هو دين الإسلام.

فلماذا لا ينتقد المستشرقون من اليهود والنصارى هذه النصوص وغيرها وهي كثيرة في الكتب المقدسة عندهم!!!

(1) جاء في التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، في شرحه لهذا القول: (معمودية الآلام): إن المعمودية المؤلمة التي أشار إليها يسوع هي عملية الصلب التي تنتظره. ص2119.
(2) الحماة: أم الزوج.
(3) الكنة: امرأة الابن.
(4) العهد الجديد، (لوقا)، الإصحاح:12، الفقرات: 49-53.
(5) العهد الجديد، (لوقا)، الإصحاح:22، الفقرة: 36.

ولا نذهب بعيدا كذلك ففي تاريخ النصارى أدلة صريحة، وحقائق بلجاء، على التاريخ الدموي النصراني، ويكفي أن نستعرض كتب تاريخ العصور الوسطى، بل ما قبلها وما بعدها، مروراً بالحروب الصليبية الدموية، وصكوك الغفران، ومحاكم التفتيش، ومواكبتها للاستدمار والاستخراب، والتنصير القهري... أضف إلى هذا المجازر التي دارت بين النصارى عند قيام التعصب الكنسي بتأليه السيد المسيح في مجمع نيقية الأول عام325م، ثم عند فرض الثالوث في مجمع القسطنطينية عام 381م، وما تلا كل هذا من مذابح على مر التاريخ.

ولكن.. يبدو أن الغرب الصليبي المتعصب يتناسى تلك الأنهار من الدماء، وما تلاها من الدمار، ويتناسى حروبه الصليبية الاستخرابية وخططه الماكرة لاستئصال الإسلام منذ بداية انتشاره حتى يومنا هذا، كما يتناسى تجارته بالعبيد، والتي ظلت حتى القرن العشرين، خاصة ألاعيبه التي تلتها غرس البذرة الخبيثة والغرس المسموم الكيان الصهيوني في جسم الأمة المسلمة في فلسطين، أضف إلى هذا وذاك أنه اتخذ "قارعة" الحادي عشر من أيلول 2001م، وسيلة خبيثة لهدم الإسلام، واستئصال المسلمين.

ولذلك فإن فرية (انتشار الإسلام بحد السيف) التي أطلقها المستشرقون؛ فرية خاطئة لا تستند إلى سند صحيح، ومخالفة لمقاصد الشريعة الإسلامية ولفهم القرآن الكريم؛ويكفي للرد عليهم أن الإسلام لا يكره الناس على أن يكونوا مسلمين:﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ...﴿٢٥٦﴾ ﴾[1]، ﴿ ...أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[2]. إلا أهل الردة فلهم عقوبتهم المقررة في الشريعة الإسلامية.

وللإشارة فقد زعم بعض المغرضين من المستشرقين وغيرهم أن هناك تعارضا بين قوله جل وعلا: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ...﴿٢٥٦﴾ ﴾[3]، وقوله جل وعلا: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ

(1) سورة البقرة: من الآية 256.
(2) سورة يونس: من الآية 99.
(3) سورة البقرة: من الآية 256.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾[1]، فالأولى تمنع الإكراه في الدين، والأخرى تأمر بالقتال والإكراه في الدين؛ وهذا خطأ فاحش، لأن الآية الأولى تتحدث عن سلوك دائم إلى يوم القيامة، في عدم إكراه الناس على اعتناق دين معين، والأخيرة موضوعها قتال الكافرين كافة؛ ذلك الروم الذين اتخذوا المسيحية شعارا لهم-ولم يتخلصوا من وثنيتهم- كانوا يخططون للهجوم على دولة الإسلام في المدينة، وأصبحوا يمثلون خطرا كبيرا على مجتمع الإسلام الجديد وعلى أمنه واستقراره، فأمر الله تبارك وتعالى المسلمين بقتالهم حتى يكفوا عن أذاهم بالخضوع لسلطان دولة الإسلام، ويعطوا الجزية في غير استعلاء.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله-:"و لما أنزل الله عز وجل على رسول {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون } ندب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب من سنة تسع"[2].

فالآية الكريمة لم تأمر بقتال الذميين لإدخالهم في دين الإسلام. ولو كان الأمر كذلك فما الفائدة من إعطاء الجزية وكف القتال عنهم! ولكان استمرار القتال سواء أعطوا الجزية أم لم يعطوها، حتى يدخلوا في دين الإسلام أو تقطع رؤوسهم. لكن الدارس للسيرة النبوية ولتاريخ الخلافة الراشدة وما بعدها لم يجد بتاتا قتال المسلمين لغيرهم لإجبارهم على اعتناق الإسلام، بل كان إعطاء أهل الذمة الجزية مقابل إبقائهم في الأرض التي يفتحها المسلمون، أو حمايتهم في ديار المسلمين وعدم مشاركتهم في الخدمة العسكرية وفي القتال المفروض على المسلمين، ولو أكرهوا على القتال مع المسلمين لكان في ذلك إكراههم على القتال من أجل عقيدة لا يؤمنون بها، والمسلمون يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ونصرة دين الإسلام، وفي هذا منتهى العدل، أضف إلى ذلك أن الجزية التي فرضت على الذكور البالغين القادرين وأعفي منها الفقراء من أهل الذمة رمز للخضوع لدولة الإسلام

(1) سورة التوبة:29.

(2) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ، لابن كثير، ص109.

ورمز كذلك للحرية الدينية وممارسة الشعائر العقدية وعدم إجبارهم على تغيير دينهم، وزيادة على ذلك فإن هناك حالات اشترك فيها الذميون في القتال مع المسلمين فتم إعفاؤهم من الجزية، والتاريخ شاهد على هذا، لكن أعداء الله من المستشرقين وغيرهم دائما يشوهون تاريخ التسامح الإسلامي الذي لم يعرف التاريخ مثيلا له.

ثم ألم يقرأ هؤلاء المستشرقون والمغرضون ما في كتبهم المقدسة من الجزية التي فرضت على الأمم التي خضعت لهم: جاء في الكتاب المقدس عند اليهود:"وأقام داود حاميات عسكرية في أرام دمشق، وأصبح الأراميون يدفعون له الجزية، وكان الرب ينصر داود حيثما توجه" [1].وجاء في التفسير التطبيقي للكتاب المقدس في شرحه لهذه الفقرة:"الجزية ضريبة تفرض على الأمم المهزومة. وكانت هذه الضريبة تدعم حكومة إسرائيل وتثبت أن الأمة المهزومة تقع تحت سيطرة الأمة المنتصرة"[2].

وقد يقول قائل: وماذا تقول في بعض كتب فقه الجهاد وفي بعض التفاسير التي قالت بأن آخر مرحلة استقر عليها حكم القتال هو الآية 29 من سورة التوبة التي يسمونها بآية السيف وباقي الآيات قالوا بنسخها؛ فأجيب منبهي بأن القرآن يجب أن يضم بعضه إلى بعض حتى تدرك معانيه وحتى يكون لنا موقف صريح في باب القتال، ثم إن الفقيه في حاجة إلى حكمة لتنزيل الأحكام على الواقع، وفضلا عن هذا فإن الغاية من تشريع القتال لا يمكن أن تعطل بفهم جزئي لتلك الآية الكريمة ولو فسرها كبار المفسرين؛ أضف إلى ذلك أن القرآن يقول في موضع آخر:﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[البقرة]؛ ويعتبر الفتنة أشد وأنكى من القتل، لأن القتل اعتداء على البدن، والفتنة اعتداء على الروح، أي افتان الإنسان في دينه وعقيدته..؛ فالقتال من أجل القضاء على هذه الفتنة مطلوب شرعا تقره الشرائع السماوية وحتى القوانين الوضعية وتقره القيم الأخلاقية، وتقره حتى القيم الفطرية.. فما الإشكال إذن!

(1) سفر صموئيل الثاني، الإصحاح: 8، الفقرة: 6.
(2) ص655.

ومن ثم فليس من الضروري أن نقاتل أهل الكتاب الذين لم يعتدوا علينا ولم يفتنونا في ديننا، والآية المذكورة نزلت في مجموعة معينة وجب قتالها، فالقرآن أمرنا أن نقاتل من قاتلنا واعتدى علينا أو وقف في سبيل الدعوة الإسلامية، أو منع وصولها إلى المستضعفين.. فمن سالمنا سالمناه ومن عادانا عاديناه ومن حاربنا حاربناه، ومن وقف في وجه تبليغ رسالة الإسلام قاتلناه لا لإدخاله في ديننا ولكن دفاعا عن النفس والعقيدة والدعوة وعندنا الدستور القرآني الصريح: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]، وقال عز من قائل: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾[2]، وقال جل ذكره: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾[3]. قال الشيخ السعدي في تفسيره: " {وَإِنْ جَنَحُوا} أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا {لِلسَّلْمِ} أي: الصلح وترك القتال.

{فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلا على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماما لقواكم، واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضا، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن

(1) سورة الممتحنة، 8-9.
(2) سورة النساء: 90.
(3) سورة الأنفال: 61.

يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له،.فصار هذا السلم عونا للمسلمين على الكافرين،.ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم"[1].

وقال ربنا تبارك وتعالى يخاطب نبيه الكريم ﷺ في شأن أهل الكتاب:{﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾[2].

ويمكن الرد كذلك على من قال بقتال أهل الكتاب وإن لم يبدؤوا بقتالنا بقول العلامة سعيد رمضان البوطي قال:"لقد جعل الله الغاية في الأمر بالقتل الخضوع لنظام الجزية، ولا ضير عندئذ في عدم الدخول في الإسلام. ولو كان القتال من أجل الكفر كما قالوا، لما قام الخضوع لنظام الجزية مقام الإسلام، وهذا واضح.

إذًا، فما المشكلة التي أنهاها نظام الجزية، حتى انتهى بسبب ذلك القتال؟

إنها مشكلة واحدة، هي مشكلة الحرابة. فوجود الحرابة هو المبرر للقتال، وانتهاؤها بالاتفاق على نظام الجزية هو الذي أنهى الحرابة ومدَّ رواق السلم.

إن الآية أمرت بالقتال لا بالقتل، فأنت تقول: قتلت فلانا، إذا بدأته بالقتل، وتقول: قاتلته، إذا قاومت سعيه إلى قتلك بقتل مثله، أو سابقته إلى ذلك كي لا ينال منك غرة.

وبيان هذا أن الكتابيين، أو غيرهم، ربما كانوا في وضع يغريهم بالعدوان أو التخطيط له، فما الذي يجب على المسلمين في هذه الحال؟

يجب عليهم أن يصدوا عدوانهم أو خططهم العدوانية. ولن تسري الطمأنينة والأمن بين الطرفين إلا بالتقائهما معا على مبدأ ونظام يصدقان في الانضباط به، ويجمعهما بذلك

(1) تفسير السعدي، ص325.
(2) سورة الشورى: 15.

مناخ المجتمع الإسلامي الذي يشكل الحزام الواقي من احتمال تسرب أي كيد أو عدوان خارجي ينحط بالأذى على أي من أفراد هذا المجتمع مسلما أو غير مسلم"[1].

وفضلا عن ذلك فقد روى الحاكم في مستدركه من حديث مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه قال: "قدمت قتيلة بنت العزى بنت أسعد من بني مالك بن حسل على ابنتها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما؛ وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية، فقدمت على ابنتها بهدايا ضبابا وسمنا وإقطا، فأبت أسماء أن تأخذ منها وتقبل منها وتدخلها منزلها، حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرها أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها فأنزل الله عز وجل ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[2]" [3].

يعلق الشيخ العلامة سعيد رمضان البوطي على هذا الحديث قائلا:"ولعلك لن تجد أصرح ولا أبين، من هذه الآية التي استشهد بها رسول الله ﷺ، دلالة على أن المشركين الذين نزلت آية القتال في حقهم، إنما أنزل الله في حقهم ذلك للحرابة التي كانوا يمارسونها لا للكفر الذي كانوا يتصفون به.

وإنا لنقرأ بعد هذه الآية سلسلة من الآيات المترابطة، كلها تؤكد أن علة الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا، إنما هو تفننهم في الكيد للمسلمين والتربص بهم، وعدم مراعاتهم إلًّا ولا ذمةً في حقهم.

وهكذا تتناسق الآيات الناهية عن القسر والإكراه على الدين، والآمرة ببر من لم يمارس أي إساءة إلينا منهم والقسط إليهم، مع الآيات الآمرة بقتلهم وقعود كل مرصد لهم، نظرا إلى أنهم بدؤوا الخيانة والغدر ولا يرقبون في المؤمنين إلًّا ولا ذمة. ويسقط الآيات الثانية الآمرة بالقتال للآيات الأولى الناهية عنه والآمرة ببرهم والقسط إليهم"[4].

(1) الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ ص101.
(2) سورة الممتحنة، الآية: 8.
(3) المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الممتحنة، ح3804. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(4) الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ ص58.

أما الحديث الذي يستشهد به من قال بقتال أهل الكتاب وإن لم يبدؤوا بالقتال: فعَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺ قَالَ[:أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ][1].

إن تعبير سيدنا رسول ﷺ بـ (أقاتل) على وزن (أفاعل) وعلى هذا التعبير أجمع الرواة، يرد كل الإشكالات التي يمكن أن توجه إلى هذا الحديث في علاقته مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في باب القتال، فلم يقل الحبيب المصطفى ﷺ (أمرت أن أقتل الناس) ولكن قال: (أمرت أن أقاتل)؛ وفرق واسع بين أقتل وأقاتل، وبين قتل وقاتل[2].

يقول العلامة البوطي:"إن كلمة (أقاتل) تدل على المشاركة. فهي لا تصدق إلا تعبيرا عن مقاومة من طرفين، بل هي لا تصدق إلا تعبيرا عن مقاومة لبادئ سبق إلى قصد القتل. فالمقاوم للبادئ يسمى مقاتلا. أما البادئ فهو أبعد ما يكون عن أن يسمى مقاتلا، بل هو في الحقيقة يسمى قاتلا بالتوجه والهجوم أو بالفعل والتنفيذ. إذ لا ينشأ معنى الاشتراك إلا لدى نهوض الثاني للمقاومة والدفاع.

ألا ترى أنك تقول: لأقاتلن هؤلاء على ممتلكاتي أو على عرضي. فلا يفهم أحد من كلامك هذا إلا أنك عازم على مجابهة العدوان منهم على مِلكك أو عرضك. فقتلك لهم إنما يأتي بعد توجههم إليك بالعدوان.

ومن هنا يتضح أن من الخطأ بمكان أن تعبر عن هذا المعنى بقولك" لأقتلن هؤلاء على مالي أو عرضي "[3].

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب:{فإن تابوا وأقاموا الصلاة...}، ح25. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ح124.
(2) يقول ابن منظور في لسان العرب:"وسَبيلُ فاعَلَ أن يكون بين اثنين في الغالب". مادة: قتل.
(3) الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ ص59.

قال الإمام ابن دقيق العيد [1]-رحمه الله-:" لا يلزم من إباحة المقاتلة إباحة القتل لأن المقاتلة مفاعلة تستلزم وقوع القتال من الجانبين، ولا كذلك القتل. وحكى البيهقي عن الشافعي أنه قال: ليس القتال من القتل بسبيل، قد يحل قتال الرجل ولا يحل قتله"[2].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله-:"وعلى هذا ففي الاستدلال بهذا الحديث على قتل تارك الصلاة نظر؛ للفرق بين صيغة أقاتل وأقتل. والله أعلم"[3].

فيصبح معنى الحديث إذن، "أمرت أن أصد أيَّ عدوان على دعوتي الناس إلى الإيمان بوحدانية الله، ولو لم يتحقق صد العدوان على هذه الدعوة إلا بقتال المعادين والمعتدين فذلك واجب أمرني الله به ولا محيص عنه"[4].

وقيل إن المقصودين في الحديث:"مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحد. وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه"[5].

أما الآية الأخرى التي يستدلون بها عل مقاتلة كافة الناس حتى يدخلوا في دين الإسلام قوله تبارك وتعالى:﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[6]، والرد عليهم يأتي مباشرة في الآيات التي بعدها: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ

(1) هو: علي بن محمد بن علي بن وهب بن مطيع، القاضي محب الدين، أبو الحسن الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي الفتح بن الشيخ مجد الدين القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، ولد بقوص في صفر سنة 657هـ، وأخذ عن والده، وسمع الحديث، وحدث. ولي تدريس الهكارية والسيفية وناب في الحكم عن والده. توفي في شهر رمضان سنة 716هـ، ودفن عند أبيه. طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة، ترجمة رقم:513، ص225-226.

(2) فتح الباري، 2/ 91-92.

(3) فتح الباري، 2/ 91.

(4) الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ ص59.

(5) صحيح مسلم بشرح النووي، 1/ 215.

(6) سورة التوبة: 5.

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ [1] فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾[2]، إلى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[3]، فالآيات الكريمة ذكرت بحيثية قتل المشركين وبينت ذلك بيانا واضحا؛ ذلك أنهم نكثوا أيمانهم التي التزموا بها، ونقضوا المعاهدة التي أبرمت بينهم وبين المسلمين، وبدؤوا بالخيانة والغدر والعدوان، وهذه الأسباب كلها موجبة لقتال أولئك المشركين، وأن سبب القتال هو الحرابة المتمثلة في العدوان لا الكفر.

جاء في تفسير أحكام القرآن: في تفسير قوله تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} في الآية السابقة:"عام في كل مشرك، لكن السنة خصت منه من تقدم ذكره هذا من امرأة وصبي، وراهب وحشوة (...)، وبقي تحت اللفظ من كان محاربا أو مستعدا للحرابة والإذاية، وتبين أن المراد بالآية: اقتلوا المشركين الذي يحاربونكم"[4].

أما من استشكل عليه الأمر بغزوتي خيبر التي هاجمها النبي ﷺ على غرة من أصحابها وتبوك التي بدأها النبي ﷺ بالقتال وأمثالهما كغزوة بني المصطلق وسرية مؤتة، ففي الحقيقة لا إشكال في هذا؛ إذا تدبرنا في أسباب تلك الغزوات كما نقلتها كتب المغازي والسير، وإذا أدركنا حقيقة العدوان والحرابة؛ ولهذا يكفي للهجوم على الأعداء وقتالهم إذا ثبت ببينة وأدلة ما يخططون له من الكيد والمكر ودس الدسائس للقضاء على الإسلام أو الهجوم على داره...

فمن حق المسلمين مباغتة العدو -إذا ظهر عدوانه بأدلة- لصد عدوانه وهجومه على أرضهم قبل أن يباغتهم ويهزموهم في عقر دارهم، وهذا ما فعله النبي المجتبى ﷺ في الغزوات السابقة ليفوت الفرصة على الكفار والمشركين، ويرد كيدهم إليهم، ويجعل

(1) {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ}: أي فما أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 8/ 69.

(2) سورة التوبة: 6-7.

(3) سورة التوبة: 13.

(4) 2/ 370.

تدبيرهم تدميرهم. وما جرى في غزوة بني المصطلق وفي غزوة خيبر وتبوك وسرية مؤتة من هذا القبيل فقد كان هناك تخطيط وكيد ومكر للهجوم على دولة الإسلام في المدينة؛ فقد كان بنو المصطلق يخططون لشن هجوم على المسلمين بقيادة زعيمهم الحارث بن أبي ضرار، فلما تأكد النبي ﷺ من ذلك المكر والعدوان والحرابة أمر المسلمين بالخروج إليهم.

كما علم النبي ﷺ بوجود حلف خفي قد تم بين يهود خيبر وقبيلة بني غطفان لمواجهة المسلمين فسارع النبي ﷺ إلى الإغارة عليهم وكسر شوكتهم قبل أن يغيروا عليه.

أما في سرية مؤتة فكان سبب ذلك أن النبي ﷺ أرسل إلى ملك بصرى الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله ﷺ فعرض له شرحبيل ابن عمرو الغساني فأوثقه رباطا ثم قدمه فضرب عنقه صبرا، وقد انتشر في ذلك الوقت أن الرسل لا تتعرض لأي خطر فلما خرق شرحبيل هذا القانون أمر النبي ﷺ أصحابه بالخروج في سبيل الله لصد هذا العدوان.

وفي غزوة تبوك كان الروم يخططون للهجوم على المسلمين فبيتهم النبي ﷺ بغارة مباغتة قبل أن يهاجموه في مدينته، وسيأتي تفصيل أسباب تلك الغزوات في بابها.

إذًا، تبين لنا أن حروب النبي ﷺ كانت حروب دفاعية لمقاومة العدوان الفعلي كغزوة أحد وغزوة الخندق وأخرى هجومية لظهور القصد العدواني من خلال أدلة ثابتة وبينة واضحة كغزوة خيبر وتبوك.

أضف إلى ذلك أن هناك حديثا آخر يزيد الأمر وضوحا: فعَنْ أَبِي سُكَيْنَةَ-رَجُلٍ مِنَ الْمُحَرَّرِينَ- عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: [دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ، وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ][1].

فالحبشة كانوا نصارى من أهل الكتاب، والترك كانوا على أديان أخرى.

(1) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في النهي عن تهييج الترك والحبشة، ح4302. وسنن النسائي، كتاب الجهاد، باب غزوة الترك والحبشة، ح3176. قال الألباني في السلسة الصحيحة: حديث حسن، وهذا إسناد لا بأس به في الشواهد، رجاله كلهم ثقات غير أبي سكينة. ح772. 2/ 771.

هذا فضلا على أن زعماء تلك الديانات وملوكهم في عهد النبوة والخلافة الراشدة كانوا لا يسمحون لشعوبهم أن تصل إليهم دعوة الإسلام، ويقفون في وجهها، فكان واجبًا على المسلمين أن يقاتلوهم لإزاحة تلك الحواجز من طريق الدعوة.. أما اليوم فيستطيع المسلمون أن يبلغوا رسالة الإسلام بشتى الوسائل ويعلم الجميع أنه لم يبق هناك بيت في الغرب إلا ودخله التلفاز أو الإنترنت؛ ولهذا فطريق تبليغ دعوة الإسلام مفتوح؛ وذلك عن طريق القنوات الفضائية والإذاعات، وشبكات الإنترنت، والرسائل المكتوبة، والمكالمات الهاتفية، والمقالات بشتى اللغات... ولا يمنعك مانع، بالعكس نحن مقصرون جداً في إبلاغ رسالة الإسلام إلى العالم، نحن محتاجون إلى ملايين الأشخاص الذين يبذلون كل الجهود والمساعي لإسماع صوت الفطرة صوت الإسلام لتلك الديار.. ولا يخفى على أحد أن التنصير جند لحملاته التنصيرية 4.750.000 منصر ومنصرة في أرجاء المعمورة، ماذا عندنا نحن أمة الإسلام لنبلغ دعوة الإسلام في العالمين؟

إذًا فقد كان لغير المسلمين –ما لم يكن وثنيا من جزيرة العرب فهذا له حكمه الخاص– الحرية الكاملة في ممارسة عقائدهم وشعائرهم في ظل دولة الإسلام، وقد كان يعيش في ظل دولة الإسلام أجناس مختلفة كاليهود والنصارى والمجوس، حتى البلاد التي فتحها المسلمون كانت فيها بقايا من أصحاب الملل الأخرى، ومن قرأ تاريخ الفتوحات الإسلامية يجد المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع أبناء الأرض المفتوحة تسمح لهم بممارسة عقائدهم، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يكتب معاهدته لنصارى الشام تبين سعة صدر المسلمين وتسامحهم وقمة الحرية في الإسلام في ممارسة غير المسلمين لشعائرهم الدينية دون استهزاء ولا انتقاد:" بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت[1]؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على

(1) اللصوت: اللَّصْتُ اللِّصُّ في لغة طَيّئ وجمعه لُصُوت. لسان العرب، مادة: لصت.

نفسه وماله مع الروم ويخلى بِيَعهم وصُلُبهم فإنهم مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنوا على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلُبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم؛ ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان "[1].

وعن جسر بن أبي جعفر، قال: شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، قرئ علينا بالبصرة: " أما بعد، فإن الله سبحانه، إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتوا وخسرانا مبينا، فضع الجزية على من أطاق حملها. وخل بينهم وبين عمارة الأرض؛ فإن في ذلك صلاحا لمعاش المسلمين، وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة، قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. فلو أن رجلا من المسلمين، كان له مملوك كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، كان من الحق عليه أن يقوته أو يقويه، حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة، يسأل على أبواب الناس، فقال: ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك في كبرك. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه"[2].

وفي سيرة ابن هشام أن وفد نجران –وكانوا نصارى– "لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر(...).يقول: بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ ما رأينا وفدا مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون فقال رسول الله ﷺ: {دعوهم} فصلوا إلى المشرق"[3].

(1) تاريخ الطبري، 2/ 525.
(2) الأموال، لابن زنجويه، 1/ 169–170.
(3) سيرة ابن هشام، 2/ 428.

قارن هذا بما فعلته الأديان الأخرى لمخالفيها على مدى التاريخ، وما فعله أصحاب العقائد اللائيكية ودعاة الإيديولوجيات في القرن العشرين النصراني بخصومهم، وما التمييز العنصري الذي يكتوي بناره المسلمون اليوم في المهاجر بالذي ينسى، وما يعانونه من اتهامهم بالإرهاب في أوروبا وأمريكا، ومراقبتهم والتصنت على مكالماتهم، وإغلاق المساجد وفرض الوصايات عليها، والتضييق على الحريات... ومنع الفتيات المحجبات من الدخول إلى الجامعات والمعاهد.

أضف إلى هذا القتل والخراب الذي يحدث على أيدي المستدمر في بلاد المسلمين.. مما يندى له جبين الوحوش،وما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية، وما حدث على أيدي الروس الذين قتلوا 19.000.000 من أجل إقامة حكم شيوعي، وما عانه مسلمو البوسنة والهرسك من الاعتداءات والإبادة الجماعية، والتقتيل، والتعذيب، واغتصاب آلاف النساء وغيرها من الإرهاب الوحشي والجرائم البشعة التي تدمي القلوب وتشيب لهولها الولدان لشاهد على التاريخ الإجرامي النصراني.

وما وقع في عهد ستالين من مجازر دموية وحشية وما شهده الشعب في عهده من حمامات الدماء، وحملات التصفية والتطهير.

وكل ما فعلته النازية والشيوعية من العنف الثوري وإراقة الدماء استوحوه من المدارس النصرانية، وما مذبحة باريس (24 غشت 1572م) بالتي تنسى، التي عبرت عن خيانة وغدر الكاثوليك لإخوانهم البروتستانت الذين تم ذبحهم –بعد استدعائهم للضيافة– في غسق اليل فما أصبح الصباح حتى أصبحت الشوارع كلها كأنهار الدماء، لكن رد البروتستانت لما اشتد عودهم وقويت شوكتهم على الكاثوليك بمثل ما فعلوه بهم أو أكثر فذبحوا وقتلوا وخنقوا.

أما عن الحملات الصليبية ضد المسلمين فحدث ولا حرج.. وغيرها من المذابح والفضائح التي لا تخطر ببال، وتفوق كل خيال.

فلماذا يتعامى هؤلاء عن كل هذه الجرائم ليلصقوا تهمة سفك الدماء بالإسلام، مع أن التاريخ لم يعرف حربا منضبطة ورحيمة كحروب المسلمين.

ونرجع إلى أصحاب فرية (انتشار الإسلام بالسيف) لنقول لهم: أليس الاعتداء حقا ما يقوم به اليهود الصهاينة من جرائم التوسع والاستيطان في الأراضي الفلسطينية الشرعية، عن طريق السرقة والاغتصاب والعدوان والظلم والتقتيل والتهجير..، وما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية اليوم في العراق من التمثيل بالقتلى وهدم المنازل واتهام الأبرياء والرمي بهم في السجون والاغتصاب..وما يقع في أفغانستان في سياستها التوسعية الاستخرابية... هذا في الوقت الذي يحرص فيه الإسلام على حقوق الناس، كما جاء في صحيح الإمام البخاري عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ [1]".

أضف إلى ذلك أن رسالة الإسلام هي رسالة دعوة إلى الله ورسوله والإيمان بالغيب؛ كما لخصها سيدنا ربعي بن أبي عامر ﷺ في قوله لرستم: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"[2]. فنحن دعاة ولسنا جناة ولا قضاة.

و لا يعني هذا أننا لا نأخذ الأهبة والحذر، بل إننا أمرنا بإعداد القوة دائما؛ القوة الاقتصادية والتكنولوجية والإعلامية... فضلا عن القوة المعنوية أو الروحية.. فرحمة الإسلام وفضيلته وعدله وعفوه وصفحه لا يأت من موقع الجبن والانهزام لكن يأت من موقع قوة.. والتاريخ شاهد على ذلك.

وهذا يلقم للمستشرقين جبالا من الحجارة، ليدركوا أن الإسلام هو دين العدل والدفاع عن المستضعفين وتوفير الأمن في العالمين... أما اليهودية والصهيونية العالمية والدول الاستدمارية الاستخرابية فهي التي انتشرت بالعدوان والسيف والظلم... ونصوص العهد القديم والعهد الجديد السابقة الذكر شاهدة على هذا.

ونقف مليا مع بعض معاني الجهاد كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لننقض بذلك مقولة أهل الزيغ والضلال من المستشرقين ومن سار في ركابهم الذين يحصرون الجهاد في السيف فقط.

(1) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أراضين، ح3196.
(2) البداية والنهاية، لابن كثير، 4/ 163.

لقد وردت لفظة الجهاد في القرآن والسنة بمعاني مختلفة، حيث تفرق بين مفهوم (الجهاد) ومفهوم (القتال)، فكل مسلم يجب أن يكون مجاهدا وليس من الضروري أن يكون مقاتلا، ولقد لبث النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاما مجاهدين ولم يكونوا مقاتلين، حتى كانت الهجرة وأذن الله للذين أخرجوا من ديارهم بغير حق أن يدافعوا عن أنفسهم، تقريرا لحرية الدعوة، ورفعا لكلمة الله تعالى، ثم قرر القرآن القتال لإنقاذ المستضعفين من قبضة المستكبرين.

فالإسلام لا يتشوف إلى القتال، ولا إلى إراقة الدماء، وإزهاق الأرواح، بل إذا تم الاتفاق بين الطرفين على حل الأزمة بغير إراقة الدماء والقتال، كان ذلك أفضل: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[1].

وسيدنا رسول الله ﷺ هو أشجع الناس وكان لا يخاف في الله لومة لائم ومع ذلك كان لا يحب الحرب لأنه بعث رحمة للعالمين وما بعث لإسفاك الدماء، وكان يقول لأصحابه: [لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ][2].

وكان ﷺ يقول: [تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ وَأَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ][3].

حتى لفظة (الحرب) يكرهها الإسلام، في مقابل ذلك يحرض الإسلام على القتال وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله إذا انتهكت حرماته، أو أرعب أتباعه، أو حوربت دعوته، أو اغتصبت أرضه، أو ديست مقدساته: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[4].

(1) سورة الأحزاب: 25.
(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب كان النبي إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول، ح2966.
(3) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغير الأسماء، ح4950. والحديث عن عَنْ أَبِي وَهْبٍ الْجُشَمِيِّ.
(4) سورة التوبة: 13.

وردت لفظة الجهاد بمعنى جهاد الكلمة والحجة أو الجهاد البياني: قال الحق جل وعلا في سورة الفرقان –وهي مكية كلها–: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ[1] جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[2]. "أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت فابذل جهدك واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم"[3].

وقال ﷻ في سورة النحل–وهي مكية كلها عند جمهور علماء التفسير– قول الله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[4]. أي: "أي: ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلبا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس"[5].

كما وردت لفظة الجهاد بمعنى الجهاد بالنفس والمال؛ قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة –وهي سورة مدنية: {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[6]. إن الجهاد بالمال والنفس تحقيق كامل لعطاء العوض عن رضى الله ﷻ وجنته.

وقد ورد الجهاد بمعنى العمل المبرور والإحسان؛ فعن عَبْد اللَّهِ بْنَ عَمْرو– رضى الله عنهما – يَقُولُ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: "[أَحَيٌّ وَالِدَاكَ]. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: [فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ] "[7].

---

(1) قال الشيخ الحسين بن محمد الدامغاني: في قوله تعالى: {وجاهدهم به}"يعني بالقول". قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، حققه وأكمله وأصلحه: عبد العزيز سيد الأهل، ص113.

(2) الآية:52.

(3) تفسير السعدي، ص584.

(4) الآية:110.

(5) تفسير السعدي، ص450.

(6) الآية: 88.

(7) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين، ح3004.

وعن الصِّدِّيقة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: [لا لكن أفضل الجهاد حج مبرور] [1].

وعن أم أنس رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أوصني قال: [اهجري المعاصي فإنها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثري من ذكر الله فإنك لا تأتي الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره] [2].

وورد كذلك بمعنى جهاد النفس: قال الحق جل ذكره في سورة العنكبوت –وهي سورة مكية–﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[3]، أي:" {ومن جاهَدَ} نفسه، بالصبر على مشاق الطاعات، ورفض الشهوات، وإذاية المخلوقات، وَحَبْسَ النفس على مراقبة الحق في الأنفاس واللحظات، {فإنما يُجاهدُ لنفسه}؛ لأن منفعة ذلك لها"[4].

وعن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ يُحَدِّثُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ]"[5].

وورد كذلك الجهاد بمعنى القيام لله بالقسط وقول الحق،–وبلسان العصر: بمعنى الجهاد السياسي– عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن النبي ﷺ قال: [إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر] [6].

وعن جابر ﷺ: عن النبي ﷺ قال: [سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله] [7].

(1) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الحج المبرور، ح1448.
(2) المعجم الوسيط للطبراني، 7/ 51. هذا الحديث عن أم أنس الأنصارية وليست بأم سليم أم أنس بن مالك لأنها امرأة أخرى من الأنصار لم يرو هذا الحديث إلا بهذا الإسناد تفرد به هشام بن عمار.
(3) الآية: 6.
(4) البحر المديد، 5/ 298.
(5) سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب من جاء في فضل من مات مرابطا، ح1621. قال أبو عيسى في الحديث: حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(6) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب أفضل الجهاد، كلمة عدل عند سلطان جائر، ح2174، قال أبو عيسى وفي الباب عن أبي أمامة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، قال الشيخ الألباني: صحيح السلسلة الصحيحة، 1/ 806.
(7) المستدرك، للحاكم، كتاب معرفة الصحابة، ذكر إسلام حمزة ﷺ، ح4884، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وجاء الجهاد بمعنى القتال باليد والمدافعة باللسان للدفاع عن حمى الإسلام، ولتأمين الدعوة والقيام بواجب تبليغ الرسالة للناس كافة، وإقامة العدل في الأرض: عَنْ أَنَسٍ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [جَاهِدُوا بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ][1].

هذا علاوة على أن الله تعالى ما ذكر المؤمنين في موقف التعريف بأخص خصائصهم إلا ذكر الجهاد بالمال والنفس. فالجهاد مستمر إلى يوم القيامة وغايته حمل رسالة الإسلام وتبليغها للناس كافة. فإذا اعترض طريق التبليغ معترض، أو وقف في طريقها معتد، أو هدد الإسلام مهدد فالقتال آخر وسيلة لصد المعتدي وكسر شوكة العائق.

وهذا كله يوضح مدى اتساع دائرة الجهاد، وأنها ليست محصورة في القتال فقط، بل هي مرتبطة بجوانب الحياة كلها.

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في هذا الباب كثيرة-سنذكر بعضها في أبواب الجهاد-، منها ما ورد بمعنى جهاد النفس، ومنها ما ورد بمعنى القتال، ومنها ما ورد بمعنى الجهاد السياسي، ومنها ما ورد بمعنى جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها ما ورد بمعنى الجهاد العلمي.

فيتحصل من حديثنا السابق عن بعض معاني الجهاد كما جاءت في القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ ومن وجهة نظر التأصيل العلمي، أن كل قتال في سبيل الله يعد جهادا، وليس كل جهاد في سبيل الله ينبغي أن يكون قتالا.

ومن ثَمَّ فإن الجهاد بالمعنى المذكور متصل وماض حقا إلى يوم البعث والنشور، بينما القتال حالة استثنائية له أسبابه وعوارضه بها يقوم ويزول.

فالجهاد بمعناه الشامل قيمة عالية المقام، عظيمة القدر تمثل دعامة رئيسة في منهاج الإسلام، فضلا عن أن لتلك القيمة رنينها المجلجل في عمق التاريخ الإسلامي، وبصماتها في صفحاته المشرقة.

(1) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب من خان غازيا في أهله، ح3192. قال الألباني: حديث صحيح.

وهنا أقول للمتنطعين الذين يحصرون الجهاد في معناه القتالي؛ إن السبب في انتشار الإسلام ليس السيف، وإنما انتشر بمعجزته الخالدة -القرآن-التي تخرق جدر الصدر بروحانيتها العالية، وانتشر بأخلاقه السامية، وبرحمته وعدله وفضيلته التي لا نظير لها في العالم من قبل ومن بعد. والدليل على هذا ما هو مقرر في كتب التاريخ في أن معظم البلاد التي دخلها نور الإسلام مثل إندونيسيا والصين خصوصا وجنوب شرقي آسيا عموما، إنما دخلها عن طريق الدعاة إلى الإسلام الذين ولجوا باب تلك الديار عن طريق التجارة فأثروا في الناس بأخلاقهم وحسن معاملتهم وبحالهم ومقالهم، أضف إلى ذلك دخول الإسلام إلى بلاد الأندلس وأوربا، والآلاف التي تدخل في دين الإسلام اليوم أفواجا من الأوربيين والأمريكان واليابانيين.

وحبيبنا المصطفى ﷺ بعث رحمة للعالمين كما قال فيه ربه تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]، فلم يرسل ربه قتالا ولا سفاكا للدماء، ولا ليجمع الغنائم، ويستولي على الأرض كما صوره المستشرقون والمغرضون والمغربون، إن رسالته رسالة حب ورحمة وعدل وإخراج الناس من ظلمات الشركيات، وكهوف الكفر والضلال، إلى نور الإيمان إلى رحمة الإسلام وعدله، وفي السيرة النبوية أمثلة كثيرة لرحمة النبي ﷺ وعفوه وصفحه، وأنه لم يبعث منتقما وإنما بعث ليدل الناس على الطريق المستقيم، ويأخذ بأيدهم إلى ربهم، وخير دليل على هذا تلك القصة التي وقعت للنبي ﷺ في إحدى غزواته، وأصاب سيدنا رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ في هذه الغزوة مطر، "فنزع رسول الله ﷺ، ثوبيه ونشرهما ليجفا وألقاهما على شجرة واضطجع، فجاء رجل من العدو يقال له دعثور بن الحارث ومعه سيف حتى قام على رأس رسول الله ﷺ، ثم قال: من يمنعك مني اليوم؟ قال رسول الله ﷺ: الله! ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقال له: من يمنعك مني؟ قال: لا أحد! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله! ثم أتى قومه فجعل يدعوهم إلى الإسلام" [2].

حتى الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى رغم ما اعتراها من تحريف بقي فيها ما يدل على نبوة النبي ﷺ ورسالته، وأنه رسول السلام، جاء في العهد القديم:" لأنه يولد لنا

(1) سورة الأنبياء: 107.
(2) طبقات ابن سعد، 2/ 35.

ولد ويعطى لنا ابن يحمل الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبا، مشيرا، قديرا، أبا أبديا رئيس السلام"[1].

خلاصة القول:

إن هذا العصر -عصر انتصار الجاهلية- حافل بأنواع العراقيل والعقبات الكئودة تقتضي أن نكون على مستوى إيماني عال، إن حدنا عن المنهاج النبوي قيد أنملة فإن مصيرنا الخسران والهلاك فلنرجع إليه نستلهم منه العبرة والقدوة والمثال في كل شيء، وننظر إلى الأمور بمنظاره لا بمنظار التقليد والجمود.

وعليه، فإننا من كل ما سبق نخلص إلى هذا التعريف للجهاد: "الجهاد هو بذل الجهد لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية ومطالبها التي تشمل كل مجالات الحياة"، وبمعنى آخر: "الجهاد هو استفراغ الجهود وبذل المساعي لتحقيق الغاية الاستخلافية لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى".

وكل الجهود التي يبذلها الفرد المسلم والجماعة المسلمة لخدمة المجتمع سواء من جانبه التربوي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي أو العلمي أو العمراني[2] جهادا

---

(1) سفر إشعياء، الإصحاح: 9، الفقرة: 6.

(2) أفضل استعمال كلمة "عمران" بدل كلمة "حضارة"، لأن كلمة "حضارة" تكسوها الأنفس المعجبة بزخرف الدنيا وغرورها حلة من الأبهة والهيبة. لنقف مليا عند معناها.
تعد كلمة "حضارة" الترجمة الشائعة للكلمة الإفرنجية -(الإسبانية مثلا) "Civilización"، والتي يعود أصلها إلى عدة جذور في اللغة اللاتينية؛ "Ciudad" بمعنى مدنية، و"Ciudadano" أي مدني، "Cívico" بمعنى وطني، و"Civilizar" بمعنى حضّر مدّن، أو "Civil" مدني ضد عسكري. كما أنها تقرن أحيانا بمصطلح "Cultivo" التي في معناها اللاتيني تفيد الزراعة والفلاحة. ولم يُتداول الاشتقاق "Civilización" حتى القرن الثامن عشر. وكان المصطلح قبل ذلك يستخدم في مدلولات معيّنة، ثمّ طرأت التعديلات والتبديلات على ذلك المصطلح، حتّى وصل إلى ما استقرّ عليه اليوم؛ الذي يعني في العربية: مدنيّة أو حضارة. ومصطلح "Civilización" ترجم في أغلب الأحيان إلى العربيّة بعبارة "حضارة"، فكتاب "ول ديورانت" الموسوم ب: "The story of civilization" ترجم إلى العربيّة تحت عنوان: "قصّة الحضارة". وقس على ذلك معظم ترجمات الكتب الموسومة بهذا الاسم وتُرَدِّد تلك العبارة.
وقد وقع تداخل كبير في الفكر الأوروبي في تناوله لمفهوم "Civilización"، فمنهم من جعل المفهوم مرادفًا لمفهوم الثقافة "Cultura"، ومنهم من جعله قاصرًا على نواحي التقدم المادي مثل أصحاب الفكر الألماني، ومنهم من جعله شاملاً لكل أبعاد التقدم مثل المفكرين الفرنسيين. =

=

ومع دخول الاستحمار الأوروبي إلى البلاد العربية في بدايات القرن العشرين، انتقل لفظ "Civilización" إلى القاموس العربي.

أما في الاصطلاح؛ فاخترت هذا التعريف الذي أخذته من هذا الموقع:

(http://fr.wikipedia.org/wiki/Civilisation).ونقلته من الفرنسية إلى العربية، الحضارة:"هي عملية التحضر، يعني الرقي بالمجتمع إلى مستوى معتبر، مثلا: مجتمع مزدهر ومتطور،... والحضارة ضد البربرية والوحشية".

أما عند "ديورانت" فيعرفها بأنها: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أَمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحَوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها. " (ول ديورنت، قصة الحضارة،1/ 4).

يقول "صامويل هانتغتون":"فما الّذي نعنيه عندما نتحدّث عن حضارةٍ ما؟ إنّ الحضارة هي كيان ثقافي. فالقرى والأقاليم والمجموعات الإثنيّة والقوميّات والمجموعاتٍ الدينيّة لها جميعها ثقافات متميِّزة... وهكذا فإنّ الحضارات هي أعلى تجمُّع ثقافيّ للناس وأوسع مستوى للهويّة الثقافيّة للشعب ولا يسبقها إلاّ ما يميِّز البشر عن الأنواع الأخرى. وهي تحدَّد في آنٍ معاً بالعناصر الموضوعيّة المشتركة، مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسَّسات، وبالتحديد الذاتيِّ الّذي يقوم به الشعب نفسه"(صدام الحضارات، ص18-19).

أضف إلى ذلك أن "هناك دلالات كثيرة على أن الحضارة قد تغدو عوضا علمانيا عن الدين، وتمجيدا للعقل" (الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، سلسلة عالم المعرفة 349، ص42).

ويعرف عبد الرحمن بن خلدون الحضارة بقوله: "الحضارة غاية للبداوة... وهي التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تُؤنّقُ من أصنافه وسائر فنونه، كالصنائع المهيئة للمطابخ والملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية، ولسائر أحوال المنزل... فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة، لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها: أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها؛ وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد، ويعجز الكسب عن الوفاء بها... ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف؛ فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ والمشارب وطيبها. ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح" (المقدمة، ص344-346).

ويقول مصطفى علم الدين في تعريفه للحضارة: "الحضارة هي: نمط عيش مجموعة بشريّة معيَّنة، في بيئة معيَّنة يتمثَّل في النظام الّذي تعتمده المجموعة وفي سلَّم القيم الاجتماعيّة الّتي تحدِّدها لنفسها" (المجتمع الإسلاميّ في مرحلة التكوين، ص6).

وعرفت الحضارة كذلك بكونها: "سمة لحياة الاستقرار في الحضر والأخذ بمعالمها والعيش في هنائها المادي".(الحضارة العربية الإسلامية، إبراهيم أحمد العدوي، ونايف عبد السهيل، ص8).

أما قصدي من العمران فيشمل مدلول مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون -رحمه الله-؛ الذي يضع كلمة "حضارة" في مقابلة "بداوة". ويستعمل كلمة "عمران" للتعبير عن النضج والازدهار الاقتصادي من زراعة وتجارة وبناء وإنتاج بصفة عامة. والمدلول العصري لكلمة "الحضارة" أي=

مشروعا؛ كصيانة دين المسلم، أو نفسه أو عرضه، أو ماله، أو عقله أو السعي لتوحيد الصف واسترجاع ما سلب واغتصب من هذه الأمة من حقوق مشروعة من شورى وعدل..، أو السعي لرفع الظلم عن الشعوب التي ترزح تحت استبداد الظلمة...كل هذا جهاد.

وليس بذل الجهد في القتال فقط وما ذاك إلا لحظة أو صورة من الجهاد الكلي ومجال من مجالاته ومشهد واحد من مشاهده ومرتبة من مراتبه، لكن الجهاد أعم وأشمل من أن يحصر في رفع السيوف فقط.

فالجهاد على هذا هو الطاقة التي تدفع الفرد والمجتمع إلى تحقيق العمران الأخوي[1]: وذلك بتوفير العمل والإنتاج وازدهار الاقتصاد، وتحقيق الأمن والتكافل الاجتماعي في

=التطور والتحضر والتقدم في مجالات الحياة، هذين المدلولين -الخلدوني والعصري- للحضارة مربوطان بتوجّه القاصدين المعمِّرين المتحضرين على منهاج السكة المستقبلية العابرة من الدنيا للآخرة باقتحام العقبة إلى الله، مربوطين بمعاني عمارة المساجد الوارد فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾(التوبة:18). مربوطان بالكلمة القرآنية التي بلغ بها نبي الله سيدنا صالح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- قومه بمراد الله الشرعي من المؤمنين إذ قال لهم: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾(هود:61). أي: "أمركم بعمارتها": (تفسير الكشاف:489).

(1) وكون العمران أخويا يعني أن له اتجاهًا ومعنى؛ عمران لأن الله تبارك وتعالى استخلفنا في الأرض وأمرنا بعمارتها، وأخوي أي محضن للأخوة الصادقة الواضحة المعالم كما بينها كتاب الله تعالى وسنة سيدنا رسول الله ﷺ. يقول ربنا تبارك وتعالى:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴿١٠﴾﴾(الحجرات:10)، وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عن سيدنا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين تعاطفهم، ح4685.

هذا لئلا ينسى المؤمن أنه أخ المؤمن في الدين، وأخ الإنسان في الإنسانية، يُسعده في الدنيا والآخرة أن يعيش الناس في طمأنينة وسلام وأمن واطمئنان، ويسلمهم من لسانه ويده، ويميط الأذى المادي والمعنوي من طريقهم.

إذًا هذا العمران الأخوي؛ اتجاهه صلاح الدنيا لصلاح الآخرة، وإعداد الزاد في الدنيا ليوم تشيب من هوله الولدان، حتى يكون المستقر السعيد والحياة الأبدية في الآخرة، والرحلة عمران مؤقت لدار يستكمل فيها المسافر معاني آدميته، وتستكمل فيها أمة الخيرية مَهَمَّتها الرسالية التبليغية. ولا يمكن أن تُسْمَعُ كلمة هذه الأمة الرسالية إن كانت متخلفة عن الركب متوعكة مريضة، وهزيلة ضعيفة، تتخبط في الحضيض..

أوقات السلم والحرب. حتى تتحقق الغاية الاستخلافية: تحقيق العدل في الأرض وحمل رسالة الإسلام إلى العالم.. هذه الغاية وهي وسيلة إلى غاية كبرى وعظمى هي الغاية الإحسانية: أي أن يعرف العبد ربه ويمتثل لأمره سائرا للقاء ربهﷻطامعا في رضاه.

من هنا فتعريف الجهاد بكونه يشمل كل مجالات الحياة؛ التربوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. يجعل ترجمة مصطلح الجهاد إلى اللغات الأخرى أمراً صعبا وضاراً، حيث تفرغه تلك الترجمة من مضمونه ومعناه السامي، وتشوه معناه كما حدث لترجمته إلى اللغة الانجليزية التي أطلقت عليه اسم الحرب المقدسة (Holy War) حيث عممت بابا واحدا من أبوابه الكثيرة أو نوعا واحدا من أنواعه المختلفة، وسدت باقي أبواب الجهاد وطمست بقية الأنواع.

إذًا فلا يقلل من مكانة الجهاد وشأنه إساءة بعض الناس توظيفه، أو ابتذاله للمصطلح باعتبار أن القيم لا ينقضها من أساء فهمها، ولا يهدم صرحها من أراد انتهاكها، وإلا لما بقيت قيمة على وجه الأرض.

والجهاد في سبيل الله من المصطلحات التي أراد أعداؤنا أن يشوهوها ويهدموا معناها، ويفرغوها من محتواها، ويبعدوها عن حياة المسلمين، ويستبدلوها بمفردات أخرى أكثر رقة، لا لشيء إلا لإبعاد المسلمين عن مصطلحاتهم وتشويه تاريخهم؛ كما فعلت أمريكا اليوم بالنسخة التي طلعت بها علينا وسمتها (بفرقان الحق)، حيث ضمنته مجموعة من سور القرآن وحذفت منها الآيات التي تتحدث عن الجهاد وعن لعن اليهود.

فيا ترى ما هي أبواب الجهاد أو أنواعه، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وحتى تُدرك حقيقة الجهاد في الإسلام، وأنه بحق ماض إلى يوم القيامة؟

المبحث الثاني

فقه الجهاد من منظور الجيل المعاصر

فقه الجهاد من منظور الجيل المعاصر

لقد اتضح لنا جليا من خلال المبحث السابق أن الجهاد لا ينحصر في نوع معين؛ ولكنه أنواع كثيرة سنذكر منها أحد عشر نوعا أو بابا في المبحث القادم: بدءا بجهاد النفس وانتهاء بالجهاد القتالي لحفظ مكتسبات الأمة وحماية أرضها ودعوتها من كيد الكائدين.

لكن هل استوعب الجيل المعاصر المفهوم الشامل للجهاد، وتعدد أنواعه وأبوابه؟ وهل كان فهمه للجهاد سليما؟ وهل ما نراه اليوم من تفجيرات وقتل الأبرياء في البر والبحر يسمى جهادا؟ وبكلمة جامعة هل كل ما نراه اليوم يسمى جهادا؟

هذا ما أتحدث عنه في هذا المبحث إن شاء الله.

تتعدد مفاهيم الجيل المعاصر للجهاد، لكننا نجمل أغلبيتها في ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول: المتشددون التكفيريون

هذا الاتجاه لا يعرف من الجهاد إلا نوعا واحدا السيف أو القتال وانتهى الكلام، فاختلط الجهاد بالعنف، والإرهاب[1] بالتقوى.

وفي هذا السياق أنقل قصة عجيبة لها صلة وثيقة بحديثنا عن هذا التيار، قصة وقعت للدكتور خالص جلبي مع شباب يحسب نفسه على حق وغيره على ضلال، يقول:"في عام

(1) أقصد هنا موقف الشرع من الإرهاب المتطرف؛ حتى لا نسير في ركاب الولايات المتحدة الأمريكية والغرب الصليبي –ومن تمسك بأذيالهم من الأقزام المضبوعين بالثقافة الغربية– الذين شنوا حملة شعواء وحربا ضروسا على الإسلام والمسلمين بدعوى الإرهاب، في الوقت الذي تغض فيه الطرف بل تغمض العينين كل من أمريكا والغرب عن الجرائم البشعة وعن أشد أنواع الإرهاب المتطرف الحاقد الذي يتزعمه الصهاينة في فلسطين السليبة؛ من قتل الأبرياء، وسفك الدماء من أطفال ونساء وشيوخ وشباب، وهدم المنازل على ساكنيها، والمرافق العمومية، والحصار، والتجويع، واغتصاب الأراضي، وتجريفها، وترويع الآمنين، وإمطار الفلسطينيين بوابل من القنابل والصواريخ المحرمة دوليا، والزج بالآلاف من الفلسطينيين في السجون... أليس هذا إرهابا خطيرا؟؟؟...!!!... لكن هدف أولئك ليس محاربة الإرهاب، بل القضاء على الإسلام، واستئصاله ﴿ ...وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ...﴿٢١٧﴾ ﴾ (البقرة:217).

1989م كنت في زيارة لمونتريال العاصمة التجارية لكندا ودخلت مسجد (فاطمة) وهناك عرفني نفر من الشباب بعد إطلاعهم على كتابي (الطب محراب للإيمان)، وكان أحدهم يشرح الآية: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [1]. ثم طلب مني الشباب يومها الحديث. عرفت هاجس المسلمين في موضوع الجهاد بشقه (المسلح) وبدأت أفكر في كيفية معالجة هذا الاختلاط وكيف يجب أن نفهم [عن] الله ولا نكذب عليه ونجعل أنفسنا سخرية في العالمين. ظن الشباب أنني سوف أتحدث لهم عن عجيب خلق الله في تشريح جسم الإنسان، ولكنهم فوجئوا حينما انصب تعليقي على الآية التي كان يشرحها (الواعظ). قلت لهم إنكم قوم خطرون على المجتمع الكندي. فأي خيل تريدون؟ وأي رباط تبغون؟ وأي اسطبلات لهذه الخيول تهيئون؟ إن كندا سمحت لكم بكل شيء فاجتمعتم في (بيوت) تذكرون فيها اسم الله بالغدو والآصال في مجتمع لا يدين بدينكم. ووفرت لكم أن (تعبروا) عن آرائكم من حيث حرمتم منها في مجتمعاتكم التي فررتم منها، و(تكتبون) كيف يحلو لكم دون خوف من رقيب عن اليمين والشمال قعيد، في الوقت الذي كانت جرأة من هذا القبيل في الوطن تكلفكم نومة أهل الكهف في أقبية مخابرات تذكر بالقبر يستجوب فيها محققون يذكرون بمنكر ونكير. وأباحت لكم الاندفاع في الشوارع في (مظاهرات) قد تكلفكم حياتكم في الوطن العربي الكبير برصاص أنظمة لا ترقب في المواطن إلًّا ولا ذمة. وتدخلون وتخرجون من البلد في الوقت الذي يناسبكم بدون تأشيرة دخول ورسم خروج. وأنتم تريدون القيام بعمل مسلح في هذا المجتمع المسالم وتسمونه دار الكفر؟ لماذا جئتم لهذه الأرض وأحضرتم عائلاتكم ودفعتم أولادكم إلى مدارسها يتعلمون اللغتين الفرنسية والإنكليزية؟ وتنتظرون بعيون اللهفة ذلك اليوم الذي تضعون في جيوبكم جواز السفر عله ينفع يوم الزلزلة. لماذا لم تذهبوا إلى دولة إسلامية مثل السودان مثلا فتسكنون في دار الإسلام وتنقلون أموالكم إليها فتنعشون اقتصادها وتشاركون بسواعدكم في رفع علمها؟ هز الشباب رؤوسهم أمام صدمة فكرية غير متوقعة، ولكن مشكلة (الدوغمائية) كما يعرفها البعض "أنها حالة ذلك الإنسان الذي يقع في تناقض بدون الشعور أنه متناقض". مثل القِصَر التي تشكل علة

(1) سورة الأنفال: من الآية 60.

وراثية غير قابلة للإصلاح وصاحبها آخر من يقتنع بهذه الحقيقة. قال: أحدهم: إنك لم تستشهد بالقرآن وكنت أثناء حديثي قد أمطرتهم بعشرات الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة. ويبدو أن قانون (الوعي الانتقائي) أن الإنسان لا يرى بعينه أو يسمع بأذنه بل يسمع ويرى بدماغه، قلت لهم إن حديثي كان ممزوجا إلى حد الإشباع "قرآنا وحديثا" قال الرجل المتحمس: لا.. لم يكن على منهج السلف الصالح. قلت له: ما أراه منكم ليس بسلف ولا صالح ولو بعث أحد من السلف الصالح لعاقبكم على أفكاركم الخطيرة. وتابعت قولي: أنتم أناس خطرون على المجتمع الكندي وتسيئون إلى الإسلام حسبما أرى. ولا أفسد في الأمر من قضية ناجحة يتولى الدفاع عنها محام فاشل. تقدم شاب صومالي يتسلل لواذا على خوف وحذر ثم همس في أذني على استحياء"لقد أعجبني ما ذكرت ولكني لا أستطيع أن أقول ذلك علنا وأنا أوافقك على ما ذهبت إليه" وهنا أدركت حقيقة ثانية وهي أن "الإرهاب الفكري" في بيئة تعاني من الاختناق لا يمكن أن تكون حية بحال، ذلك أن الاختناق يقتل الدماغ"[1].

وفي القصة عبر كثيرة ودروس عديدة؛ يتضح لنا بجلاء ذلك الفكر المتشدد الذي لا يعرف إلى السلاح-فيشوه بذلك صورة روح الإسلام وذروة سنامه-، ناسيا أو متناسيا، أن هناك بابا كبيرا من أبواب الجهاد هو القيام بالقسط والصدع بالحق في بلده، دون مقاومة مسلحة وسفك دماء وإزهاق أرواح. الذي يشينه الشرع.

ولهذا تحول العمل المسلح -كما نشاهد في العراق وأفغانستان وغيرهما...- إلى مرض أشبه بالسرطان، فبعد أن كان العمل يستهدف المستعمر-بل المستخرب-[2] أصبح يستهدف الأبرياء في الأسواق والمساجد والأماكن العمومية... وفي كل يوم تحصد الانفجارات العشرات من القرابين البشرية في العراق... هل هذا جهاد يقبله الإسلام؟ كلا وألف كلا؟ الإسلام دين السماحة والعدل والرحمة، لا يأمرنا بقتل الأبرياء -ولو كانوا كافرين- الذين لم يقاتلونا فبالأحرى إخواننا من أبناء أمتنا وجلدتنا! قال الحق جل ذكره:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي

(1) الدرس الأفغاني، ص7-8.

(2) طرد المستعمر-المستخرب والمستدمر- من أرض المسلمين بكل وسيلة من وسائل الدفاع عمل مشروع حتى يغادر أرض المسلمين.

سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[1]. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺأَنَّهُ قَالَ: [مَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلاَ يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَلَسْتُ مِنْهُ] [2].وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول ﷺ:" [إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن،حتى إذا رئيت بهجته عليه، وكان ردءا للإسلام، غيره إلى ما شاء الله فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك،] قال: قلت: يا نبي الله! أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: [بل الرامي]" [3].

لكن الأمة ما زالت لم تستوعب الجهاد النبوي وخاصة المكي منه؛ غَيَّر الحبيب المصطفى ﷺ مجتمعا بأكمله وبنى عمرانا أخويا إسلاميا بطريقة سلمية قدم فيها ثلاثة شهداء رجل وامرأة وابنهما؛ سمية وعمار وابنهما عبد الله ﷺ.

ثم هل قابل النبي ﷺ استهزاء أولئك به واتهامهم له بالسحر والجنون، وأنه جعل الآلهة إلها واحدا، حتى اتعدوا على قتله... هل قابل –صلوات ربي وسلامه عليه– ذلك بالعمل المسلح الدموي؟! كلا! بل استخلف الإمام علي ﷺ على فراشه لإرجاع الأمانات لأولئك الذين خططوا لقتله والتخلص منه!

ولم يفكر هو –صلوات رب وسلامه عليه– يوما في التخلص منهم واستئصالهم بالطوفان والجراد أو دفنهم في رمال الصحراء كما دفنت بنو إسرائيل، بل كان يراهن على أن يخرج الله من أصلاب أولئك المنكرين من ينصر الدين ويرفع راية الإسلام في العالمين.

وقد يقول منبهي إن ذلك في المرحلة المكية والمسلمون ضعفاء ولم تكن لهم شوكة قوية، تجعلهم يردون على أولئك الصناديد بالعمل المسلح. فأقول لمنبهي: إن حروب النبي ﷺ لم تكن عدوانية، بل كانت للدفاع عن دار أمة الاستجابة وعن دعوة الإسلام وإزالة كل عائق من طريقها وإفساح الطريق أمامها حتى يسمع الناس كلمة الحق.

---

(1) سورة البقرة: 190.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، ح4787.

(3) صحيح ابن حبان، كتاب العلم، باب الزجر عن كتبة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها، ح81.

ونقرأ في كتب المغازي والسير أن النبي ﷺ لما فتح مكة المشرفة لم ينتقم من أولئك المشركين الذين طالما عارضوه وناوؤا دعوته واستهزؤوا به ولم تحصد سيوف المسلمين رقابهم...

ففي صحيح الإمام البخاري -رحمه الله- لما دخل النبي ﷺ مكة فاتحا وكانت راية الأنصار بيد سيدنا سعد بن عبادة ﷺ ومر بأبي سفيان: "فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ. ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ، وَهْيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ، فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَرَايَةُ النبي ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟ قَالَ: [مَا قَالَ؟]. قَالَ: كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: [كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ]"[1]. وفي عيون الأثر لابن سيد الناس: [يا أبا سفيان اليومَ يومُ المرحمة، اليومَ أعزَّ الله فيه قريشًا][2].

ثم ألم يقل بعدما اطمأن الناس للفتح وطاف بالكعبة ثم قال: [يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟] قَالُوا: " خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ". قَالَ: [اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ] "[3]. هكذا استفادت قريش من عفو عام رغم ما اجترحوه من سيئات في حق المسلمين، ورغم الحرب التي شنوها على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم، وأخذوا أموالهم... مع كل ذلك شملتهم الرحمة المحمدية التي عمت الوجود، فتحولوا من أعداء مشركين إلى إخوة مسلمين ووقر الإيمان في قلوبهم، وفعلت فيهم تلك الرحمة النبوية ما لم تفعله السيوف. بل وشملت حتى وحشي قاتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ، فما فتح صلوات ربي وسلامه عليه باب إراقة الدماء، وكان ذلك من حقه؛ للاقتصاص من أولئك الذين أذوه وآذوا أصحابه وأذاقوهم الويلات، لكن ما بُعث صلوات ربي وسلامه عليه لإراقة الدماء، ولكن بعث رحمة للعالمين.

فهل اتضح لنا جليا أن منهاج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله وإلى دينه إنما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

(1) كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح؟ ح4280.
(2) 2/ 232.
(3) سيرة ابن هشام، 4/ 319. عيون الأثر 2/ 240.

ولهذا فإذا كنا نحسب أنفسنا على السنة وأننا أتباع هذا النبي الخاتم ﷺ، فلابد أن نتمسك بسنته في أخلاقه ومعاملته وجهاده وسلمه وحربه، ونتعلق بشخصه الكريم، حتى نتشرب من رحمته بالناس وبالعالمين. ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

أضف إلى ذلك أن الإرهاب المتطرف لا يؤدي إلى الأمن بل يزيد الجرح نزيفا، والواقع تأزما، وجسم الأمة شرخا، وفق سنة الله في الأمن:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]، تلك إذن، هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأمن، وليس بالتشدد وتكفير الناس. أو الاستخبارات، والتجسس على بيوت الناس ومكالماتهم، والزج بالأبرياء في السجون والزنازين.

ولا ننس دروس التاريخ المعاصر التي تذكرنا بكثير من الحركات الإسلامية التي بدأت بتغيير أنظمة الحكم قبل التربية الإيمانية فوقعت في خطأ قاتل كلفها النوم في أقبية السجون، وتشتيت صفها، والحيلولة بينها وبين أبنائها، فاستعجلت نهايتها، وحكمت على نفسها بالوأد.

وهنا يمكننا القول حتى لا نظلم أحدا، أن تراجع الحريات -بل تكاد تنعدم- في البلاد العربية، وارتفاع نسبة الفقر والأمية والجهل بالدين، وقمع الدعاة المعتدلين الصادعين بالحق الذين يبينون للناس حقيقة الشريعة وأحكامها؛ هو الذي أثمر مثل هذا الغرس المتشدد.

يقول وزير الأوقاف الأردني السابق الشيخ الدكتور عبد العزيز عزت الخياط يتحدث عن أسباب الإرهاب المحرم:"في نظري: أن من أهم الأسباب ثلاثة إذا أزلناها زال ما يسمونه إرهابا ممنوعا ونعتبره مشروعا[3]:

(1) سورة آل عمران: 31.
(2) سورة الأنعام: 82.
(3) يقصد الشيخ بالإرهاب المشروع نوعان: الأول: إعداد القوة بجميع أشكالها أمام قوى الشعوب والدول التي تملك القوة؛ لإرهابها ومنعها من الاعتداء على المسلمين.
والثاني: المقاومة: وهي مقاومة المعتدي على المال والأرض والأطفال والنساء والممتلكات، والمغتصب=

الأول: انتفاء العدل من الدول والمتنفذين بين الناس، مما يوجد الكراهية عند الناس، ومما يؤدي إلى وجود جماعات وأحزاب تدعوا إلى تحقيق العدل، وتلجأ عندما لا تتمكن من ذلك إلى استعمال العنف والشغب والاعتداء على الأملاك والناس. والعدل يشيع الطمأنينة وينشر الأمن والأمان ويوثق علاقات الأفراد ويجعلها قائمة على التوازن والإخاء، لما عدل عمر بن عبد العزيز كفت الخوارج عن الثورة المسلحة والاعتداء على الناس، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ...﴿٩٠﴾ ﴾[1].

الثاني: انتشار الظلم والبغي من الدول المتحكمة في الشعوب ونهبها لخيراتها والتسلط عليها أو اغتصابها لأراضيها؛ مما يؤدي إلى مقاومة الظلم، ووجود الإرهاب الدولي وظلم الناس، واستعمال القوة والإرهاب معهم وقتل الأبرياء منهم، وهذا ما نشاهده في فلسطين من ظلم اليهود وتشجيع أمريكا ودول الغرب، وفي بلاد [القوقاز] والشيشان من ظلم الروس، وفي العراق من ظلم الولايات المتحدة.

الثالث: غياب التمسك بالقيم الدينية والإسلامية، وعدم تطبيق الشريعة الإسلامية فيها، وإباحة المحرمات لشعوبها باسم الحرية الشخصية، وتشجيع المنكرات للأفراد وعدم تحقيق العدالة لهم، والله سبحانه أعلم"[2].

الاتجاه الثاني: المستسلمون للواقع

منذ ذلك الانكسار التاريخي الفضيع، وتحول نظام الأمة من خلافة راشدة على منهاج النبوة إلى ملك عضوض لما استولى بني أمية على الحكم؛ منذ ذلك المنعطف الخطير

=للأرض، كمقاومة الشيشان، ومقاومة أهل فلسطين لليهود المغتصبين،.
والإرهاب الممنوع والمحرم نوعان: الأول: إخافة الناس وإشاعة الذعر والرعب بينهم وقتل الأبرياء منهم، والاعتداء على أعراضهم وأطفالهم وهدم بيوتهم وتخريب مزارعهم، وضربهم بالقنابل والصواريخ، ومهاجمتهم بالطائرات والدبابات ومختلف الأسلحة الفتاكة، وتشريدهم....
والثاني: إرهاب التطرف؛ وهو وصاية الفكر والرأي المغالي وفرضه على الناس، وإفساد عقولهم وأخلاقهم، وقتل مخالفيهم أو إيذاؤهم، كما يحصل ممن يدعون الإسلام في الجزائر، وكما يحصل في غسل الأدمغة وتهجير العقول المبدعة... انظر: وسطية الإسلام، عبد العزيز عزت الخياط: 59-61 باختصار.

(1) سورة النحل: من الآية 90.

(2) وسطية الإسلام، ص 61-62.

في تاريخ المسلمين افترقت الدعوة والدولة والقرآن والسلطان فأصبح القرآن منزويا؛ وهرب الصالحون والمتقون لما كانوا يرونه من ظلم سواء عند بني مروان أم عند غيرهم من بعدهم... وتخصص بعض العلماء في الفقه لكي يحافظوا على مصالح المسلمين ويدافعوا عن شريعة الله ما أمكنهم، حتى استوى الأمر على هذه الصورة المنشطرة، أولئك بعض من رخص لهم الشارع في الانزواء في زمن الفتنة وقلة النصير حفاظا على بيضة الجماعة ووحدة الأمة. لكن المنهاج النبوي المحمدي غير ذلك.

وامتد ذلك الانزواء إلى بعض الاتجاهات المعاصرة التي يئست من مستقبل الأمة كما يئس أهل الكفر من أصحاب القبور: يستشهد هذا الاتجاه ببعض الآثار؛ الحديث الذي رواه سيدنا أنس عن النبي ﷺ: [اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلاَّ الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ][1]؛ فشعار هذا التيار "دع ما لا يعنيك"؛ أي دع الظالمين والمفسدين ينهبون خيرات الأمة، ويعيثون فيها فسادا.

فالواجب -حسب هذا الاتجاه- الاهتمام بأمور العقيدة والعبادة والعلم، وترك الشأن العام، فلا فائدة من إقامة مجتمع الإسلام ودولته من جديد، ما دام الإسلام في إدبار والكفر في إقبال، ولا فائدة من ولوج أبواب الجهاد كلها -المذكورة في فصل الجهاد- بل الاكتفاء بجهاد العلم والنفس والشيطان... وتقديم البيعة لسلاطين السوء... ما دام الشر هو السائد...

وهذا تصور مبتور، يفسد أكثر مما يصلح، ويهدم أكثر مما يبني، مغالطات كبيرة جاهلة بحقائق الإسلام... متناسين أن الإسلام عقيدة وشريعة، ظاهر وباطن، دعوة ودولة، مادة وروح، منهاج حياة...ومتناسين الغاية التي من أجلها خلق الله الناس وبعث لتحقيقها الرسل؛ قال الحق جل وعلا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[2]. الميزان مغالبة الكفر والظلم

(1) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، ح7068.
(2) سورة الحديد: 25.

والطغيان، لا يكون بالدعوات الصالحات، ولا يكون بالشكوى البائسة اليائسة المسكينة، بل يكون بالحديد، هذا البأس اليوم هو في يد الاستكبار العالمي، ترعاه الصهيونية العالمية، والقارونية الكافرة.. هؤلاء أتقنوا صناعة الحديد واستعملوا بأسه ضدنا؛ من يصنع السيارات والطائرات والسفن والأسلحة المتطورة الجوية والبرية والبحرية؟ الكل في يد الملأ المستكبر، أما أمة الإسلام فأصابها الخمول والكسل والدعس، تكتفي باستيراد ما يصنعه لها أعداؤها، دون أن تدرك قيمة الحديد...

ولذلك فإن تلك الآية الكريمة تضعنا أمام تلك الغاية السامية، هذه الغاية تشير إليها لام التعليل: {ليقوم}؛ فقيام الناس بالقسط هو الهدف الجماعي من الجهاد في سبيل الله، هذا الجهاد الذي حرض عليه رسل الله عليهم السلام وبعثوا به إلينا؛ فربوا ونظموا وجندوا وقاموا في وجه الكفر والطغيان، والظلم والفساد حتى انتصر أمر الله.

ذلك أن أسمى مطمح وأسمى مَهَمة للمؤمن في الحياة؛ أن يقوم بوظيفة الرسل برسالة التبليغ رسالة الإسلام والمجاهدة من أجل انتصار الإسلام ورفع رايته وإشاعة العدل في الأرض، ودحض الباطل ونقض صروحه.

فلو شاء الله لنصر دينه، لكن من سنن الله في الدعوات إلى الإسلام أن ينصر دينه رجال مؤمنون، ومن سنته أن يقوم الناس بالقسط، أن يكون البشر هم الذي يحملون الدعوة إلى الناس، أن ينهض المؤمنون لكي يبطلوا الباطل ويحقوا الحق، كما جرت سنة الله في أن يكون عقاب الكافرين بأيدينا، على عكس الأمم السابقة، التي عذبها الله؛ منها من أغرق ومنها من سلط عليها مطرا ومنها ما سلط عليها ريحا، ومنها من خسف به... أما في العهد المحمدي فإن تعذيب الكافرين يكون على أيدي المؤمنين وفق سنة الله في تدافع الحق والباطل.

ولذلك فإن محاولة إبطال ناموس الله الكوني هروب ونكوص عن الجهاد، لذلك ما قبل سيدنا رسول الله ﷺ شفاعة خباب ﷺ، وإنما أنكر شفاعته وعزاها إلى الخوف، نورد تلك القصة لنتدبر ما حوته من المعاني الكثيرة والفوائد العزيزة عَنْ خَبَّاب بْنِ الأَرَتِّ ﷺقَالَ: "شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ [:كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ

بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ]"[1]. ها هو سيدنا رسول ﷺ يورد على خباب من قبيل الاعتراض والإنكار لسان من كان قبلنا.

إن إنكاره ﷺ على خباب رضي الله عنه واحمرار وجهه الشريف لدليل على أن أي عذر في هذا الصدد لا يقبل، لكن هناك حالات يخفف فيها على المسلمين إن كانوا قلة في العدد والنصير، أما اليوم فعدد المسلمين يتجاوز المليار والنصف، فلا عذر لهم ولا رخصة أمامهم.

ولنا في صحابة سيدنا رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد أعطوا المثال في اقتحام العقبة إلى الله ﷻ، فنفعل ما فعلوا على كل المستويات، في العبادات والمعاملات وفي الفريضة الكبرى فريضة الجهاد.

كان هناك تكامل بين السلوك الفردي في اقتحام العقبة إلى الله ﷻ، وبين السلوك الجماعي في القيام لله بالقسط، ولم يكن هناك تنافر.

العقبة إلى الله لا تقتحم في زاوية الانعزال فتلك رخصة لأقوام مضوا، لكن من ينشد مستقبل الإسلام وبناء صرح العمران لابد أن يمر عبر المشاق المحسوسة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والتعليمية... والجهر بكلمة الحق، والصبر على أذى الطغاة المتجبرين الظالمين، هذا هو المنهاج النبوي الذي يقوم عليه صرح الإسلام من جديد.

هذا جانب، والجانب الآخر أن هناك من كبار العلماء من قال بأن الحديث الذي يتحدث عن فساد الزمان لا يقصد كل الأزمنة، وعلى رأسهم الشيخ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور [2]-رحمه الله- يقول:"والذي يظهر أن المراد بالزمان الأزمنة التي

(1) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ح3612.

(2) هو: محمد الطاهر بن عاشور (1296-1393 هـ = 1879-1973م): رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده ووفاته ودراسته بها. عين (عام 1932) شيخا للإسلام مالكيا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة: من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و(أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و(التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، صدر منه عشرة أجزاء، و(الوقف وآثاره في الإسلام) و(أصول الإنشاء والخطابة)=

يحضرها أصحاب رسول الله ﷺ لقوله -عليه الصلاة والسلام- في خطابهم: [حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ]؛ ذلك أن الصحابة كانوا في زمن النبي ﷺ وهو أسعد الأزمنة، ثم كانوا بعده في زمن الخليفتين أبي بكر وعمر ومدة من زمن عثمان، ثم أقبلت الفتن وذهبت تتزايد إلى أن انقرض الصحابة ﷺ"[1].

ويستشهد هذا الاتجاه كذلك بحديث سيدنا حذيفة بن اليمان ﷺ الذي يَقُولُ فيه: "كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: [نَعَمْ]. قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: [نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ]. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: [قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِ، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ]. قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: [نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا]. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: [هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا]. قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: [تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ]. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: [فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ] [2].

لكن معنى الحديث غير ما فهموه، يقول الشيخ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور -رحمه الله- في تعليقه على الحديث:"والظاهر أن المراد بالشر الأول هو ردة العرب، وبالدَّخَن في الخير الثاني ما حدث من الأحداث السيئة في الإسلام بعد قتل عمر، ومحاولة الخروج على عثمان، فإن الناقمين عليه كانوا يدَّعون الغيرة على الإسلام وينكرون على بعض الولاة في زمنه مناكر، بعضها جدير بالإنكار، إلا أن معظمها غلوٌّ وإفراط، فهم يهدون بغير هدي ويقولون معروفا منكرا.

والظاهر: أنه أراد بالشر الذي بعد ذلك فتنة الخروج على عثمان وما حدث بعده من الخروج على عليٍّ بعد أن بايعوه، وكلا الفريقين الخارجين على الخليفتين دعاة على أبواب

=و(موجز البلاغة) ومما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء... وكتب كثيرا في المجلات. الأعلام للزركلي، 6/ 174.

(1) النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، ص 267.

(2) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن لهم جماعة، ح 7084.

جهنم؛ لأنهم يَدْعُون المسلمين إلى القتال وشَقِّ العصا ومفارقة الجماعة، وهم كلهم من العرب؛ [هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا].

وكأن رسول الله ﷺ وقف عند هذا الحق؛ لأنه الذي يحصل في حياة حذيفة القاصد من سؤاله عن الشر اتقاء الوقوع فيه"[1].

ويستشهد هذا الاتجاه بحديث آخر الذي يبين معنى قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ وَجَدۡنَا ..١٠٥﴾[2]: فعَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ: "أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الآيَةِ قَالَ أَيَّةُ آيَةٍ قُلْتُ قَوْلُهُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: [بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ]. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ: [لاَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ] "[3].

لقد اتخذ هذا الاتجاه وبعض الأجيال من قبلنا هذا الحديث الشريف متكئا لكي يسلكوا مسلك الرخص لا مسلك العزائم.. لكن السؤال الذي يفرض نفسه-قبل الخوض في درجة الحديث-: هل هذا ترخيص من النبي ﷺ أم إخبار بالغيب مما سيؤول إليه الأمر؟ هذا رغم أن ما ذهب إليه هذا الاتجاه يتنافى مع الأمر المطلق في القرآن الكريم، فلا يمكن أن يعطل بفهم جزئي لهذا الحديث النبوي..

هذا علاوة على أن هذا الحديث حسن غريب كما جاء في سنن الإمام الترمذي، وضعيف كما جاء في السلسة الضعيفة[4] للشيخ الألباني، وهناك حديث آخر صحيح أورد

(1) النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، ص 267.
(2) سورة المائدة: 105.
(3) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، ح3058. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.. وقال الألباني: حديث ضعيف. السلسة الضعيفة ح1025.
(4) انظر: السلسة الضعيفة، ح1025.

معنى آخر للآية الكريمة الواردة في الحديث: فعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ وَجَدۡنَا..﴿١٠٥﴾ ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ]"[1].

أضف إلى ذلك أن الأخذ ببعض أحاديث الرخصة-وهي قليلة جدا- لترك فريضة الجهاد لا يتلاءم مع الأحاديث الأخرى-وهي كثيرة- التي جاء فيها استمرار الجهاد واتصال حلقاته إلى يوم القيامة.

وكأن كل أسفار السنة لم نجد فيها إلا أحاديث الرخص، فأين ذلك العدد الهائل من الأحاديث التي تبشر بمستقبل الإسلام، وبانتصار المسلمين على اليهود، وبفتح بلاد كثيرة.

لنقف مليا مع بعض تلك الأحاديث المبشرة بمستقبل الإسلام المشرق، وسيادة أهله:

عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ ﷺ قَالَ: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- فِي غَزْوَةٍ - قَالَ:- فَأَتَى النبي ﷺ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ، فَوَافَقُوهُ عِنْدَ أَكَمَةٍ[2]، فَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ قَالَ: فَقَالَتْ لِي نَفْسِي ائْتِهِمْ فَقُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ لاَ يَغْتَالُونَهُ، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَعَلَّهُ نَجِيٌّ مَعَهُمْ. فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، قَالَ: فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ أَعُدُّهُنَّ فِي يَدِي قَالَ: [تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللَّهُ]. قَالَ فَقَالَ نَافِعٌ يَا جَابِرُ لاَ نَرَى الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ" [3].وفي الحديث الشريف بشارة عظمى لهذه الأمة المسلمة بفتوحات إسلامية مستقبلية.

---

(1) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، ح3057. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ نَحْوَ هَذَا الْحَدِيثِ مَرْفُوعًا وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ إِسْمَاعِيلَ عَنْ قَيْسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ قَوْلَهُ وَلَمْ يَرْفَعُوهُ.

(2) أَكَمَة: موضع يقال له أَكَمَةُ المَشرق بعد الحَاجر بميلين كان عندها البريد السادس والثلاثون لحاج بغداد. معجم البلدان، حرف الهَمزة والألف، باب الهمزة والكاف وما يليهما.

(3) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما يكون من فتوحات المسلمين، ح2900.

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [لاَ يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ] (1).وفي رواية: [لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ] (2).

وعن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ قال النبي [:ﷺلا تبكوا فإن مثل أمتي مثل حديقة؛ قام عليها صاحبها، فاحتدر زواكيها(3)، وهيأ مساكنها، وحلق سعفها(4)، فأطعمت عاما فوجا، فلعل آخرها عاما يكون أجودها قنوانا، وأطولها شمراخا(5)، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم في أمتي خلفا من حواريه] (6).فالخير باقٍ في هذه الأمة، كما كان من أولها، ولذلك نجد في التاريخ الإسلامي صفحات مشرقة تدل على أن الخير لا ينقطع من هذه الأمة، كعهد عمر بن عبد العزيز، وصلاح الدين الأيوبي، ويوسف بن تاشفين، ومحمد الفاتح، وطارق بن زياد وغيرهم رحمهم الله.

عن عروة بن رويم، أن رسول الله ﷺ، قال: [خيار أمتي أولها وآخرها، وبين ذلك ثبج[وسط] أعوج، وليس مني، ولست منه] (7). وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: ﷺ [مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لاَ يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ] (8). فالنبيﷺ أراد تقريب آخر الأمة إلى أولها في الفضل، وإلحاق القرون المتأخرة التي يظهر فيها الخير بالقرون الخيرية الأولى، وفي

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قول لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، ح1925.
(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قول لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، ح 1037.
(3) أي شذب وقطع أطراف أشجارها لتنمو.
(4) سعفها: السعف؛ أغصان النخل ما دامت بالخوص فإن زال الخوص عنها قيل جريد الواحدة (سَعَفَةٌ) مثل قصب وقصبة و(أَسْعَفْتُهُ) بحاجته (إِسْعَافًا) قضيتها له و(أَسْعَفْتُهُ) أعنته على أمره. المصباح المنير، كتاب السين، مادة: سعف، ص145.
(5) والشِّمْرَاخُ: ما يكون فيه الرطب و(الشُّمْرُوخُ) وزان عصفور لغةٌ فيه والجمع فيهما (شَمَارِيخٌ) ومثله عثكال وعثكول وعنقاد وعنقود. المصباح المنير، كتاب الشين، مادة: شمر، ص168.
(6) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للمتقي الهندي، ح34571، 12/ 332. ورواه القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة.
(7) أخرجه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، في غريب الحديث.
(8) مسند ابن حنبل، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، قال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على الحديث: حديث قوي بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن. 3/ 143. سنن الترمذي، كتاب الأمثال، باب مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره، ح2869.

هذا السياق يمكن لنا أن نفهم حديث عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ-رضى الله عنهما- عن النبي ﷺ: [خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ][1]. ويلحق القرن الذي تشرق فيه شمس الإسلام من جديد وترفع منارته في الأرض، بالقرون الخيرية الثلاثة الأولى. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾[2].

وعن أَبِي عِنَبَةَ الْخَوْلاَنِيّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [لاَ يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ][3].

والأحاديث التي تتحدث عن بشائر المستقبل كثيرة.

فمن شدة الحُلْكَة والدُّلْجَة يخرج النور، والرسل يبعثون بعد جاهلية جهلاء وبعد عن الدين، وكذلك المجددون، ليعيدوا القطار إلى سكته، والأمانات إلى أهلها، والروح إلى الحياة، لتعيد الأمة وصلتها بالسيرة العطرة، وتتعلق بمنقذها ومخرجها من الظلمات إلى النور ومن الجهالة والضلالة إلى النور والمعرفة.

وهل اتضح لهذا الاتجاه أن مستقبل الإسلام لا يأت بالانعزال في فلاة، أو بالتبتل الفردي، وترك الأمة ينهش في جسمها الأعداء بالمخلب والناب.

بل يتحقق بولوج أبواب الجهاد كلها: بدءا من جهاد النفس ثم المال ومرورا بجهاد التعليم ثم الجهاد البنائي فالجهاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالجهاد السياسي فجهاد الفقر والكفر ثم الاقتصادي انتهاء بجهاد توحيد الأمة، أما الجهاد القتالي فهو حالة استثنائية يلجأ إليه إذا وقف في طريق الدعوة عائق أو اعتدى على أرض المسلمين معتد، فحينئذ يكون السيف آخر وسيلة لصد المعتدي.

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم كان صريحا إلى التنبيه على أمانة عظيمة معلقة بعنق الأمة، وخاطبهم بصيغة الجماعة؛ لينبههم إلى ثقل الأمانة، وأنها تحتاج إلى تضافر

(1) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، ح2651. قَالَ عِمْرَانُ " لاَ أَدْرِى أَذَكَرَ النبي ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً".

(2) سورة الشورى: 28.

(3) سنن ابن ماجه، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ، ح8، قال الألباني: حديث حسن.

الجهود، وتوحيد الكلمة، ورص الصفوف، للقيام بها على وجهها المطلوب؛ قال الحق جل ذكره: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ... ﴿١٣٥﴾ ﴾[1]، وقال عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ... ﴿٨﴾ ﴾[2]؛ يقول الشهيد سيد قطب -رحمه الله-: "إنها أمانة القيام بالقسط.. بالقسط على إطلاقه. في كل حال وفي كل مجال. القسط الذي يمنع البغي والظلم- في الأرض- والذي يكفل العدل- بين الناس- والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين.." [3].

أمر للمؤمنين ليكونوا قَوَّامين بصيغة مبالغة؛ أي المبالغة في القيام، لعظم المسؤولية، التي تستوجب الإتيان بها على أحسن الوجوه، وأتم الأحوال.

أليس هذا دليلا كذلك على القيام لله]، لإقامة الحق، وبناء الأمة ووحدتها.

لكن هذا الاتجاه ما أدرك لسنة الله معنى، ولا فقه لها درسا! فما نالت الأمة المسلمة خيريتها، بالعزوف عن الجهاد وعدم الاهتمام بالمصير الفردي والجماعي، ولكن نالته باستيعابها لشمولية سنن الله في الجهاد. وبعدم تفريقها بين أبواب الجهاد.

أضف إلى ذلك أن سنة الله تقضي بأن كل من سعى في هذه الحياة وبذل جهده لنيل مبتغاه في الدنيا والآخرة، فإن الله يحقق له مبتغاه وأمنيته، وهذا صريح في قوله جل ذكره: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾[4].

وتقضي كذلك سنة الله بأن كل -فردا كان أم أمة- من أصغى إلى بيان الله، واصطبغ بصبغة العبودية، ولزم غرز النبي ﷺ، وبذل مساعيه في محبته وطاعته؛ فإن الله تعالى وتقدس سيوصله إلى غايته، وينيله مطلبه، ويوصله إلى أعلى درجات القرب والسعادة في الدنيا والآخرة، لقوله عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[5]؛ ألم يكن العرب في الجزيرة

(1) سورة النساء: من الآية 135.
(2) سورة المائدة: من الآية 8.
(3) في ظلال القرآن، 2/ 775.
(4) سورة الإسراء: 20.
(5) سورة النحل: 97.

العربية مشتتين ممزقين يعيشون على حاشية التاريخ؛ فانقادوا لأوامر الله ولزموا غرز رسول الله ﷺ، وتعلقوا بشخصه الكريم.. فنالوا أعلى الدرجات في الدنيا في تشييد صرح العمران الأخوي والسمو العلمي والمكانة الباسقة بين الأمم، وفي الآخرة النعيم الذي لا يزول والنظر إلى وجه الله تعالى ورفقة الحبيب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه.

الاتجاه الثالث: جيل الانبعاث الإسلامي الجديد

كان سند هذا الاتجاه الأحاديث النبوية المبشرة بمستقبل الإسلام، وقد ذكرنا بعضها في الرد على أصحاب الاتجاه الثاني، وبعضها في المبحث الأخير من هذا الكتاب.

هذا الجيل هو الذي يمكن أن نطلق عليه بالجيل المحمدي المتمسك بمنهاج خاتم النبيين أو بجيل التغيير، الذي يرنو إلى التجديد وإحياء موات القلوب بالحب والإخلاص والصدق والصفاء، والتعاون والتآزر؛ بالنفور الكلي من الفتنة كما نفر الصحابة ﷺ من الجاهلية، وبمحبة سيدنا رسول الله ﷺ كما أحبوه، وكراهية الكفر والعودة فيه كما كرهوه وقطعوا الصلة مع جاهليتهم، وبالتربية الإيمانية والصحبة في الله كما تربى الصحابة ﷺ في حضن النبوة.وبالاهتداء بسنن الله في جهاد سيدنا رسول الله ﷺ، والسير على هديها، والاستضاءة بنورها.

هذا الجيل لم يحصر الجهاد في زاوية ضيقة كما فعل أصحاب الاتجاه الأول، ولم يستسلم للواقع المرير كما فعل أصحاب الاتجاه الثاني؛ بل وضع الجهاد في سياقه العام، فلم يضيق واسعا، ولم يفرط كثيرا، ولكنه كان وسطا، وأدرك أن وعود القرآن الكريم غير مرتبطة بزمان ولا مكان، ولا بأشخاص ولا بمذاهب، ولكنها مرتبطة بشروطها فكلما تحققت الشروط تحقق المشروط، وكلما كانت هناك مقدمات كانت هناك نتائج، في كل عصر ومصر، فالقرآن الكريم كتاب رب العالمين؛ فإذا قلنا بأن زماننا زمن الشر وما بعده إلا شر كما أساء أصحاب الاتجاه الثاني فهم الأحاديث النبوية الشريفة -السابقة- التي تحدثت عن فترة من الزمن، فقد قلنا من حيث لا نشعر أن القرآن غير صالح لزماننا... ومعاذ الله! والله تبارك وتعالى يقول: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ..﴿١١﴾﴾[1]، فهذا القانون وهذه السنة غير مرتبطة بزمان ولا مكان فهي مطردة وثابتة إلى أن تقوم الساعة.

(1) سورة الرعد: من الآية 11.

ويقول في سنة الاستخلاف الماضية إلى يوم القيامة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1]، هل مضى زمن هذا الوعد! كلا! فهو متحقق كلما تحققت الشروط المذكورة في سياق الوعد الإلهي.

فما على أنصار هذا الاتجاه إلى أن يمضوا قُدُمًا في تحقيق أهداف الإسلام وغاياته من وجود الإنسان على وجه هذه البسيطة.

ولا يجرمنكم ما يروج له المرجفون في البلاد ممن سقمت أفهامهم وضل أمثالهم وتنكبوا الصراط السوي، أن لا طاقة لنا اليوم بتغيير هذا الواقع المر؛ فقد كثر الشر، واستشرى في البلاد، وأخذ بأعناق العباد، ناسين أن النصر من عند الله، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم... وأن هذا الواقع هو من نتاج ذلك التقاعد والتقاعس عن فريضة الجهاد بمعناه الشامل وبجميع أبوابه.

لقد "سار المسلمون على قانون السماء حقبة من الزمن فدانت لهم الدنيا، وقبضوا على ناصية الخير!! ثم تركوا سبيل ربهم واتبعوا السبل وأهملوا دينهم الذي ارتضاه لهم فآل أمرهم إلى ما نرى من فساد شامل، واضطراب في كل ناحية من نواحي الكتلة الإسلامية..."[2].

ولتعود لنا تلك العزة والكرامة، ونكون أهلا لنصر الله تعالى لابد من التمسك بالمنهاج النبوي في التغيير، وولوج أبواب الجهاد كلها.

وبإجمال: فلا ذنب للإسلام إذا أساء بعض أتباعه فهمهم للجهاد، ولا نحكم عليه بتصرفات أتباعه، وإلا قلنا من حيث لا نشعر بهدم جميع الشرائع والنحل.

---

(1) سورة النور: 55.

(2) "طريق النصر"، مقال لصلاح أبو إسماعيل، المنشور بمجلة كنوز الفرقان، العددان الخامس والسادس، السنة الرابعة، جماد أول وجماد آخر 1371هـ-فبراير ومارس 1952م. [160-163]، ص160.

إذ الجهاد ليس هو الحرب، فالحرب-الجهاد القتالي- باب من أبوابه الكثيرة، ثم إن الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يروج لهذا الكثير من المحسوبين على الإسلام، فالإسلام دين الرحمة والمحبة وما السيف إلا وسيلة لصد المعتدي، ونصر الحق والعدل، وتأمين حرية الدعوة، وفتح المجال للضعفاء لاعتناق الدين الذي يريدونه، وسيد الوجود وإِسوتنا وقِدْوَتنا محمد بن عبد الله ﷺ مكث بمكة عقدا ونيف، يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، فكان لذلك الخلق العظيم الأثر في إسلام خيار المسلمين وأشرافهم الذين تحملوا من الابتلاء والأذى في الله ما لم تستطع حمله الجبال الشوامخ، بل زادتهم الابتلاءات والمحن والأذى صلابة وقوة وثباتا على دينهم، فما نكصوا على أعقابهم، وما ارتدوا سخطا على دينهم، بل وجدوا في ذلك الابتلاء حلاوة المحبة، وصمودا على المبادئ، فكانوا بذلك دعائم قام عليها صرح الإسلام بعد النبوة، وقادة لفتوحات إسلامية شملت البلاد والعباد. إذن، أيصح لنا أن نقول: أن النبي ﷺ قهر الناس بالسيف وأرغمهم على الدخول في الإسلام طوعا وكرها؟ وما تقدم ذكره من رحمته في دعوته وصبره على الابتلاء والأذى جواب على هذا السؤال.

وهنا حقيقة أخرى لابد من التذكير بها؛ هي أن غزوات النبي ﷺ قد بلغت سبعا وعشرين غزوة، وسراياه أربت على الأربعين، وعدد القتلى من المسلمين في تلك السرايا والبعوث كلها 139 شهيدا، ومن والكفار والمشركين[1] 112 قتيلا، ومجموع الطرفين 251، وهو عدد ضحايا حوادث السيارات في مدينة كالدار البيضاء أو غيرها، وبذلك تكون نسبة القتلى في تلك المعارك التي قاربت الثمانين نحو أربعة أشخاص في كل معركة.

(1) هذا، إذا استثنينا يهود بني قريظة (الذين كانوا بين الستمائة والثمانمائة)، لأن ذلك لم يكن قتالا، بل كان حكم الإعدام عليهم بما اقتضاه دستور المدينة -الذي وافقوا على بنوده- في الخيانات والمكائد. وحكم سنة الله في الجزاء من جنس العمل.

المبحث الثالث

سبل الهدى والرشاد في أبواب الجهاد

سبل الهدى والرشاد في أبواب الجهاد

إن مما أوردناه من آيات وأحاديث وتعريفات العلماء للجهاد؛ يوضح مدى شمولية معنى الجهاد، وتوسع دائرته، وكونها ليست محصورة في الجهاد القتالي فقط، بل هي مرتبطة بميادين الحياة كلها.

على عكس ما يتصوره بعض المهزومين روحيا وعقليا الذين يحاولون حصره -كما رأينا في المبحث السابق- فيما يسمونه "بالحرب المقدسة".. "والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا بواعثها، ولا تكييفها كذلك.. إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات"[1].

وعلى ذلك فإننا عندما نتحدث عن الجهاد في سبيل الله لا نعني به حمل السيف والخروج لمنازلة العدو ومقارعة الخصوم بإهراق الدماء وإزهاق الأرواح وبتر الأطراف...، كما صور الجهاد المستشرقون بالأمس، وكما صوره مجدوعو الفطرة-من أبناء جلدتنا المطحونين برحى الاستدمار في جامعات الغرب والشرق- اليوم.

حصر الجهاد في جهاد السيف فهم تسطيحي ضيق للجهاد وقصور في فهم نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية التي تحدثت عن الجهاد بشموليته.

لا جرم إذن، أن نجد للجهاد مظاهر عديدة، وأبواب كثيرة، منها ما هو ثابت ومنها ما يتغير بتغير الأحوال، وما القتال إلا وجه من تلك الأوجه المختلفة، والمظاهر المتعددة، والأبواب الكثيرة.

إننا عندما نقرأ السيرة العطرة-نموذج الجهاد ووصفه ومدرسته- ونطَّلع على الأحداث التي خاضها سيدنا رسول الله ﷺ من البعثة إلى الوفاة، نجد من خلال ذلك

(1) معالم في الطريق، سيد قطب، ص66.

سلسلة لا تنقطع من الجهاد الشامل؛ فجهاد أكبر في تزكية النفوس وتقويمها وإصلاحها، وجهاد أصغر في مواجهة التحديات والأعداء.

فما هي أبواب الجهاد إذن؟ هل له باب واحد، أم أبواب متعددة؟ وهذا ما أتحدث عنه في هذا المبحث الذي أسميته ب"أبواب الجهاد".

الباب الأول: جهاد النفس

أول أبواب الجهاد، جهاد النفس، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[1]، أي جاهد نفسه "في منعها ما تأمر به وحملها على ما تأباه"[2]. وجهاد النفس جهاد أكبر[3]، وهو الاستمرار في ترويضها على نبذ التعلق بمغريات الدنيا وشهواتها، وجهاد أصغر وهو قتال العدو في ساحة الوغى، أما الجهاد الكلي فيتمثل في

(1) سورة العنكبوت:6.

(2) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ص813.

(3) عن جابر رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة، فقال ﷺ: "قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا: وما الجهاد الأكبر ؟ قال: مجاهدة العبد هواه". هذا الحديث رواه الإمام البيهقي في الزهد الكبير -فصل في ترك الدنيا ومخالفة النفس والهوى- بسند ضعيف. والحديث المذكور لا يثبت عند أهل الحديث، ولا يصح معناه، إن قصدَ المستشهد به أن مجاهدة النفس تقوم مقام الجهاد الشامل، أو إن انتقى من أنواع الجهاد جهاد النفس أعرض عن باقي الأنواع؛ ذلك أن المجاهد لنفسه، المحاسبَ لها على ما فرطت في جنب الله، الحامل لها على أنواع الطاعات والعبادات والقربات والإكثار من النوافل وعلى على المكاره والزهد والورع ولا يعدو في أحسن الحالات إن أخلص النية أن ينتفع بالثواب في خاصة آخرته لنفسه. لكن من لأمته وأبنائها؟ ولهذا إذا صاحب تلك المجاهدة إرادة وتربية وصدق الوجهة إلى الباري جل وعلا مع السابقة فيدرك المجتهد المجاهد لنفسه ما شاء الله من مراتب القرب والصلاح والولاية والصديقية، ويخرج من الحياة الدنيا، إن ختم الله له بالحسنى، وهو صالح في نفسه.
ومن الأهمية بما كان أن القول بأن جهاد النفس حاصل أيضا في أنواع الجهاد الأخرى كالجهاد القتالي -مثلا- وبطريقة أكثر صرامة وضبطا، ذلك أن المجاهد لعدوه الخارجي يرغم نفسه على ترك المال والأهل والوطن جملة. تبلغ به أن يقارع الأعداء في ساحة الوغى ويواجه الأسنة والسيوف، وفي زماننا المدافع والدبابات والمصفحات...، بنية من يبذل جسمه وقوته وحياته ليذود عن حمى الأمة وحصونها، وهي حمى الله، وفداء لتحيى أمة سيدنا رسول الله ﷺ وترفع راية الإسلام، وثمنا مقدما في صفقة ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿١١١﴾ ﴾(التوبة: من الآية111)،﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ فَإِنَّمَا .. ﴿١٠﴾ ﴾(الفتح: من الآية10)، ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم .. ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأحزاب: من الآية23)، وهي مبايعة مستمرة وقابلة للتجديد والتكرار إلى يوم القيامة، كما هي تلك التجارة الرابحة -التي لن تبور، والصفقة الإلهية مفتوحة ما دامت السماوات والأرض.

إمساك الربانيين المجاهدين الصادقين الكفء على أزِّمة الحُكم والتربية والاقتصاد وسائر المرافق الهامة. السعي لهذا الإمساك جهاد، والصبر على عقبات الطريق ومشاكل الفتنة والذهنيات التي تربت على الخنوع والخضوع حتى تستقيم قناتها وتعود إلى رشدها جهاد أعظم الجهاد.

قال عز من قائل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ...﴾[1]: "فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأماني، ويمني الغرور، ويعد بالفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها"[2].

وقال عز سلطانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾[3]، قال الإمام الجنيد[4] رحمه الله:"والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص. ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن نصر عليها نصر على عدوه. ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه"[5].

عن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ ﷺ قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ][6].

---

(1) سورة الحج: من الآية78.
(2) زاد المعاد، 2/ 56.
(3) سورة العنكبوت:69.
(4) هو: الجنيد بن محمد، الخزاز القواريري أبو القاسم، شيخ وقته ونسيج وحده. أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه ببغداد. صحب جماعة من المشايخ، واشتهر بصحبة السَّريّ، والحارث المحاسبي. ودرس الفقه على أبي ثور أحد أصحاب الشافعي، وكان يفتي في حلقته -بحضرته- وهو ابن عشرين سنة، توفي سنة 297هـ، وقيل: في آخر ساعة من نهار الجمعة ببغداد سنة 298هـ في شوال، ودفن يوم السبت بالشونيزية عند خاله السري السقطي رضي الله عنهما يوم السبت.طبقات الأولياء، لابن الملقن، ص126، ترجمة رقم: 31. طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد الدمشقي، ص298. وفيات الأعيان، ترجمة رقم: 144، 1/ 373.
(5) الفوائد، ابن قيم الجوزية، ص73.
(6) سنن الترمذي،كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطا، ح1621 .قَالَ أَبُو عِيسَى: وَحَدِيثُ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

ولذلك فإن من لم يجاهد نفسه لتفعل ما أمرها الشرع به، وتترك ما نهاها عنه، ويجاهدها في الله، ويلجمها بلجام التوبة والاستغفار والفرار إلى الواحد القهار، لم يمكنه جهاد ومدافعة عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصار عليه، وعدوه بين جنبيه-يسري فيه مجرى الدم- قاهر له، متسلط عليه لم يجاهده، يقوده حيث شاء، ويأمره بما شاء، ولم يجاهده في الله،ولم يمنعه من حظوظه الزائلة، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه، حتى يجاهد نفسه على الخروج.

إن قمع النفس، وتقويمها، وتربيتها على الصبر والذكر وتلاوة القرآن، والعبادة، وغير ذلك، هو الجهاد الأكبر، يتلوه جهاد في الله بأعلى ما يكون من الحوافز.

دام جهاد النفس وتربيتها، ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة.

وصحب جهاد النفس جهاد مقارعة الأعداء في ساحة الوغى طيلة العشر السنوات الباقيات. فقد كانت غزوات سيدنا رسول الله ﷺ وبعوثه وسراياه، بمعدل واحدة كل شهرين ونيف. لا يرجعون من غزوة وسرية وبعث إلا ليستعدوا لمثلها ويتزودوا لها بقوة الإيمان والمحبة والاتباع.

إن المقصود بجهاد النفس في ذات الله يعني؛ حملها على الإقبال على الله ﷻ وهجرها ما طُبعت عليه من الغفلة والبعد عن جادة الصواب. فجهاد النفس هو جهاد الهوى، وجهاد ما في بواطننا من خبائث وأدران، وتطهيرها لكي تسلم من الآفات والشبهات والشهوات، حتى تكون أهلا للفيض الإلهي، والمدد الرباني.

فما علاقة جهاد النفس بأبواب الجهاد الأخرى، التي مقصدها تغيير الأمة وإرجاعها إلى عزتها وكرامتها، وازدهارها وعمرانها الأخوي؟ علاقتهما أن مصير الأمة المسلمة لن يكون على المهيع الصحيح إلا إذا كان كل فرد مؤمن وكل مجاهد يسير على أمر الله، فيحب للقاء اللهﷻ ويسعى إليه، ويسير على المنهاج المحمدي النبوي في كل صغيرة وكبيرة؛ طاعة وإخلاصا وحبا.

ولا يقوم بهذا الجهاد إلا القلوب السلمية التي تقف بباب الله ﷻ وليس لها من هم إلا الله ﷻ، هذه القلوب وحدها التي يمكن أن تقوم بمقومات الجهاد وواجباته ومقتضياته.

أما إذا كانت القلوب المتوعكة المريضة هي التي تتحدث باسم الإسلام، فإن العمل لن يكون جهادا في سبيل الله، وإن نتائج ذلك لن تكون إسلامية مرضية، بل تكون نفاقا على صورة القلوب المريضة التي تقود الاضطراب تحت لواء الإسلام وباسمه.

ولذلك فإن التربية الإسلامية للنفس البشرية، هي قوام الجهاد وعموده الفقري، وأساسه؛ جهاد لتستقيم النفس على المحجة البيضاء، جهاد لتعبد الله تعالى كما أمر، جهاد لتتخلق بأخلاق النبي المصطفى ﷺ، وتنجمع على الله بالصحبة في الله، وتجتمع على الله بالحب في الله، وتذكر الله، وتصدق مع الله، وتبذل وتنفق في سبيل الله، وتتعلم وتعمل، وتقيم الوجه لله تعالى وتجدد القصد إليه، وتجاهد في سبيل الله.

من هنا فالواجهة الأولى "في الجهاد هي واجهة التربية. نعني تربية الإيمان بمفهومه اقتحاما للعقبة وبكل شعبه. التربية أولا ووسطا وآخرا، ولا آخر، ودائما.

لا نفرغ من تقويم أنفسنا. ومتى ظننا أننا أتممنا تهذيبها فذلك نزغ الغرور، وغرة بالله، وطيش في ميزان الرجولة"[1].

كيف وربنا تبارك وتعالى يأمر حبيبه وصفوة خلقه المصطفى الكامل بالتزام الاستقامة إذ يقول: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾[2].

ولا يفوتنا القول أن التربية الإيمانية المقصودة ليست ما يصطلح عليه اليوم؛ بالتدريب الفكري أو الحركي أو التعليم السطحي أو التنشيط الجماعي..-وإن كان لابد من هذه الجزئيات-.

التربية هي أن يعرف العبد الغاية التي خلقه الله لها؛ وهي معرفة الله ﷻ، وأن يقتحم العقبة إلى الله، ويتقرب إليه بالمحبة والفرائض والنوافل ويشتاق إلى لقائه، حتى يحبه سبحانه وتعالى، ويكرمه بما يكرم به أولياءه وخاصته.

(1) المنهاج النبوي، عبد السلام ياسين، ص 383.
(2) سورة هود: 121.

وكل القربات التي يفعلها العبد؛ سواء كانت فعلا أم قولا، أم حالا، أم خَصلة حميدة وخلقا حسنا، هي في جوف هذه الغاية، وفي طريقها، ومن شروطها.بضابط القرآن الكريم والسنة النبوية والاتباع.

وكل ما يسميه لسان الاصطلاح اليوم تربية دون أن يحقق تلك الغاية المذكورة فليست هي التربية المقصودة في حديثنا هنا.

ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن كل خلل في أبواب الجهاد الأخرى-التي سيتم حديثنا عنها بعد النوع الأول- هو الخلل في التربية المظهر الأول للجهاد.

وعلى ذلك، "فمتى وقف بنا الحال فيما نتحرك ونروم، فلنعلم أن حالنا مع الله في تدن وفتور. ومتى عم فينا الفشل فلنعلم أننا اتكلنا على حيلتنا فوكلنا الله إلى أنفسنا. ومتى ظهر فينا التنافس على الرئاسات والمناصب، متى أصبحنا أعزة على بعضنا أذلة على خصومنا وأعدائنا قلبنا الآية، فلنعلم أن الله لا يحبنا.

وفي كل ذلك نجدد التوبة، ونصحح النيات، ونذكر الله كيلا ينسينا أنفسنا. فإننا إن نسيناها ولم نتعهدها بالتزكية، وننورها بالعبادات، ونروضها بالعمل الصالح، هلكنا أفرادا وتنظيما وأمة. ورجعنا إلى حالة الغثائية ومرض الوهن"[1].

فهدف جهاد النفس هو أن يخرج رجالا ونساء مجاهدين يشمرون على ساعد الجد، لنيل الشهادة وبلوغ الجنان، وهذا ما نلاحظه في قراءاتنا للقرآن الكريم وأسفار السنة النبوية المطهرة، خطاب للمؤمنين ليتجردوا من الحياة الدنيا وزخرفها، بجهاد النفس بتطهيرها من كل ما يبعد عن الله تعالى، ويوطدوا أقدامهم على الموت في سبيل الله لينالوا إحدى الحسنيين؛ النصر أو الشهادة.

فإن لم نرب نفوسنا تربية إيمانية على الجهاد في سبيل الله، وحب الشهادة، فلا حياة ترجى، ولا نصر ينتظر، وهذا ما نراه اليوم، لما كره الناس الموت، أصيبوا بالويل والثبور، وتداعت عليهم الأمم، ومزقوا أرضهم شر ممزق، وصدق مولانا رسول الله ﷺ القائل في

(1) المنهاج النبوي، ص385.

الحديث الذي رواه سيدنا ثوبان ﷺ: "[يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا]. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟! قَالَ: [بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ]. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: "[حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ]" [1].

ولذلك فإنما خمدت الإرادة الجهادية في نفوس أجيال لم تتلقى التربية الإيمانية الصحيحة على دعائم قرآنية وسنية، فأخلد بها دين الانقياد إلى أرض الخمول وزج بها في الحضيض.

جهاد النفس إذن، جهاد كبير[2] ولا يطيقه إلا ذوو الهمة العالية. "ومن لا يجاهد نفسه يقع تحت سلطان القهر الشرعي. الذين يجاهدون أنفسهم ليزكوها ويردوها عن أكل الخبيث إلى الطيب، وعن الحرام إلى الحلال، وعن طاعة الشح إلى طاعة الله، هم النخبة الإيمانية الإحسانية، وهم العمود الفقري لجماعة الانبعاث الإسلامي"[3].

هنا يحق لنا أن نقول أن "أولى خطوات التغيير هي النفس الإنسانية وهذه هي الخطوة التي بدأ بها رسول الله ﷺ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[4]. فالفلاح في التزكية، والخيبة والخسران في التدسية، ولذلك عرَّفنا الرسول ﷺ على أعدى أعدائنا؛ أنفسنا التي بين جنوبنا، فإن صلحت صلح الأمر كله، وإن فسدت فسد الحال كله.

(1) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على أهل الإسلام، ح4297. قال محمد ناصر الدين الألباني: حديث صحيح.ح958، 2/ 647.

(2) جهاد النفس هو جهادًا أكبرًا، وإن كان المعاصرون من رجال الإسلام يستعظمون الجهاد القتالي والمخاطر المحفوفة به، ويستقلون جهاد النفس الذي سماه النبي ﷺ جهاد أكبر. لكن من لم ينتبه لنفسه إلى شحها وأنانيتها ويعرف ميلها الدائم إلى شهواتها ونزواتها وإلى زخرف الدنيا الزائل، وما يجب أن يبذله العبد من جهود في الصبر والمصابرة لإلجامها وردها إلى الحق وإلى جادة الصواب لا يفقه كلام الحبيب المصطفى ﷺ ولا يدرك له معنى؛ لأن القتال في ساحة المعركة هو وقفة وصدمة ساعة، أما النفس الأمارة بالسوء فإنها ساكنة بين جنبي العبد التي تجري فيه للهلكة في كل حين، فإما أن يكون الإنسان غافلا يطلق حبلها على الغارب في "تعايش سلمي" لذيذ، وإما يريد أن يكون مؤمنا مستجيبا لله تعالى، ولن يكون كذلك حتى يكون هواه تبعا لما جاء به الحبيب المصطفى ﷺ كما جاء في الحديث الشريف، وحتى يقتحم العقبة إلى الله وأول العقبات؛ عقبة النفس الأمارة بالسوء التي منها جاءنا الخلل والفشل.

(3) الإسلام بين الدعوة والدولة: المنهاج النبوي لتغيير الإنسان، ياسين، ص198-199.

(4) سورة الشمس: 7-10.

فلابد أن نعلن الحرب على النفس حتى تسلم ونحقق السلام أولا مع أنفسنا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[1]. فقبل أن نحقق السلام على الأرض وذلك ما ينبغي، لابد من تحقيق السلام داخل الإنسان الذي يناط به تحقيقه على أرضه، لأن فاقد الشيء لا يعطيه"[2].

ولنا في صحابة سيدنا رسول الله ﷺ أسوة وقدوة الذين تربوا -في مكة- "على المفاهيم التي سمت بهم فأعزتهم في أعين أعدائهم؛ قبل أن يحملوا سلاحا أو يبدءوا قتالا أو يدخلوا في معركة لأن الانتصار على النفس هو انتصار على غيرها من خارجها.

إن للنجاح الحقيقي أساس لا يتغير، هو النفس الإنسانية، فإذا استقر هذا المهاد لم يبق شيء ذي بال، فإذا ما حقق المسلم النصر على نفسه، والعبودية في قلبه، حسم المعركة وحقق الفوز"[3].

والحق في هذا المقام: أن رسالة الإسلام رسالة تربية قبل أن تكون رسالة تشريع، كانت التربية في فجر الإسلام سابقة ومرافقة وملازمة لكل خطواته التنظيمية، والتعليمية والسياسية والاقتصادية والقتالية.

وتناول النواحي المذكورة دون الالتزام بالتربية الإيمانية أو جهاد النفس تصير جسدا بلا روح، وقالبا بلا قلب. فلذلك فإن الذين يريدون أن يقيموا حكم الإسلام ونظامه دون تربية صحيحة على أسس متينة أنى لهم إقامة هذا الحكم والنظام الذي اهتم بمشاعر العباد قبل شرائعهم، وبالقلوب قبل الصفوف، وبالروح قبل الجسد، وبالباطن قبل الظاهر، وربما كانوا أشبه بالذي يضع العربة أمام الحصان فلا يستطيع أن يتقدم خطوة إلى الأمام.

ولذلك فإن الذين يحصرون الجهاد في معناه القتالي التزاما بالقوة وإمساكا بالسلاح وقتلا للأعداء... ويغفلون عن صلب الدين ولبه التربية الإيمانية، فإنهم جاهلين بطبيعة هذا الدين الحنيف الذي مكث ثلاثة عشرة سنة يربي رجاله في مكة في محضن تربوي دار الأرقم بن الأرقم، ويشرف عليه المصحوب الأعظم والمحبوب الأكبر سيد الوجود ﷺ.

(1) سورة الأنعام:82.
(2) الفريضة المفترى عليها، الجهاد في سبيل الله، جمعة أمين عبد العزيز، ص79.
(3) الفريضة المفترى عليها، ص90-93. باختصار.

فلو كان الأمر بالقوة والسلاح ولو كان الجهاد هو القتال لفرض على المسلمين في مكة وهم كانوا أهل حرب وشجاعة وفتوة.

لكن بعد تربية المجاهدين في الخلوات كان لابد أن يتربوا في الجلوات بالأحداث ليتبين صدقهم وتؤدتهم وبذلهم... فكان لابد أن يفرض عليهم القتال بعد تلك المرحلة، لتتبين ثمرة تلك التربية وصدق أفرادها في بذل أرواحهم ونفوسهم في سبيل الله، ولتصفو نفوسهم حتى لا تتعلق بالدنيا، وليكون القتال في سبيل الله، لا لعصبية ولا قومية ولا لحمية ونُعرة قبلية، إنما لله وحده لا شريك له.

فيتحصل من كل ما سبق "أن أي مناقشة لمعنى الجهاد يجب أن لا تغفل الأولوية التي أعطيت بهذا الخصوص للجهد الداخلي الروحي بالمقارنة مع الجهد الخارجي، إن هذا الجهاد النفسي والأخلاقي هو ما يوضح حقا روح الجهاد؛ وكل شيء آخر إنما ينجم عن هذا الرفض الداخلي لأن تسيطر العناصر الدنيا في الروح على الإرادة، والذكاء، وشخصية الفرد"[1].

فالأصل إذن، هو التربية المتينة على كتاب والسنة، فكما يقال:"الذي ضيَّع الأصول في ابتدائه حُرِم الوصول في انتهائه، والذي لم يُحْكِم الأساس في بنيانه سقط السَّقف على [جدره]" [2].

ولا ننس أن من المقاصد النبيلة لشريعة الإسلام هي حفظ النفس؛ أي حفظ النفوس البشرية كلها؛ ولا يتحقق ذلك- فيما يتعلق بالفرد-إلا بتزكية النفس وتطهيرها من الآفات، وتربيتها تربية إيمانية صحيحة، وحملها على الطاعات والقربات.

الباب الثاني: جهاد المال

المال عصب الدعوة، فكما يحتاج الجهاد للرجال يحتاج للمال، من أجل هذا حث القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على الإنفاق في سبيل الله، حتى جعل القرآن الكريم

(1) "تذكر روح الجهاد" بحث لرضا شاه كاظمي، المنشور ضمن: الإسلام والأصولية وخيانة الموروث الإسلامي؛ أبحاث كتبها باحثون مسلمون غربيون، أعده للنشر: جوزيف أ.ب. لمبارد، تقديم: سيد حسين نصر، ص 188-189.

(2) تفسير القشيري المسمى: لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري،3/ 62.

الشح وعدم الجهاد بالمال تهلكة ينهى عنها المسلمون ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾[1]. يأمر الله تبارك وتعالى عباده بالإنفاق في سبيله، "وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير، من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة، الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكالبهم،فيكون قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك، ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء"[2].

ولذلك فإن الجهاد في القرآن الكريم ما ذُكر إلا وقُرن بالمال والنفس، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[3]. لأن "الجهاد بكل أنواعه يتعطل إذا لم يتحقق الجهاد المالي بسخاء، وإذا لم يقم أهل اليسار بواجب الإنفاق في سبيل الله.." [4].

فالمال لا يقوم الجهاد إلا به، إذ الجهاد بدون المال يتعطل، وهذا السر في اقتران الجهاد بالمال والنفس في كثير من الآيات كما سبقت الإشارة إلى ذلك في مستهل هذا الباب من أبواب الجهاد.

---

(1) سورة البقرة:195.
(2) تفسير السعدي، ص90.
(3) سورة التوبة:41.
(4) حتى يعلم الشباب، عبد الله ناصح علوان، ص67.

والجهاد بالمال الذي يقبله الله تعالى ويربو عنده ينبغي أن يكون خالصا لوجهه تعالى، خاليا من كل شائبة من شوائب النفاق والرياء.

والقرآن الكريم في مواضع عديدة حض على بذل المال في سبيل الله، وشدد الوعيد لمن بخل بماله في سبيل الله، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

لننتبه إلى قوله عز من قائل في الآية السابقة: ﴿وأموال اقترفتموها﴾، فإن فعل اقترف يستعمل غالبا في كسب الإثم. ذكرت الكلمة في القرآن خمس مرات واحدة في اقتراف الحسنة وثلاث في السيئات، وهذه لاحقة بهن. إن كان حب الأموال وادخارها وكنزها واحتكارها يشغل عن حب الله تعالى، وتصرف في غير مصارف الجهاد في سبيل الله، فهو اقتراف وإثم. لذلك جاء في آخر الآية: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

ومِنْ ثَمَّ فإنَّ "المال عصب كل تحرك بشري، والمال الطيب ينفق في سبيل الله، تقدمه الذمم الحية قربانا لله، هو عصب الجهاد. لذلك اقترنا في القرآن، ولذلك يسبق ذكر الجهاد بالمال ذكر الجهاد بالنفس. المال عصب الجهاد وشرطه. فالمؤمن يبرهن على صدق نيته في إنجاح القضية المقدسة ببذله ماله. فلا نعرف صدقه إلا من خلال بذله ماله وجهده. وما في القلوب يعلمه الله. ما نعلم، ولا سبيل لنا، أن هذا أو ذاك من المؤمنين يحب الله ورسوله أكثر من الأب والابن والأخ والزوج والعشيرة إلى سائر ما ذكرته الآية إلا بقرائن الأحوال. وأهمها البذل. أهمها ما يأتي من عطاء مال وجهد من جهة المؤمن"[2].

فالجهاد بالمال فيما يتعلق بالفرد هو تطهير الإنسان المؤمن من عاهة الشُّح، وهو الخطوة الأولى في طريق الفوز والفلاح. قال الباري جل جلاله: ﴿ ...وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[3]

(1) سورة التوبة: 24.
(2) المنهاج النبوي، ص386.
(3) سورة الحشر: من الآية 9.

أما فيما يتعلق بالأمة فهو توفير المال اللازم لكل أبواب الجهاد وأنواعه.

والله تبارك وتعالى أمرنا بإعداد القوة ما استطعنا، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ...﴿٦٠﴾﴾[1]، والإعداد يحتاج إلى المال.

الباب الثالث: جهاد التعليم

أقصد بالجهاد التعليمي، إخراج الأمة من دياجير ظلام الجهل إلى نور العلم، وتعليمها دينها وشرع ربها، وحقوقها، كما علمها سيد الوجود ﷺ الذي بُعث معلما، وكما علمها أصحابه من بعده رضوان الله عليهم جميعا. من المسجد انطلقوا في تعليم الأمة، ومن المسجد انطلقت الجيوش الإسلامية معلية كلمة الله، ناشرة دينه بين الخلائق... كان المسجد بحق منارا للعلم والجهاد، ونحن نلحظ والحسرة تملأ قلوبنا أن عزه التليد كلم وأن هيبته الأصيلة خدشت، فصارت الأنفاس فيه محصية قبل الكلمات، وتلاشى دوره الجهادي أو يكاد.

ويندرج في جهاد التعليم "بذل الجهد مع من استجاب للإسلام من أجل تعليمه وتثقيفه وتربيته"[2]، ليتحصل لديه في النهاية "الثقافة الإسلامية الشاملة، والتصور الصحيح عن فكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والإنسان""[3].

ومقياس النجاح في جهاد التعليم هو: "أن نستطيع إعطاء كل مسلم ثقافة إسلامية كاملة وتربية إسلامية صحيحة وسليمة ومتكاملة"[4].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ: [تعلموا العلم وعلموه الناس، تعلموا الفرائض وعلموه الناس، تعلموا القرآن وعلموه الناس، فإني امرؤ مقبوض، والعلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف اثنان في فريضة لا يجدان أحدا يفصل بينهما][5].

---

(1) سورة الأنفال: من الآية 60.
(2) جند الله ثقافة وأخلاقا، سعيد حوى، ص374.
(3) حتى يعلم الشباب، ص75.
(4) جند الله ثقافة وأخلاقا، ص375.
(5) سنن الدارمي (مذيلة بأحكام حسين سليم أسد عليها)، باب الاقتداء بالعلماء، ح221. قال حسين سليم أسد: في إسناده ثلاث علل: ضعف عثمان بن الهيثم والانقطاع وجهالة سليمان.

وعن الحسن ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلاَمَ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ][1].

فواجب المجاهدين هو أن يعلموا الأمة رسالة الإسلام والإيمان، في الطرق والمساجد والمعاهد والمدارس والجامعات، والبيوت...قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾[2].

إنه جهاد لإبلاغ الكلمة الطيبة، وإسماع صوت الحق للناس، والأخذ بأيديهم إلى طريق السعادة والفلاح.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، نضيف مَهَمة أخرى ملقاة على عاتق المجاهدين، وهي "محو الأمية" في صفوف أمة {إقرأ}، أو بالمفهوم النبوي الجامع والشامل؛ تعليم الناس الخير، الذي يدخل فيه كل خير مادي ومعنوي.

هذا جانب، والجانب الآخر؛ إعادة بناء الهيكل التعليمي المنخور-الذي يتخرج منه أفواج من أبناء الأمة- على قواعد تخدم رسالة الإسلام، ولا تتعارض معه.

الباب الرابع: جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ معناه ومضمونه الذود عن الشريعة الغراء، والسهر على إقامة حدود الله تعالى، وتثبيت أركان الدين في نفوس الناس، والمراقبة الشديدة على تطبيق الشريعة.

قال الحق جل وعلا في جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[3]. والمعروف كما جاء في الآية الكريمة هو: "اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من

(1) سنن الدارمي، المقدمة، باب في فضل العلم والعالم، ح354. قال السخاوي في هذا الحديث:"رواه الدارمي عن الحسن مرسلا". المقاصد الحسنة، ص468.
(2) سورة الأحزاب:39.
(3) سورة التوبة:71.

العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة"[1]، والمنكر هو: "كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة"[2].وقال عز من قائل: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[3].

ولهذا فإن واجب جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معناه يوم تكون للإسلام دولة وكيان سهر أولي الأمر من المؤمنين على الشؤون العامة في مختلف مجالات الحياة، وإفساح المجال للمسلمين والمسلمات، بل تربيتهم ليسهموا في السهر العام بمشاركتهم اليقظة.

وعلاوة على ذلك، فإن "الهدف الرئيس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو اجتثاث الحكم الفاسد وتقويض دعائمه شرطاً لكل الشروط، وإلا استحال هذا الواجب المقدس لعبة في يد السلطان الجائر وسهما مصوبا إلى من ينافسه ويضايقه. ثم الأهداف بعد ذلك هي المحافظة على سلامة نظام الحكم، وحماية حوزته، وتزويد جَذْوته بالجُهد الصادق لكيلا يفتر نشاطُه وتنطفئ شُعلته. ثم محاصرة بؤر الفساد ومنابع الشر، مؤسسات وأفراداً لدحض الفساد وإخماد المنكر وتخميله وتنويمه والحد من شره. ثم حركة موازية مزامنة لإبطال الباطل وهدِّ المنكر، الجهاد الإيجابي لإحقاق الحق، هو المعروفُ حسنُه بالعقل والشرع، بل بالشرع والعقل. والمعروف هو العدل والبر والمجتمع الأخوي وإنصاف المحرومين وإغاثة الملهوفين ورفع المستضعفين إلى المرتبة الإيمانية المكرمة التي يستحقون بها منة الله بالاستخلاف في الأرض والسيادة فيها"[4].

هكذا يمكن القول أن جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من ضرورات الحياة على مستوى الدولة والأمة. ولهذا كان هذا الباب من أبواب الجهاد "سواء نفذته الدولة وأجهزتها المختلفة، أو النخبة متمثلة بالفقهاء والدعاة والمعلمين، أو الأمة نفسها من خلال شرائحها الاجتماعية المختلفة، كانت هذه الممارسة التي طالما أكد عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تضع المجتمع المسلم في حالة الالتزام الضرورية بمطالب هذا الدين،

(1) تفسير السعدي، ص343.
(2) تفسير السعدي، ص343.
(3) سورة الحج:41.
(4) الإحسان، عبد السلام ياسين، 2/ 147-148.

الأمر الذي يمنح هذا المجتمع الحماية من التفكك والتسبب، ويدفع إلى المزيد من الجهد والإحسان مما هو ضروري لكل فاعلية حضارية"[1].

وجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو السمة الكبرى لأمة الخيرية الشاهدة على الأمم، كما قال الله عز اسمه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ كُنتُمْ..﴿١١٠﴾ ﴾[2].

ومن الأهمية بما كان أن نختم هذا الباب من أبواب الجهاد بالقول: أن من مقاصد الشريعة الإسلامية الغراء؛ حفظ النسل أو العرض؛ والنسل اليوم أصبح بغياب الشريعة الإسلامية نسلا غثائيا، نسلا يعد بالجرائم، نسلا يعد بالبؤس، نسلا يعد بالفوضى التي لا تخدم الإسلام، لما فشا التبرج والزنا، أصبح حفظ النسل الذي هو من أنبل وأشرف المقاصد مستحيلا بكثرة اللقطاء وأبناء الزنا، ولا يمكن إصلاح هذا إلا بتحكيم شريعة الإسلام في كل جزئية وكلية، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يتوب الناس ويرجعوا إلى ربهم.

أضف إلى ذلك أن الأعراض قضى عليها الجبارون المستكبرون؛ ولهذا وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتحرير تلك الرقاب المستضعفة من يد المستكبرين.

الباب الخامس: جهاد الكلمة والحجة[3]

إن الحرب الإعلامية على أشدها ضد الإسلام، حرب مدججة بالأسلحة الشيطانية والأموال القارونية والوسائل الخبيثة. نقاوم كل هذه المخططات الماكرة، بجهاد إقامة الحجة وإثبات الحق.

وإن من مقاصد الشرعية الإسلامية حفظ العقل؛ ويندرج في هذا الحفظ جهاد الكلمة والحجة لحفظ عقول أبناء الأمة من الثقافة الغربية الجاهلية الوباء الفاشي والخضم المرج الحلك القذر الذي غطى على عقولهم، ونهب ذاكرتهم، فيكون منطلق فهمنا من القرآن الكريم والسنة النبوية.

(1) مدخل لدراسة الحضارة الإسلامية، عماد الدين خليل، ص154-154.
(2) سورة آل عمران: من الآية110.
(3) وفي هذا الباب يمكن أن ندرج الجهاد بالقلم؛ أي بالكتب والمقالات والدوريات وغيرها، لرد بضاعة أهل الزيغ والضلال إليهم، ثم لنشر دعوة الإسلام وبيان حقيقة الشريعة الإسلامية الغراء...عبر هذه الوسيلة التي لها أهميتها الفعالة.

ونعني بجهاد الكلمة والحجة بذل الجهد باللسان وبالقلم ضد كل انحراف، وضد كل من يناوئ الإسلام من المخربين فكريا ومن الممسوخين عقائديا؛ أصحاب الفلسفات الكافرة والجدليات الملحدة.

قال الإمام علي ﷺ كما جاء في نهج البلاغة:"اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة: إما ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا لئلا تُبطل حُجَجُ الله وبيناته. وكم ذا وأين أولئك؟؟ أولئك –والله– الأقلون عددا، والأعظمون عند الله قدراً يحفظ الله بهم حُجَجَه وبيناته حتى يُودِعُوها نُظراءَهم، والدعاة إلى دينه"[1].

إن جهاد الحجة والكلمة لا يستطيع القيام به إلا من تخلص من كل خشية من الناس على نفسه وما يملك، وتخلص من ضغط المجتمع وما يجري فيه...، هذا الباب من الجهاد يجب أن نؤديه على وجهه الأكمل، ولا يكون كذلك إلا إذا كان قرآنيا مبينا.

إننا بحاجة إذن، إلى لغة وإلى خطاب يبلغ الأسماع، يخرق جُدُر الحصار الإعلامي ضد شريعة الإسلام، ويقارع شراذم الغزو الفكري والثقافي وأذنابهم من بني جلدتنا.

وبحاجة أيضا إلى علم وإعلام وتطبيق لإسلام العدل والكرامة والحرية، وتحرر من التبعية العمياء للجاهلية وللحضارة الغربية المادية الدوابية.

يجب أن يكون خطابنا قرآنيا قويا، نقول الحق ولا نخاف في الله لومة لائم. وأن تكون لنا " نظرة اجتهادية إسلامية شاملة شمولية تبين للمثقف والعامل والفلاح، والرجل والمرأة، والصديق والعدو، كيف يصبح القرآن، وهو طلبة المسلمين المستضعفين، قانونا عمليا يوجه الحياة اليومية، ويقسم الأرزاق، وينظم الاقتصاد، ويصنع البلاد، ويسلح العباد، وينصر دين الله في الأرض"[2].

وخطاب الله تعالى في القرآن، علمنا كيف نحاج الناس ونخاطبهم، علمنا في محاجة المنافقين –مثلا– بقوله تبارك وتعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ

(1) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، جمعه ونسق أبوابه: الشريف الرضى، شرحه وضبط نصوصه: محمد عبده، ص717.
(2) المنهاج النبوي، ص397.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾[1]، وقوله جل ذكره: ﴿بَلۡ ..وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾[2]، "والضمير في (به) يراد به القرآن"[3]، أي جاهدهم بالقرآن. وقوله تقدست أسماؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾[4]، أي "فجهاد الكافر المعلن بالسيف، وجهاد المنافق المتستر باللسان والتعنيف والاكفهرار، ونحو ذلك"[5]، وبتعبير آخر "جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين بالحجة واغلظ عليهم في الجهاد جميعا ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها"[6].

نثبت هنا إذن، أن "الخطاب القرآني الموجه إلى الفطرة البشرية هو الخطاب الشامل، هو لغة الجهاد. إن أسلوبه الجامع المانع الإلهي المتموج المتلائي بين الإنذار والبشارة، بين الترغيب والترهيب، بين الاستنهاض والزجر، بين التحريض العاطفي والتنوير العقلي، لهو وحده القادر على تبليغ دعوة الإسلام والإيمان والجهاد إلى أعماق القلوب. وهو وحده الكفيل أن يجعل لخطابنا الهيبة والنور والفاعلية التي تحول الكلام عملا، والفكر إنجازا والشريعة الإلهية قانونا يحكم في الأرض، يعلو ولا يعلى عليه.

ابتليت أمتنا بالفكر المترجم بالفكر الفلسفي الإيديولوجي. فتقرأ وتسمع خطابا بألفاظ عربية، لكن بمعان تلعنها لغة القرآن.

لا حاجة بنا إلى حكاية لغة الإيديولوجيات والفلسفة لكي يفهمنا ممسوخو الفكر.

إننا إن نزلنا بخطابنا ومحاجتنا من مستواهما الرفيع القرآني، وجردنا هما عن النذارة والبشارة، والتوجه المتعاقب إلى العاطفة والعقل معا، هبط إيماننا إلى مستوى المواجهة بين المعاني الأرضية تتقاتل.

---

(1) سورة النساء: 63.
(2) سورة الفرقان: من الآية 52.
(3) المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، 3/ 213.
(4) سورة التوبة: 73.
(5) المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 3/ 59.
(6) تفسير الكشاف، للزمخشري، ص442.

وإن نحن قصرنا خطابنا وردنا على ما نحاجه في حيز التحركات الدنيوية، ولم نذكر الآخرة، ولم نصور لخصمنا ولمن ندعوه الموت وما بعدها، والآخرة وحسابها، والموقف وأهواله، والجنة والنار، لا يكون خطابنا إسلاميا لأنه لا يكون بذلك قرآنيا"[1].

خطابنا الإسلامي لابد أن يعط لكل سؤال مادي تثيره حالة العالم جوابا مستمدا من الهدي القرآني ومن مشكاة النبوة. ولن يكون الجواب إسلاميا إلا إذا ربط بين الدنيا والآخـرة، وعالم الغيب وعالم الشهادة، والحياة والموت، وبين حاجات الإنسان المادية وحاجاته الروحية. حتى لا نتشبه بأعداء الإسلام وخصومه في خطابهم الخالي من ذكر الله ﷻ وذكر الآخرة. الدائر حول داء الطبقية والصراع، والهيمنة المشتركة بين عمالقة الأرض.

"يشيد أعداء الإسلام بشمولية فكرهم في زعمهم، ينظرون أنهم بلغوا قمة الذكاء والوعي التاريخي والسياسي حين يطرحون مشكل الإنسان، وسير التاريخ، وعلاج أمراض المجتمعات البشرية بواسطة الصراع الطبقي، ومراقبة التطور التاريخي وتطبيق الاشتراكية.

حقيقة الموت طويت في خطابهم. الإنسان الفرد ذاب في المجموع. في الصراع الطبقي لا وزن للفرد وهمومه، وشقائه وسعادته في الدنيا التي لا يؤمنون بغيرها فأحرى في الآخرة التي لا يرجونها.

شمولية الفكر الجدلي المزعومة ما هي إلا إدراك سطحي جدا ما دامت لا تتعرض للمصير الجماعي التاريخي إلا لتطوي وتذيب وتنسى مصير الإنسان بعد الموت. هذه الشمولية المزعومة يكفينا في فضحها تقويم نتائجها الأرضية من خلال ما يكشفه نزلاء جهنم الشيوعية من وجود "كولاك" وهو عبارة عن سجون الإبـادة والتعذيب، ومن وجود" نومنكلاتوا" وهي عبارة عن طبقة الحكام المهيمنين على كل شيء"[2].

وعليه، فبعد افتضاح الإيديولوجية بضآلة نتائجها، بل بوحشية نتائجها الفظيعة، يبقى لنا "أن نقدم على مستوى الخطاب والجدال والتفهيم الإسلام في إيجابيته. نتحدث عن الإنسان في شموليته. عن مصير المجتمعات التاريخي، وعن مصير الإنسان الفرد المدعو إلى

(1) المنهاج النبوي، ص400-401.
(2) المنهاج النبوي، ص402.

الله. مصيران مشتبكان متعانقان. ونربط مصير المجاهد بمدى سعيه لتحقيق مصير العزة لأمته. فإن الله تعالى إنما وعد الشهيد بالحياة الخالدة في النعيم لأنه يسعى بجهاده وبذل حياته في إحياء أمته"[1].

لكن! "إن كان جهاد الحجة مؤكدا لدحض الإيديولوجيات والفكر الجدلي فإن آكد منه التهيؤ لنزال الرأسمالية-وهي العدو الأول- في معاقلها. في الاقتصاد يهيمن عليه اليهود، في الإعلام، في الحرب، في تحرير الأرض، في ميدان المال-مالنا الذي يدفعه سفهاؤنا اليوم للترابي العالمي-، في ميدان العلم والتكنولوجيا، في ميدان التنظيم والسياسة والإدارة والتصنيع.

لا بد من تعبئة شاملة، فإن إبطال الباطل وإحقاق الحق لا يكفي فيه جهاد الحجة، إنما يكون هذا قد أدى مقصوده إن كان حافزا للتحرك، والزحف، والنزال، والصمود حتى النصر، وبعده إلى يوم القيامة"[2].

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن القيام بالحجة أنواع كثيرة، فالشاب المجاهد الذي يجلس إلى ملحد أو لائكي من أساتذته أو من أقرانه يجادلهم في الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن بالتي هي أحسن، ويبرهن لهم على أن الله حق والنبي ﷺ والإسلام حق والدار الآخرة حق والحشر حق والجنة حق والنار حق، وأن لا عزة لهذه الأمة ولا كرامة لها إلا بالتمسك بالإسلام قرآنا وسنة، واتباع النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، وأن الإسلام دعوة ودولة، غيب وشهادة، روح وعقيدة، تربية وجهاد... ويدحض حجج الملحدين واللائيكيين المادية التي بها يوطدون فكر الإلحاد وفكر الغرب. هذا الشاب المجاهد قائم بحجته في ميدانه.

والقائم لله بحجته في ساحة السياسة العامة يجادل الأحزاب التي تدعو إلى الحكم بالقوانين الوضعية المعاصرة والتخلي عن حكم الشريعة، ويدحض مزاعمهم الباطلة، وأفكارهم المستوردة الضالة، هذا قائم بالحجة.

---

(1) المنهاج النبوي، ص402.
(2) المنهاج النبوي، ص403-404.

والقائم بالحجة هو ذلك المؤمن المجاهد الذي يستجيب لربه عندما يخاطب الله ﷻ عباده المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ... ﴿٨﴾ ﴾[1]. وهناك أشكال كثيرة لجهاد الكلمة والحجة اكتفينا ببعض الأمثلة المذكورة.

الباب السادس: جهاد التعبئة والبناء

إن المقصود بجهاد التعبئة والبناء هو أن تبذل الأمة المساعي والجهود في إقامة دين الله في الأرض وتطبيق كتابه المنزل على نبيه وصفوة خلقه سيدنا محمدﷺ، وبناء المجتمع الإسلامي الأخوي، والإسهام في بناء صرحها المتين وحصنها المنيع.

ومما يجب أن لا نغفله في هذا الصدد أن مشاكل الأمة كثيرة ومتشعبة، ومَهمات البناء ثقيلة تنوء بالعصبة أولي القوة، ولا ينهض لها إلا الأمة كلها.

فمَهمَّات تحرير الأمة من التبعية للجاهلية للغرب وأعوانه؛ مَهَمَّات ضخمة لا سبيل إلى إنجازها إلا بمشاركة الأمة المستضعفة مشاركة فعالة صادقة مخلصة في البناء والتغيير.

وهنا حقيقة من الأهمية بما كان معاودة التأكيد عليها وهي؛ أن جهاد المسلمين في الأرض ليس كتحرك غيرنا "ونضالهم"، لذا كان جهاد من سبقنا بالإيمان من الرعيل الأول عاصفة قضت على المستكبرين في الأرض، ورحمة وبلسما شافيا للمستضعفين، وقوة أهربت كل الأعداء في الداخل –من المنافقين واليهود– وخارجيا–من صناديد المشركين–.

ولنا في غزوة الخندق[2] خير شاهد على تلك التعبئة العجيبة، حيث هجم العدو بخيله ورَجله وحشوده على المسلمين، وكان لابد من تعبئة جميع المسلمين لحفر الخندق. شارك سيدنا رسول الله ﷺ بنفسه في حفر الخندق وجسده الشريف يغطيه الغبار، ليحفز كل المسلمين ويشحذ ذممهم ويرفع هممهم ويقوي عزائمهم ليستهينوا بالدنيا وما فيها ويتعلقوا بالله والدار الآخرة، فقاموا قومة رجل واحد لإنجاز تلك المَهمة المستعجلة التي رأى فيها قائد الجيش مصلحة للمسلمين تمنعهم من كيد الكائدين المتربصين بهم الدوائر من كل فج عميق. وصحب تلك التعبئة شعور بالوحدة والمحبة وبذات جماعية واحدة، وخاصة وأن

(1) سورة المائدة: من الآية 8.
(2) الخندق: الحفر حول المدينة. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، كتاب الخاء 1/ 484.

القائد أعطى لهم المثال بنفسه في الحفر، فكانت تعبئة لا مثيل لها في التاريخ؛ عبرت عن كيان جماعي موحد، وذات واحدة، وعمران أخوي، روحه المحبة للقائد الأعظم ﷺ؛ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[1]، وذروة سنامه البيعة لسيدنا رسول الله ﷺ؛ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[2]، ورائده طلب وجه الله تعالى والدار الآخرة ونعيمها؛ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾[3].

فالتعبئة الجهادية لن تكون تعبئة إلا إذا تساوت القيادة والجند والأمة يجمعهم صف واحد، لا طبقية ولا استعلاء ولا تفاوت إلا بالتقوى.

ويوم يرجع أبناء الأمة من امبريالية أمريكا، وجدلية ماركس، وثورية لينين، ومثالية هيغل، إلى المنهاج النبوي القرآني.

فجهاد البناء إذن، هو نقض معاقل الكفر وهدم صروح الباطل، لبناء جيل مؤمن وعقلية مؤمنة ونمط حياة ومقوماتها.

جهاد لبناء مجتمع لَبِنَاتُه متماسكة، ولا نعني به الزج بالأمة في معامل الأعمال الشاقة، أو خرق العادة. إنه جهاد التعبئة والبناء شقيق الجهاد القتالي، يرضعان معا من خصال الشجاعة التي تذهب الوهن الذي تربع على عرش القلوب، وحب الشهادة في سبيل الله الذي يذهب الخوف من الموت، وشرف اليد المؤمنة التي تهاجر الكسل والخمول وتضرب بالمسحاة[4].

فما كان سيدنا رسول الله ﷺ وهو سيد الخلق أجمعين وأكرم السابقين واللاحقين، وأصحابه الغر الميامين رضي الله عنهم رجال غدوة إلى المسجد، وأخرى لساحة القتال -في الغزوات والسرايا

(1) سورة آل عمران: 31.
(2) سورة الفتح: 10.
(3) سورة الإسراء: 19.
(4) المسحاة: بكسر الميم؛ هي المجرفة لكنها من حديد، والجمع (المَسَاحِي) كالجواري. و(سَحَوْتُ) الطين عن وجه الأرض سَحْواً من باب قال جرفته بالمسحاة. المصبح المنير، (م،س)، كتاب السين مادة سحو، ص141.

والبعوث-، والأيام بين ذلك فارغة. بل كانوا كلما رجعوا من غدوة في سبيل الله إلا وكان رجوعهم إلى أعمالهم الدائبة ونشاطهم العادي لبناء كيان الأمة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا.

ومجمل القول: لابد لنا من جهاد بناء وتعبئة لنضمد الجرح ولنوقف النزيف في ذات مقوماتنا المادية التي أصبحت نهبا للناهبين، ولنوقف خاصة النزيف الذي أصابنا في المخ فقلدنا الآخرين تقليد القردة، وانبهرنا بمنتجاتهم، وكأنهم ملائكة، وسال لعابنا على متاحفهم رغم أننا كنا سادة العالم.

وعليه، فإن لم يكن البناء على دعائم متينة، والتعبئة إسلامية لجهاد إسلامي، فالفردية والذيلية والهوان مستقبلنا.

الباب السابع: الجهاد السياسي:

الجهاد السياسي هو بذل الجهد لتكون مبادئ الإسلام وأحكامه هي السائدة في أحكام الدول وقوانينها.

ولا جرم أن من مقاصد الشريعة الإسلامية الغراء حفظ الدين؛أي أن تكون كلمة الله هي العليا، وأهم ما يمكن أن نحفظ به دين الله ﷻ هو الحكم بما أنزل الله؛ حتى يكون المجتمع إسلاميا، والحكومة إسلامية.

وعليه، فإن ولوج الميدان السياسي للحفاظ على كيان الأمة وثوابتها، باب من أبواب الجهاد ومن مستلزماته اليوم، له سند تأصيلي وله معالم نبوية يستضيء بنورها ويهتدي بهديها.

فبعد تربية الأمة تربية إيمانية عالية وأثناءها يجب وجوبا ملحا الاهتمام بالمجال السياسي، أو ولوج باب الجهاد السياسي لإصلاح ما فسد، وبناء ما انهدم، فلا ننتظر أن تعود الأمة إلى مجدها وعزها بمعجزة من السماء، بل يجب الأخذ بالأسباب كما أخذ بها منقذ الأمة ومخرجها من الظلمات إلى النور سيدنا وسندنا محمد ﷺ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:[إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ أَنْ تَقُولُ لِلظَّالِمِ: يا ظَالِمِ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ][1]؛ أي كَبِّر عليها أربعا لوفاتها.

(1) المستدرك على الصحيحين،كتاب الأحكام ح7039.

والأحاديث والآيات في الباب كثيرة اكتفيت بما أوردته هنا.

إن الله تعالى يقول في سورة الفرقان وهي مكية:﴿بَلْ..وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[1].

الباب الثامن: جهاد الكفر والفقر

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً][2].

وإن كان الحديث ضعيفا[3]. فنورده هنا لما نراه في واقعنا من كفر كلما وجدنا فقرا، ومن فقر كلما وجدنا كفرا، فالفقر والكفر، إذن توأمان.

وعلى ذلك فإن "مظاهر الكفر تتجلى في أن لا يجد الإنسان ملبسا لائقا، أو مسكنا يحميه من الحر والبرد، ولا يجد غذاء كافيا لنمو جسمه وأطفاله وعياله نمواً طبيعيا، يدفع الأمراض والعلل، ولا يجد ما يعالج به نفسه أو عياله عند المرض ولا يجد مكانا يتعلم فيه أو ما لا ينفقه على تعلمه طالما هو راغب أو قادر على التعلم، إن هذه المظاهر تدل على الفقر، وبينها علاقة وطيدة وكبيرة.

إن علاج الفقر يبدأ في الإسلام من النفوس والعقول والقلوب وفي الأفراد أولا، حتى يصبح إحساسا عاما وشعورا مشتركا بين جميع الناس الغني والفقير، أو على الأقل بين الغالبية العظمى منهم، وعندئذ تتخذ الأمة قرارها الحاسم الجازم بأن تتخلص من قبضة القلة والفقر وتدفعه عنها، وعندما يكون هذا هو الإحساس العام المشترك ستظهر العبقريات التي تفكر في هذه المعضلة في مستويات متعددة، وهنا تبدأ الخطوة الأولى الصحيحة في تعقيبه والتخلص منه ومن آثاره بل من أسبابه ومقدماته"[4].

---

(1) من الآية52.

(2) شعب الإيمان، للبيهقي، الثالث والأربعون من شعب الإيمان، ح6612.

(3) ضعفوا الحديث لأن فيه يزيد الرقاشي. انظر: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ص359.

(4) مقال بعنوان:"عقبات في طريق النهوض والبناء"، فاروق حمادة، المنشور بمجلة بصائر الرباط، الصادرة عن دائرة الرباط العلمية للبحث في الدراسات الإسلامية، العدد الثاني، المحرم 1427هـ-فبراير 2006م، ص11-12.

كاد الفقر أن يكون كفرا "بالنسبة للفرد الذي يبيت في عرصة جائعا بين قوم شبعانين. ويقترب الفقر الناتج عن الظلم الطبقي من الكفر بالنسبة للمجتمع الذي تنخر فيه الطبقية حتى يكونا ضجيعين ونجيين وتوأمين"[1].

إننا إذا بحثنا عن حقيقة الكفر، فنجده "أخطر شيء في حياة البشرية، فحينما تجحد أمة ربها أو تشرك به، أو تعبد سواه بنوع من أنواع العبادة ستعيش هائمة على وجهها لاهثة في حياتها ليس لها مرجعية واضحة، أو ثبات على شيء من أخلاق أو مالٍ، أو نظام أو تشريع.

وإن الأمة التي تسمح لدعاة الكفر والإلحاد أن ينتشروا في أرجائها بأسماء متعددة، ولافتات متنوعة، وأشكال متعددة لا شك أنها تضع أسس انحطاطها وزوالها وتصنع بيدها نكباتها، وعندما تفتح للكفر جميع الأبواب، وللإلحاد كل المسالك، ويكرم الملحدون والعابثون، فقد مهدت لاستباحة الحمى، ونقض الأسس، وتقويض مقومات البناء.

إن قضية الإيمان والكفر الزاحف هي أخطر قضية توجهها الأمة اليوم، وإن غُطيت بأشياء ثانوية وأمور فرعية، ولابد من مواجهتها بشجاعة على كافة المستويات، وإلا فقد طال بنا السراب، ولربما ذهبنا في طيات الغياب!!..." [2].

هذا فضلا على أن من المقاصد النبيلة لشريعة الإسلام حفظ النفس؛ أي حفظ النفوس البشرية كلها؛ ولا يتحقق ذلك إلا إذا ساد الأمن على وجه الأرض. وأي أمن هناك في بلاد الإسلام، أَمْنٌ يخدم مصلحة الصهاينة ومصلحة أمريكا ومصلحة المعسكر الغربي الصليبي وحلفائه، أضف إلى ذلكْ التفاوت الطبقي الشنيع الذي نخر كيان مجتمعاتنا؛غني يعيش في بحبوحة الترف، وفقير في حضيض البؤس واليأس، ولذلك لابد من محاربة الكفر والفقر، حتى يكون لنا في النهاية مجتمعا إسلاميا لا طبقية فيه ولا ترف ولا موالاة للأعداء؛ يعيش تحت ظله المسلم وغير المسلم، الأبيض والأسود سواسية كأسنان المشط.

---

(1) المنهاج النبوي، ص421.

(2) "عقبات في طريق النهوض والبناء"، مجلة بصائر الرباط، ص8-10.

الباب التاسع: الجهاد الاقتصادي

أقصد بجهاد الاقتصاد؛ بذل الجهد لتحقيق القوة الاقتصادية وإنعاش الاقتصاد، وتحقيق الكفاية المادية للأمة الإسلامية، حتى لا تستنجد الأمة المسلمة بغيرها، وحتى لا تبقى عالة على الأمم، تأكل من فتات موائدها، وتستهلك ما ينتجه غيرها. وهذا من النفرة التي أُمِرنا بإعدادها-كما جاء في القرآن الكريم-، لنشر الدعوة وحمايتها، ولمواجهة المعتدين والطواغيت.

وعليه"فجهاد المؤمنين لبناء الاقتصاد ولإعداد القوة كجهادهم لتبليغ الرسالة لن يكون جهادا منفردا مخذولا بل يكون جهادا يزكيه الله ويعينه الله رب الإنسان ورب السماء والأرض ورب النواميس الطبيعية التي جعلها لنا فتنة، فإذا آمنا به وعبدناه وقصدنا وجهه سخرها لنا وسخر لنا كل شيء"[1].

وعلى هذا فبعد النصر والظهور والتمكين، ترث الأمة من يد المستكبرين والمترفين اقتصادا جاهليا يعمل لصالح الاستكبار العالمي والمحلي، وترث قسمة ضيزى في الأرزاق، وترث الفقر والكفر، وترث البطالة، وترث عادات استهلاكية جاهلية، وترث الخراب الاقتصادي.

هذا الاقتصاد العفن المريض يطلب علاجا طويلا، وتحملا كبيرا، لكن إن تجندت الأمة كلها، وقامت قومة رجل واحد، وجاهدت، وبذلت قصارى جهدها، فلا شك أن اقتصادها سيشفى بإذن الله مما عَلِق به من أدران الجاهلية وأوساخها.

ولهذا فإن القوة الاقتصادية "ووصول الأموال إلى قبضة المسلمين ستكون عاملاً من عوامل قوة الدعوة الإسلامية وستتحكم المنظومة الإسلامية على الاقتصاد العالمي وستعرض على العالم سوقا ومنظومة شركات إسلامية.

وسترتفع رايات المسلمين ومعنوياتهم عندما يرون رجال المال المسلمين الذين ينفقون أموالهم سرًا وعلانية ابتغاء مرضاة الله وينطلق الدعاة في كل مكان مبشرين ومنذرين وخلفهم مؤسسات وشركات تدعمهم وتقف بجانبهم، كل على ثغر، وكل يسعى لتمكين دين الله في الأرض.

(1) الإسلام غدا، ياسين، ص591.

إن الإعداد المالي والقوة الاقتصادية ستكون في خدمة الأمة والدعوة والسياسة والفكر. وسيسند حركة التغيير الشاملة من أجل التمكين لدين الله في الأرض"[1].

ومجتمعاتنا اليوم لا يمكن أن تنهض "إلا إذا كان لها نظام اقتصادي صلب، يسمح للإنسان بأن يحقق ذاته وكرامته، وأن لا يقع فريسة الفقر بأي حال من الأحوال. ويجب أن يكون هذا هدفا اجتماعيا كبيرا"[2].

فالاقتصاد هو عصب الحياة، وقوام العمران الأخوي، والعمود الفقري للدعوة، فكيف تستطيع أمة اقتصادها منهار وفاشل، وثرواتها يستحوذ عليها شرذمة قليلة من الجاثمين على صدرها، وقاعدتها الشعبية مجمدة بمثبطات الفقر المدقع والمرض والخمول والركون إلى الراحة والكسل والجهل، وعصا الطبقية تلهب ظهرها، والظلم متربع على عرشها، والثراء الفاحش يضرب بخيله ورجله في أرضها،... من أن تحقق لها هدفا في الحياة، ببناء مجتمع ونشر دعوة؟!

يقول الحق جل ذكره: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[3]، كلمات وردت في الآية الكريمة من الأهمية بما كان أن نشير إلى ما تحملها من دعوة صريحة إلى القوة الاقتصادية، وأهميتها في إرهاب العدو، ومواجهة الطواغيت الأرضية:

إعداد القوة:{من قوة}: القوة الاقتصادية جزء لا يتجزأ من إعداد القوة، فلا يمكن أن نتصور جهاد الأعداء بلا إعداد القوة المادية، ومن يتصور ذلك فإنما يسيء إلى الجهاد وإلى الدعوة، ويعرض عن سنن الله في هذا الكون.

{رباط الخيل}: هاتان الكلمتان تشيران إشارة واضحة إلى العامل الاقتصادي؛ فالزراعة، والعلف، وتربية المواشي... كل هذا يدخل في إنتاج الخيل ورباطها.

---

(1) فقه النصر والتمكين، محمد علي الصلابي، ص312.
(2) القواعد الإستراتيجية في الصراع الحضاري، جاسم محمد سلطان، ص235.
(3) سورة الأنفال:60.

لهذا نبَّهنا ربنا الكريم ﷻ وأَلْفَت أنظارنا إلى ضرورة اتخاذ الأسباب المادية، لنجعلها وسائل، لتحقيق أهداف الجهاد، ونتخذها سُلما إلى تحقيق العزة والكرامة، والعدل والمساواة، والتمكين لدين الله في الأرض.

وفي باب الحض على الجهاد الاقتصادي أحاديث كثيرة منها الحديث الذي رواه سيدنا أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: [إِنْ قَامَتْ السَّاعَة وفي يد أَحَدِكُم فَسِيلَةٌ فإن اسْتَطَاعَ أن لا تقوم حتى يغْرِسها فَلْيَغْرِسْهَا] (1).

وبناء عليه؛ فالجهاد الاقتصادي له علاقة وثيقة ووطيدة بأبواب الجهاد الأخرى، فجهاد الدعوة يحتاج إلى قوة اقتصادية، وجهاد البناء والتعليم والجهاد السياسي والقتالي كذلك، أما جهاد التَّوَحُد فلا يمكن أن تتوحد الأمة وهي تعاني من تحديات كثيرة؛ تحدي الفرقة والشتات والتمزق بين متقلدي أمرها، تحدي الفقر شقيق الكفر، تحدي الأمن الغذائي، تحدي كفاية السلاح، تحدي أراضيها المحتلة والمغتصبة، تحدي اقتصادها الذي تتحكم فيه الصهيونية العالمية والقارونية الدولية، تحدي ثرواتها التي يعبث بها حكامها، تحدي الكفاءة الاقتصادية، تحدي النفط شريان الاقتصاد العالمي.

ومهما يكن من أمر، فإن تجاوز ما تعانيه الأمة من مشاكل الإنتاج يتم بتحقيق الضرورات الآتية:

1-تعبئة كل طاقات الأمة للإنتاج، وتحقيق الكفاية المادية والقوة الاقتصادية، ومحاربة السرف والترف،والاحتكار والتبذير، والنصب والسرقة، والربا والقمار، والغش والخداع، وتكديس الأموال وكنزها، والتصرف السفيه الذي ينافي المصلحة العامة للأمة، والقضاء على الكسب الخبيث، والكشف عن ما أودع الله في الكون من خيرات في الأرض ومنابع الثروات الطبيعية واستغلالها.

2- تحرير العمال من قبضة الرأسمالية، والحث على العمل والكسب باعتباره القيمة الأسبق في الاقتصاد، وباعتباره واجبا "على كل قادر عليه، والثناء كل الثناء على العمال المحترفين، وتحريم السؤال، وإعلان أن أفضل العبادة العمل، وأن العمل من سنة الأنبياء، وأن أفضل الكسب ما كان من عمل اليد، والزراية على أهل البطالة، الذين

(1) الأدب المفرد، للإمام البخاري، باب اصطناع المال، ح482، ص129.

هم عالة على المجتمع مهما كان سبب تبطلهم، ولو كان الانقطاع لعبادة الله. فإن الإسلام لا يعرف هذا الضرب من التبطل"[1].

ومن ثم فالعمل والكسب هو الناموس الطبيعي "الذي ربط الله به رزق كل دابة في الأرض، فلا محيد لكائن حي عنه بوجه من الوجوه، إذن، فلا غرو أن يكون هو الأساس الأول لتحصيل الرزق، ولذلك نجده الأساس الأول في جميع النظم الاقتصادية الربانية والإنسانية"[2].

3- تشجيع العمل الحر والملكية الخاصة والمبادرات الفردية بما لا يتنافى مع المصالح الاقتصادية العامة للأمة.

4- إنشاء شركات إسلامية صناعية ترفع من حيوية الاقتصاد، وتسهم في تحقيق الكفاية والقوة، والحض على التعاون.

5-تأميم المصالح الكبرى؛ من وسائل الإنتاج الأساسية التي تحقق المصلحة العامة، والمصارف والقروض، والتخلص من المؤسسات الربوية.

6- تنظيم الإنتاج وتشجيعه وتوجيهه وفق خطة تنموية حكيمة، تضعها الدولة لترفع من قيمة الاقتصاد وتيسير سبله، لا عرقلته والوقف في طريقه.

7- توفير فرص العمل لكل معطل له القدرة على العمل، وذلك بتشغيله في مجالات شتى: في الاستثمارات، أو الاستخراجات،أو مجال التصنيع، أو الخدمات الخاصة والعامة، أو البحث العلمي والفني.

8- تشجيع الإصلاح الزراعي، وتنشيط إنتاجه، والأخذ بالوصية النبوية: [مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لأَحَد فَهْوَ أَحَقُّ] [3]، وبوصية أمير المؤمنين عمر بن الخطابﷺ: " مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهْيَ لَهُ"[4].

---

(1) مجموعة رسائل الإمام الشهيد المجدد حسن البنا، ص251.
(2) أجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن حنبكة، ص464.
(3) صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا، ح2335.
(4) صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا.

9- استعادة الأدمغة من أبناء الأمة من المهاجر، مع تدريب الخبرات والمهارات الضرورية.

10- إنشاء سوق واسعة لمنتجات المسلمين، وتحقيق التضامن الاقتصادي بين الدول الإسلامية.

11- التحرر من التبعية للجاهلية المادية، ومن نفوذ الرأسمالية، بتهييء نمط إنتاج واستهلاك، وتخطيط محكم، وتكنولوجية واسعة.

12-تقريب الشقة بين طبقات الأمة المختلفة، والقضاء على الطبقية التي استفحلت في جسد الأمة، فأثمرت فقرا مدقعا، وثراء فاحشا.

وعلى ضوء ما تقدم من الضرورات يتم إنعاش الاقتصاد، وتحقيق القوة الاقتصادية، ومواجهة تحديات التخلف ومشاكل الإنتاج، وتحقيق الأمن الغذائي، والاكتفاء الذاتي.

بإجمال: لابد من بذل الجهود والمساعي لنقيم اقتصادا إسلاميا منسجما شكلا ومضمونا ومظهرا ومخبرا وكمًّا وكيفا مع مقاصد الشريعة الغراء ومطالبها، خادما لها، محققا للمصلحة العامة للأمة.

ولا ننسى أن من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ المال؛ لكن أموال الأمة احتكرها صناديد مجرمون، وذهبت نهبا للمبذرين والمترفين الجاثمين على رقابها. يكنزونها في بنوك الأعداء والصهيونية العالمية؛ ولهذا فحفظ المال لا يمكن تحقيقه إلا بالإسلام؛ بالجهاد الاقتصادي المذكور.

هذا، ولا يمكن الاقتصار على ما سبق ذكره من الضروريات فقط، بل لابد من بذل الجهود لتحقيق العدل الاجتماعي داخل المجتمع الإسلامي، وهذا يتطلب منا توحيد الجهود وتعبئتها لإنتاج ثروات قابلة للتوزيع، إذ لا يمكن توزيع الثروة دون إنتاجها، فالإنتاج أولا ثم التوزيع ثانيا، ولتحقيق النصر في معارك الإنتاج، وتحقيق العدل في التوزيع، لأن الأمة ما زالت تكتوي بنار التوزيع السيء لثرواتها من طرف شرذمة من المستكبرين والمترفين والمسرفين التي تحتكر صفوة الإنتاج في البلاد الإسلامية.

كما يتطلب الالتزام بالشريعة الإسلامية التي أمرت بزيال الجاهلية، وحرمت التبذير وإتلاف الطبيعة.

ويتطلب كذلك؛ تقويض دعائم الترف والفتنة التي تغرق الأمة في أوحال الطبقية والحروب القومية والطائفية.

فكان إذن، من الضروري والواجب أن يخضع توزيع الثروة للخطوط الشرعية العامة الآتية:

1- احترام الملكية الشخصية بشرط أن لا تتعارض مع مصلحة الأمة العامة.

2- احترام نظام التوارث وفرائضه كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية واجتهاد علماء الأمة وفقهائها.

3- تنظيم جمع الزكاة وتوزيعها، بواسطة جهاز مستقل تقوم الدولة بتكليفه، ليقوم بجبايتها وتوزيعها على الأصناف الثمانية المذكورة في القرآن الكريم[1]، ويضاف إلى الزكاة الصدقات، توزع كذلك على مستحقيها من الفقراء والمساكين...

4- محاربة تبذير الأموال، ونبذ النموذج الجاهلي المادي القائم على الطموح التمتعي؛ وتبذير خيرات الأرض والسعي في خرابها ليحقق اقتصادا لا نهاية له.

5- تقليل الكماليات والاكتفاء بالضروريات: بمعنى "أن نسد الضروريات والحاجيات لكل أفراد الأمة أولا بأول، ثم لا نعط الكماليات في إنتاجنا واستهلاكنا إلا كما يعطي متنفس للمضطر من مريض يحتاج لترفيه وعلاج، ومتعلم يلتمس تخصصا، وعجزة يحتاجون لعناية خاصة، وطفولة ينبغي أن تحب الإسلام وهي في مهد عنايته"[2].

6- الالتزام بشرع الله فيما أمر به من التمتع بنعم الله تعالى والطيبات من الرزق، في غير كلفة ولا زيادة عن الحاجة، مع إشراك المحتاجين فيها.

---

(1) لقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ [التوبة:60].

(2) المنهاج النبوي، ص351.

هـذا فضلا على بـذل الجهود باستمرار، لتحقيق التقدم الاقتصادي، والقوة الاقتصادية، والعدالة الاجتماعية في صورها الجسدية الموحدة المتماسكة بروابط المحبة والإخاء، والتكافل والتعاون، وذلك بالأعمال المنضبطة الحرة، وبالتكافل المعاشي[1] داخل الأسرة[2] والمجتمع[3]، والتعاون الاجتماعي، ودعم كل ما يمتن روابط المجتمع الإسلامي ويقويها، باعتبار كل ذلك من مقومات الجهاد الاقتصادي ودعائمه وأسسه المتينة.

وخلاصة القول: إن الإسلام أمرنا بأداء الواجبات والحقوق، ونهانا عن إضاعة الأمـوال وتبذيرها وإيتائها السفهاء. وأمرنا بالجد والعمل والتدبير لكسب الحلال، والمحافظة عليه، وتنميته، لنصرفه في الحلال، وننفق منه في سبيل الله، وحثنا على التسابق والتنافس في الخيرات.

كل ذلك المال أو الرزق "أداة ووسيلة نحن مخاطبون أن نستعملها لنبلغ غايتنا، وهي رضى الله عنا عن طريق توزيعه بيننا التوزيع الشرعي العادل، وعن طريق تعبئة وسائلنا المادية لنتخذ أسباب الكفاية والقوة والمنعة والقدرة على حمل رسالتنا إلى العالم، وتبليغها والدفاع عنها" [4].

إضافة إلى ذلك فإننا يوم نقرر مقاطعة بضائع المستكبرين في الأرض، لنصنع ونزرع ما يكفي لحياتنا، ويوم نصبح منتجين لا مستهلكين، ويوم يخرج من مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا شباب صلب الجسم، صادق الإيمان، مستنير الفكر، ثابت العزيمة، قادر على العمل والإنتاج، ويوم نتجاوز إكراهات العولمة، وتحديات العصر بالوحدة الإسلامية، والاقتصاد الإسلامي، حينئذ نكون قوة كبيرة في الأرض، نرفع رؤوسنا، ونخشى الله ولا

(1) وموارد نفقات التكافل المعاشي هي: فريضة الزكاة، في المال حق سوى الزكاة، البر والبذل، صدقة الفطر، النسك في موسم الحج، الإرث، الهبة، الوقف، الكفارات، الوصية، الرّكاز، النذر، الغنائم، بيت مال المسلمين، وغيرها من النفقات.

(2) التكافل داخل الأسرة يتم بالالتزام بما أمرت به الشريعة الغراء فيما يتعلق بالنفقات على الأسرة: الأبوان إن كانا فقيرين، والزوجة، والأبناء، والأقارب إن كانوا فقراء...

(3) والتكافل داخل المجتمع يتم بكفالة وتوفير حاجيات المعاش للفئات الفقيرة والضعيفة أو المحرومة: الفقراء والمساكين، واليتامى، والمسنين، والزمنى، والمشردين، واللقطاء، والمقعدين، وهناك فئات ليست بفقيرة لكنها تحتاج إلى من ينفس عنها كربها، أو يقدم لها يد المساعدة، أو غير ذلك: ويدخل فيه: مساعدة المدين المعسر، إعانة ابن السبيل، وحقوق الضيافة، ورعاية حق الجار...

(4) المنهاج النبوي، ص349.

نخشى أحدا من المستكبرين، ويومذاك نكون أهلا لنصر الله الذي يخص المتوكلين عليه سبحانه والقائمين بالقسط في سبيله.

"ويوم نقرر غلق الأبواب على الغزو الاقتصادي الجاهلي في زماننا هذا زمن الحرب الاقتصادية الشاملة، والحماية الجمركية، والأزمة النقدية، والاحتكار المتعدد الجنسية، نكون قد خطونا خطوات لإدماج اقتصاد أقطارنا وإعداد الوحدة الإسلامية"[1].

الباب العاشر: جهاد التَّوحُد

إن جهاد التَّوحد؛ هو بذل الجهد لتوحيد الأمة الإسلامية، إذ الأصل فيها التوحد لا التفرق والتشرذم، قال الله جل جلاله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾[2]. فعلى هذا، فوحدة دار الإسلام ضرورة ملحة وواجب شرعي وأمل عزيز.و وحدة الأمة المسلمة ووحدة قيادتها هما شرطا القوة ومصدر العزة لمواجهات التحديات المعاصرة والمخططات الجاهلية.

ولذلك يكون تتويج الأمة بإكليل النجاح إن شاء الله، "بعد تخطي العقبات السياسية، والعراقيل التآمرية والعسكرية، والمصاعب الاقتصادية، يوم تنضج الأمة، وتتأهل بإيمانها وعملها الصالح للخلافة في الأرض، فتتوحد وتعود ذلك الجسد الواحد العضوي، المتضامن القوي، وجودا في العالم، عزيمة في مصارع التاريخ، قدرا من قدر الله.

يتوج جهاد جند الله يوم تخرج الأمة كلها من استعباد مترفيها لمستضعفيها، يوم نعود شهداء على الناس كافة، يستطيع من ندعوهم للإسلام أن يقارنوا فساد أنظمة الحكم الجاهلية بصلاح نظامنا، واستقرار شؤوننا بتهافت غيرنا، ونصاعة صراطنا واستقامته بقتامة سبل غيرنا واعوجاجها.

والطريق إلى توحيد الأمة عقبة لن نقتحمها بالأماني العذاب. ها نحن أولاء سجناء في خصوصيات الأقطار التي جزئت إليها دار الإسلام، في كل قطر دولة، وعلى كل دولة طاغوت.

---

(1) المنهاج النبوي، ص432.

(2) سورة الأنبياء:92.

وداخل السجن القطري يصادف جند الله ألوانا من العنت، فلا يجد متنفسا إلا خنقوه، ولا يبدأ مشروعا إلا حاولوا إحباطه، ولا يبرز رجال صادقون إلا عذبوا وشردوا وقتلوا تقتيلا"[1].

وقد تجلت صور التفرق فيما نراه من شتات في الأقطار تتوزع فيه الأمة قطعا متناثرة. وتمزيق في صفوف القطر الواحد بين المؤمنين، وحرب بين الجيران.

فهل يمكن أن نتخطى كل هذه التحديات في خطوة واحدة ؟

إن حاضر عالمنا اليوم يشهد تكتلات بشرية ضخمة؛ مثل الاتحاد الأوروبي الذي حقق وحدته، والجاهلية أمام مستقبلنا كتل. ونحن ننتمي إلى أمة الخيرية وطنها دار الإسلام ومجال رسالتها كل أرجاء المعمورة، أفلا ترتفع هممنا للاستجابة لنداء الحق جل وعلا لنتوحد ونعتصم بحبله المتين! لنكسب مناعة ضد التردي القطري التجزيئي، وضد الاستكبار، وضد التبذير والظلم، وضد الاستبداد في الحكم.

إننا الأمة المسلمة المستضعفة ما زالت تعاني من السجن القطري ومن الحواجز المادية، التي وضعها حكام الجبر، وهذا شاهد على الضآلة التاريخية التي هوت فيها، شاهد على هامشيتنا في مأدبة اللئام.

فكل هذه العقبات التي تعترض طريق توحيد الأمة، لا يمكن النهوض إليها إلا بتعبئة تنفخ فيه روح طلب الشهادة في سبيل الله، وحب لقاء الله، واقتحام العقبة إلى الله بالتخلص من مرض الغثائية، وبالإعراض عن زنة الدنيا، وبإرادة لها غاية كبرى ترجو الله واليوم الآخر.

فوحدة الأمة المتشتتة هدفنا بل أفقنا. فلا مكان اليوم وغدا في ربوع الأرض لكيانات هزيلة ضعيفة، ومفتقرة مريضة. ولا رسالة لقوميات-أكل عليها الدهر وشرب- محصورة في قمقمها كما تحصر العفاريت.

أضف إلى ذلك العطب الفادح الذي أصاب الأمة المسلمة من جراء الاستدمار - الاستعمار-الذي أدى إقرار التجزئة في الواقع السياسي بين أبنائها، "وترسيخ الوعي

(1) المنهاج النبوي، ص432-433.

التجزيئي في العقول والنفوس، وتمكين البنية التجزيئية في أرض الاقتصاد والإدارة، مشدودة إلى النظام الاستعماري الرأسمالي بأمراس من الفولاذ. كل قطر في إساره منعزل معزول مغلول محدود بحدود جغرافية سياسية وحدود نفسية وحدود اقتصادية، يرفرف فوق هذه الشظايا القطرية علَم قومي، ويغنيها أنغام الهزيمة التاريخية بنشيد وطني"[1].

وعلى هذا؛ فالعطب الأفدح من تشتيت الأرض وتمزيق الوحدة هو تجزئة الفكر وزحزحة الإيمان من قلوب المسلمين والهيمنة الثقافية التي صنعت وتصنع من أبناء هذه الأمة بدائل ونظائر للمستخرب المستدمر-يَخْلُفونه من بعد انسحابه-، على شكله قلبا وقالبا؛ في فكره وشعوره ونمط حياته وشُغل عمره، وعادته..

ولهذا فإن المصيبة لا تكمن في أن يحاربنا المستخرب بعساكره هو وسياسته هو وماله هو. لكن المصيبة تكمن في أن يحاربنا بعساكر من بني جلدتنا وبسياستنا ومالنا، وهذا عين المكر.

ومجمل القول: إن "الاجتماع من التفرق ووحدة الاعتصام بحبل الله، يرجع إلى رباط الألفة بين القلوب، وهو المحبة، وهو نور الإيمان يمن الله علينا ويجعلنا إخوانا. فلكي تستمر الألفة ولكي يستمر الاجتماع ينبغي أن يكون منا أمة يدعون إلى الخير ويسهرون على النظام. إن حبل الله يربط الأمة جميعا بالمحبة والذمة والطاعة، لكن يجب أن تكون أمة من الأمة، أي طائفة خاصة هم أهل الدعوة، يحافظون على الحبل المتين وعلى الألفة والأخوة والنظام. أمة خاصة من الأمة العامة هم النخبة، وهم أهل التطوع والإحسان"[2].

يقول الله تعالى مذكرا إيانا بنعمة الأخوة والوحدة والألفة: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[3]، التمسك بحبل الله المتين الممدود من سماء الوحي إلى أرض الواقع عصمة من التقطع، والسقوط في مهاوي التفرق والتشرذم، ومنعة عن التَّسَيُّب في "أصالة" قومية قبلية أو "معارضة" إيديولوجية يلتمس عندهما المتقطعون جامعا يلُمُّ شَعَثَهم الذي تفرق شذر مذر.

(1) العدل، ص224.
(2) الإسلام غدا، ص836.
(3) سورة آل عمران:103.

ففي "اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام"[1].

فالله تبارك وتعالى سمانا مسلمين ليذكرنا بوحدتنا ولم يسمنا شيعة أو سنة...، فربنا جل وعلا واحد، والنبي ﷺ واحد، وأمتنا واحدة، والدين واحد، والكتاب واحد، واللغة واحدة، والقبلة واحدة، فلماذا تمزقت وحدة الأمة! وتشتت صفها! وانفرم عقدها! وأُضرمت نار النُّعرات بين أبنائها!... وربنا الله جل جلاله يخاطبنا بقوله: ﴿لَن..مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[2].

وعلى ذلك، فإن أعظم عرقلة في وجه توحيد صف الأمة هي القومية النتنة والنُّعَرة القبلية وحمية الجاهلية أم الفتن التي مزقتنا وأوهنتا ولا تزال.

فالمسلمون "مهما افترقت أجناسهم، وتباينت لهجاتُهم يجمعهم الدين جمعا لا يجمع أمة غيرهم، ويزيل الفروق العميقة والأبعاد السحيقة بينهم ما لا يزيله شيء.

ولو كان في الإسلام أدنى أثر للأثرة الجنسية ما انتشرت شريعته في الأرض، ولا اتبعها الأحمر والأسود، ولا ضربت من المشرق وإلى المغرب، حتى ولا اجتمع عليها العرب أنفسُهم، الذين هم قبيلان متناظران متنافسان، قحطان وعدنان"[3].

فقوة المسلمين في وحدتهم واتحادهم. وتخاذلهم في تخالفهم وانشقاقهم. فالمطلوب منا أن نبذل الجهود لجمع الكلمة ولم الشتات، حتى نكون في مستوى أمة الخيرية.

---

(1) تفسير السعدي، ص141.
(2) سورة الحج: من الآية78.
(3) تاريخ الدولة العثمانية، شكيب أرسلان، ص525.

هذا والوحدة الإسلامية "حقيقة ثابتة. بمقتضى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فلا يعرف الإسلام الفرقة بالألوان أو بالعناصر والأجناس، أو باللغات والثقافات، وقد كانت حقيقة ثابتة في عهد النبي ﷺ، وعهد الراشدين، وما ولاه من العهود"[1].

وبذا اتضح أن " الرسالة المحمدية كانت للناس كافة لا لإقليم، ولا لجنس، ولا لفريق من الناس، بل كانت عامة في دعوتها، وعامة في هدايتها" [2].

والوحدة التي أقامها سيد الوجود ﷺ وحدة دعامتها الرئيسة الاعتصام بحبل الله تعالى وهو القرآن، ولذلك نجد القرآن الكريم عندما يخاطب العرب لا يخاطبهم ويناديهم بعنوان العرب، إنما يخاطبهم ويناديهم الناس بعنوان الناس والإيمان، ويدخل العرب فيهم، إذ ينادي المؤمنين بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}ويدخل في هذا العجم والعرب والفرس والروم وكل أجناس أهل الأرض إذا آمنوا بالله ﷻ.

ويمكننا أن نعبر عن أصل أمة الإسلام ووحدتها؛ بكونها "لها أصل واحد ترجع إليه، وأم واحدة في التاريخ هي الأمة المسلمة من لدن آدم فالأنبياء إلى خاتم الرسالة ﷺ. ولهم أم واحدة في المكان هي الأرض هي دار الإسلام. ولهم أم واحدة في المجال الروحي هي هذه الرحمة والرحِمُ بين المسلمين. ولهم أم واحدة في مجال التطلع إلى آفاق المستقبل هي موعود الله بالنصر لمن نصره، وباستخلاف المؤمنين الذين يعملون الصالحات في الأرض مهما استضعفوا. ولهم أم واحدة من حيث مصدر الهداية والبلاغ وتوجيهات العمل هي القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يلتفون حوله التفافا الفزع إلى ربه"[3].

وعليه، فنلمح من سياق الحديث عن الوحدة الإسلامية، أن "وحدة المسلمين فريضة، تحابهم فريضة، أخوتهم فريضة، تعاونهم مع بعضهم على الخير فريضة، ولاؤهم لبعضهم فريضة، عدم ولائهم للكافرين فريضة، هذه الفرائض كأنها أصبحت مباحات، فأبغض المسلمون بعضهم من أجل نافلة خلافية، وتفرقوا من أجل أمور بسيطة، وأعطى بعضهم ولاءه للكافرين، ومنعه من المؤمنين، وكأن هذا كله أمر عادي"[4].

(1) الوحدة الإسلامية، أبو زهرة، ص11.
(2) الوحدة الإسلامية، ص17.
(3) الإسلام غدا، ص100.
(4) جند الله ثقافة وأخلاقا، ص61.

ولهذا فإن وحدة أمة الإسلام من مقاصد الشريعة الإسلامية ومطالبها، بل هي أم المقاصد والمقصد الجامع، الذي غفل عنه علماء المقاصد أثناء حديثهم عن مقاصد الشريعة. أما في زماننا، "وقد نشبت فينا مخالب الجاهلية والأنياب، فنشعر بضرورة استعادة الوحدة شعورا عميقا. إنها مسألة حياة أو موت. إنها أم المقاصد وشرط تحقيقها"[1].

فالحفاظ على مطالب الشريعة ومقاصدها من وحدة أمة الإسلام، وعدل، وشورى... إضافة إلى المقاصد الأخرى المبثوثة في كتب المقاصد والأصول، أمر ضروري وواجب حتمي، يجب بذل الجهود الجبارة لتحقيقها، والتماس السبل للوصول إليها، واقتحام العقبات لاسترجاعها.

هكذا فإن الوحدة الإسلامية أمرٌ شرعي، إسلامُنا مَحرومٌ حتى يجتمع شملُنا، ويجبر كسرنا، ونكون صفا مرصوصا، وأمة واحدة. إذ الوحدة في حق هذه الأمة مطلب شرعي ومكسب يجب التشمير على سواعد الجد لتحقيقه، وبذل المساعي والجهود وخوض المعارك مع القُوى المعاكسة المادية الخارجية والداخلية والنفسية والذاتية والعدوة المعترضة، والموسعة للنفرة بين أبناء الأمة، وللشقاق بين أقطارها.

فتبذير جهود الأمة، وتعميق جرحها، وتوسيع الشقة بين أبنائها ومكوناتها، عملية تجند لها أعداء الدين من قديم، وهم في عصرنا أكثر تجندا لها.

يقول القس سيمون:"إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التملص من السيطرة الأوربية، والتبشير [2] عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحوّل "بالتبشير" اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية"[3].

ويقول المنصر لورانس براون:"إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نعمة له. أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير.

---

(1) نظرات في الفقه والتاريخ، ياسين، ص59.

(2) أفضل استعمال كلمة "التنصير" التي تتناسب مع طموحات العدو وما يتشوفون إلى تحقيقه، بدل من كلمة "التبشير" التي لها دلالتها ومعانيها الخاصة.

(3) قادة الغرب يقولون: دمِّروا الإسلام وأبيدوا أهله، عبد الودود يوسف (جلال العالم)، ص51.

ويكمل حديثه: يجب أن يبقى العرب والمسلمون متفرقين، ليبقوا بلا قوة ولا تأثير"[1].

هكذا يُعبرون بهذا الخبث والحقد الأسود المتأجج الذي ملأ شغاف نفوسهم، يريدون أن يبق المسلمون دائما أذيالا لهم، كالنعاج التي تساق إلى مصيرها المحتوم.

والحاصل: أن مواجهة كل هذه التحديات، واقتحام العقبات، والتغلب على شرك الولاء لغير الإسلام... لا تكون مواجهة حقيقية إلا بتوحيد الإسلام، "و لا يمكن علاج القلوب المريضة المستجيبة للأنانيات المفرقة، والعصبيات الطاغوتية، والخلافات المذهبية، والسيادات الإقليمية، والعادات المحلية، والخصوصيات العرقية، إلا بتقوية الإيمان. ولا مطمح للأمة في استعادة هويتها وتثبيت وجودها في العالم إلا بتأليف القلوب، ذلك التأليف الذي لا تتحكم فيه الإرادة البشرية ولا تتصرف فيه الحيلة السياسية، وإنما يأتي نصرا من عند اللهﷻوتأييدا يتنزَّل بركات من سماء الفضل الإلهي على جماعة المؤمنين حين تتوجه القلوب إلى ربها مخلصة ضارعة، ﴿...هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[2]"[3].

ما هي السبل إذن، لتوحيد الأمة المسلمة؟ السبل كثيرة لكنها تستقي من معين واحد لها أصل واحد؛ هو علاج المرض الكلّي الذي أصاب الأمة الإسلامية منذ الانكسار التاريخي ذلك الانحراف الخطير في تاريخ الأمة، فأصبحت الأمة المسلمة كمًّا غثائيا.ذلك المرض –الكلي– الذي وصفه سيد الوجود ﷺ بأنه الوهْن؛ فعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَال:َقَالَ سيدنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ]"[4]. الوهْن حب الدنيا وكراهية الموت كما عرفه

(1) قادة الغرب يقولون، ص51.
(2) سورة الأنفال: من الآية62.
(3) الإحسان، 2/ 512–513.
(4) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على أهل الإسلام، ح4297. قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة: حديث صحيح.ح958، 2/ 647.

الحبيب الطبيب. حب الدنيا وكراهية الموت هو مرض الأمة المسلمة اليوم، وكل الأمراض التي نراها اليوم ما هي إلا أعراض لهذا المرض الدفين.

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا تلخيص عوامل الغثائية الذاتية-التي لهبت ظهر الأمة وما زالت- في أربعة أشياء لها فروع:

1- انهيار التربية على الإسلام.

2- قوة الولاء للقومية، والنُّعرة القبلية (أم الفتن).

3- استفحال الطبقية؛ (ما نعيشه اليوم خير دليل، أناس لا يجدون ما يسدون به رمقهم، وأناس يدخرون الأموال الطائلة في بنوك اليهود، وأمريكا الشيطان الأكبر...).

4- فساد الحكم؛ (غياب الشورى والعدل، والظلم والطيش والتهور، والترف، والاعتزاز بغير الله، والولاء لغير الإسلام،...).

وكل الأمراض التي نراها اليوم، هي أعراض لهذه العوامل الأربعة. لكن في مقابل ذلك بين لنا سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ أسباب الشفاء والبرء والصحة والتخلص من هذا المرض الخطير، وترك لنا صورا مشرقة ونموذجا ساطعا للوحدة الجامعة، نقرأها في سيرته العطرة، وفي التعايش الأخوي بين المهاجرين والأنصار، بعدما ولجوا باب الجهاد بالنفس والمال وغير ذلك، أي بعدما طهرتهم الصحبة النبوية والتربية النبوية من رجس القوميات والنُّعرات، أصبحوا إخوانا وعلى دين الله أعوانا.

ولن تعود لنا عزتنا وكرامتنا ووحدتنا إلا إذا سلكنا نفس المَهْيَع الذي سلكوه، فندنو من نموذجهم الأخوي الحي بالمدينة، ومن تلك الوحدة العضوية كالجسد الواحد التي حققوها بينهم ببركة صحبة نبيهم وتربيته ﷺ.

فلن نكون لاحقين بمن سبقنا بإيمان إلا إذا اقتفينا أثرهم، وتلقينا الخطاب القرآني بنية التنفيذ كما تلقوا، وكنا في مستوى الجهاد كما كانوا، وصبرنا وتحملنا الأذى كما صبروا وتحملوا.

من كان يظن أن انتصار الإسلام، وإعلاء كلمة الله، والتمكين لدين الله، يتحقق بدون مساعي متواصلة وجهود مبذولة، بدون تحمل للأذى والصبر على مشقات الطريق، بدون نفقة في سبيل الله، بدون موت في سبيل الله فإنما ضل الطريق الصحيح، وتمنى على الله الأماني.

وخلاصة القول: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ...وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1]، ويقول جل ثناؤه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾[2]، يخبر تعالى جل وعلا "أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته، أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق، فيما قاله، والضلال في قول غيره.

{ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، فهؤلاء سبقت لهم، سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم، فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم.

وقوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} أي: اقتضت حكمته، أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد، عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء"[3].

فإرادة الله ﷻ الكونيةُ غيرُ أمره الشرعي التكليفي. أمر الله الشرعي أن يكون الناس أمة واحدة يوحدهم دين الإسلام الذي جاء به رسل الله -عليهم السلام-، لكن قدره] الكوني أن لا يكونوا أمة واحدة، وأن ينفرط عقد وحدتهم، ويتفرق أمرهم، وأن يختلفوا

(1) سورة المائدة: من الآية48.
(2) سورة هود:118.
(3) تفسير السعدي، ص392.

ويتقطعوا زُبراً جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم وبما زاغوا عن هدي الكتاب وسمت النبوة، وعصوا ربهم، وتخلوا عن سنة نبيهم.

وبهذا؛ فالوحدة أساس القوة، والجماعة من التفرق رحمة من الله تبارك وتعالى وقدر مقدر منه سبحانه وتعالى. وهي في حقنا واجب شرعي، ومطلب إسلامي.

ولذا فلا يهولنا ما نراه من استفحال قوى الباطل وصولة دولة الملأ المستكبر، فإن نصر الله قريب من المحسنين. وإن الله وعد في كتابه الحكيم أن يستخلف المستضعفين ويورثهم أرضه إن هم آمنوا وعملوا الصالحات.

فليكن لنا يقين في أن الله ﷻ هو محرك الكون، المهيمن عليه، رب كل شيء ومليكه. وليكن لنا يقين فيما زفه إلينا نبيه الكريم ﷺ من بشائر كثيرة في انتصار الإسلام وظهوره في العالمين.

وخلاصة القول: الطريق إلى الوحدة والتوحد هو البرء من مرض الغثائية المتمثل في حب الدنيا وكراهية الموت، وتربية الأمة تربية إيمانية صحيحة على نور المنهاج النبوي، أما من يرى بأن طريق التوحيد هو القتال فقط أخطأ الطريق وزاد الطين بلة والجرح عمقا والنزيف استمرارا، قال الدكتور محمد خير هيكل:"فالمسلم الذي يقاتل من أجل القيام بواجب الوحدة بين البلاد الإسلامية إنما يقاتل من أجل الإسلام؛ لأن وجوب إقامة الوحدة هذه هو حكم من أحكام الإسلام، وبالتالي: فالقتال من أجل إقامته هو قتال من أجل كلمة الله عز وجل"[1].

لا نختلف مع الدكتور في وجوب إقامة الوحدة الإسلامية، لكن نختلف معه في الطريق إلى الوحدة، فهو يرى القتال هو السبيل، ونحن نرى عكس ذلك، فالقتال لا يجدي في شيء وإلا كانت الفتنة بين المسلمين، ولو كان هو المهيع الصحيح لسلكه سيد الوجود ﷺ بمكة، لكنه اختار طريقا أقصر وأيسر وهو التربية على الحب العالي والغالي الذي يجعل الفرد يفدي المحبوب بروحه ومهجته، فعندما يتربى أبناء الأمة تربية صحيحة يسحب البساط من تحت أقدام الظالمين، ويظهر نور الله في الأرض والموعود النبوي كما بشر بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

(1) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، 1/ 366.

الباب الحادي عشر: الجهاد القتالي[1]

نقصدبالجهاد القتالي[2] بذل الجهد عن طريق المدافعة أو القتال في حماية دار الإسلام ودعوة الإسلام، ودين الله ﷻ، وإزالة الحواجز والعقبات من طريق الدعوة الإسلامية حتى تبلغ كلمتها إلى العالم، وردع المعتدين ومنعهم عن الأذى والفساد.

هذا، ومن المعلوم أن الحرب في الإسلام ليست عدوانية، ولا استفزازية، ولا همجية، ولكنها للدفاع عن الدين والبلاد، "وإنقاذ المستضعفين من المسلمين في أي دولة كانت. وذلك أن الإسلام يعتبر بلاد المسلمين كلها داراً واحدةً وبلداً واحداً يجب حمايته والجهاد دونه إن كان دار عدل بيد المسلمين، ويجب استرداده إن كان مسلوبا، كما يعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة يجب الدفاع عنهم لاستنقاذ المستضعفين وحمايتهم في أي بلد أو دولة"[3].

والحاصل: أن الجهاد القتالي، كان "من أجل شيء واحد وواحد وفقط، وهو حمل الدعوة الإسلامية وإنقاذ شعوب العالم من حياة الشقاء والتعاسة. وإخراجهم من ذلك

---

(1) شرع الجهاد القتالي في أوائل السنة الثانية للهجرة. السيرة النبوية، محمد بن محمد أبو شهبة، 1/ 75-76.

(2) لقد بين علماؤنا وفقهاؤنا حكم هذا النوع من الجهاد، فمن المتفق عليه بين الأئمة أنه فرض كفاية، أما إذا نزل الأعداء الثغور واعتدت أيديهم إلى أواسط المعمور، وجاذبونا طرق الرفعة، وانتزعوا من أيدينا الوطن والبقعة، فلا يمترى في تعيين فرضه، ووجوب القيام لله تعالى في أرضه، والخطاب بذلك يعم الأمة، ويخص بالتعيين الأئمة، انظر حكم الجهاد القتالي الذي يدور حكمه بين فرض الكفاية وفرض عين: في هذه الكتب: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد، 1/ 380. المحلى بالآثار، لابن حزم الأندلسي، 7/ 291، أحكام القرآن، للشافعي، 2/ 30. الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، دراسة وتحليل: لحسن اليوبي، ص182-189. الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد، مخطوط بالخزانة العامة بالربط، تحت رقم: د91، ص55. تحفة الطلاب بشرح تحرير اللباب، زكريا الأنصاري الشافعي، ص371. التلقين في الفقه المالكي، القاضي عبد الوهاب البغدادي، ص180. فقه السنة، سيد سابق، ص754. إرشاد السالك إلى أشرف المسالك في فقه الإمام مالك، شهاب الدين عبد الرحمن المالكي البغدادي، ص64. الهداية في فروع الفقه الحنبلي، للكَلْوَذاني، 1/ 134، مسالك الدلالة في شرح مسائل الرسالة في فقه الإمام مالك= =لابن أبي زيد القيرواني، ص201. القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية، لابن جزي الغرناطي، ص167. المعونة على مذاهب عالم المدينة الإمام مالك بن أنس، عبد الوهاب البغدادي، 1/ 443. جامع الأمهات مختصر ابن الحاجب الفرعي، لابن الحاجب المالكي، ص134. المغني (ومعه الشرح الكبير على متن المقنع) على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن قدامة، 10/ 359. الأم، للشافعي، 4/ 176.

(3) منهج الإسلام في الحرب والسلم، عثمان جمعة ضميرية، ص129.

كله، إلى نور الإسلام، وضياء القرآن، وإلى العبادة الكاملة والطمأنينة الحقة، من تطبيق نظام الإسلام، ونشر عقيدته الصافية النقية"[1].

ولذلك، فإن الجهاد القتالي "الذي حبذه الإسلام..إنما هو قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا!

إن الجهاد الذي باركه الإسلام، وندب إليه، ورغب فيه.. إنما هو الجهاد في سبيل حرية الدعوة إلى الله، وإلى دينه، وإلى إقرار العدالة الاجتماعية، والعمل على إمتاع الإنسانية ورفاهيتها! "[2].

إن الجهاد القتالي في حقيقته، "الحصن الذي لابد منه، لحفظ هوية الأمة وكيانها، لا مندوحة عنه لنجاح مسعاها الذي كلفها به الله عز وجل، نحو إنشاء حضارة إنسانية عادلة، تكلأ الإنسان من ظلم أخيه الإنسان، وتقيه من الوقع في مغبات منجزاته العلمية والحضارية، تلك المغبات التي من شأنها أن تفسد وتشقي بدلا من أن تصلح وتسعد"[3].

ولا يخفى أن الإسلام أجاز الجهاد القتالي في حالتين اثنتين فقط؛ حالة الدفاع عن النفس وعن الدين وعن حرية العقيدة، قال الحق سبحانه وتعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[4].

وحالة دفع العدوان ورد اعتداء المعتدين [5]، ورفع الظلم عن المستضعفين، وإقامة العدل في الأرض. قال الله جل ذكره:﴿ ...فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[6]، وقال جل وعلا: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ

(1) الإسلام بين العلماء والحكام، عبد العزيز البدري، ص226-227.
(2) فلسفة الجهاد في الإسلام، السيد عبد الحافظ عبد ربه، ص200.
(3) الجهاد في الإسلام، ص225.
(4) سورة الحج:39-40.
(5) "على الرغم من أن الإسلام قد أباح القتال إلا أنه قد رد الاعتداء بالقدر اللازم دون مجازاة أو تنكيل". انظر: الإستراتجية العسكرية الإسلامية النظرية والتطبيق، محمد فرج، ص31.
(6) سورة البقرة: من الآية194.

ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1].

ولنا في سيدنا رسول الله ﷺ إسوة وقدوة في جهاده القتالي؛ حيث لم يكن صلوات ربي وسلامه عليه "في جميع غزواته وسراياه بادئا بالقتال، أو طالبا لدنيا، أو جامعا لمال، أو راغبا في زعامة، أو موسعا لحدود دولة أو مملكة، بل كل ذلك كان هداية للناس، وتحريرا للعقول، ورفعا للظلم، وربطا للناس برب العالمين، بأعلى أساليب العفة والشرف، والنبل مما جعل هذه الغزوات أنموذجا للتعامل الدولي في الحروب والأسارى"[2].

ومن تأمل في جهاده ﷺ القتالي يجد أنه لم يرفع سيفه إلا إذا اضطر إليه نصرة لكلمة الله ودفاعا عن دين الله وعن المستضعفين. وخير دليل على هذا أنه ﷺ لم يقتل بيده الشريفة إلا رجلا واحدا وهو أبي بن خلف يوم أحد، فما بُعث-عليه صلوات ربي وسلامه- للقتال، ولكن بُعث لتبليغ الرسالة وهداية الناس أجمعين، وما القتال إلا للدفاع عن الدعوة الإسلامية ورد الذين يقفون في وجهها بالعداء والكيد، وصدق ربنا تبارك وتعالى الذي خاطب نبيه وصفوة خلقه بقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[3].

وقد أريق في جميع الغزوات والسرايا والبعوث التي بعثها النبي ﷺ،-والتي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة، ودامت إلى السنة التاسعة للهجرة-"أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم تتجاوز قتلى كلها 1018 قتيلا من الفريقين[4]، وكانت حاقنة لدماء لا يعلم عددها إلا الله، عاصمة للنفوس وأغراض لا يحصيها إحصاء"[5]، باسطة الأمن والسلام والسكينة والطمأنينة في أرجاء الجزيرة العربية، فاتحة عهد السعادة في العالم.

وإذا قارنا هذه النتائج -مثلا- بقتلى الحربين العالميتين: الأولى (1914-1918م) والثانية الكبرى (1939-1945م)؛ نجد أن في الأولى بلغ ""[عدد المصابين 21.000.000]

(1) سورة البقرة: 190.
(2) العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، فاروق حمادة، ص172.
(3) سورة المائدة:67.
(4) من المسلمين 259 ومن الكفار 759.
(5) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، ص427.

[1] عدد المقتولين 6.400.000 نفس [2]، وفي الثانية بين 35.000.000 و60.000.000 نفس "[3].[وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب الأولى 10.000 جنيه، أما مجموع نفقاتها فيبلغ 37.000.000.000 جنيه، أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات 1.000.000][4].

ولم تخدم هاتان الحربان -كما يعلم الجميع- مصلحة إنسانية، ولم يستفد منهما العالم البشري في قليل أو كثير.

"وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى، والاضطهاد الكنسي إلى 12.000.000 نفس "[5]"[6].

ولهذا، فإن "كلمة الحرب إذا أطلقت في عصورنا ذكر معها الخراب والدمار، واستباحة الحرمات، ونشر الفساد والانحلال والانطلاق من كل الروابط الإنسانية، حتى إنه ليؤخذ بجرائرها الآمن في سربه والحامل لسيفه، ولكن حروب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كانت حروبا فاضلة تظلها التقوى، فلا يقتل إلا من يقاتل بنفسه أو بتدبيره، أما الزراع والعمال فلا تمتد إليهم يد بأذى"[7].

ومما يزيد الأمر وضوحا، أن حروب النبي ﷺ لم تكن للاستيلاء على الأراضي وقتل الأبرياء وسفك الدماء... بل كانت حروبا "دفاعية أو وقائية لمنع هجوم عليه أو على الإسلام، فلا خلاف أن مكة بدأت بمعاداته واضطهاده ومحاولة استئصاله، وتبعتها قبائل الجزيرة العربية، وعادوا ذلك"[8].

---

(1) هذه الزيادة من كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص291.
(2) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، نقلا عن دائرة المعارف البريطانية، ط/ 1974م، 19/ 966.
(3) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، نقلا عن دائرة المعارف البريطانية،، 19/ 1013.
(4) هذه الزيادة من كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص291، نقلا عن مقالة ل: E.H.Tawansend، نشرتها صحيفة هندو الانكليزية اليومية (31يناير1943م).
(5) السيرة النبوية، الندوي، نقلا عن: John Davenport: Apology For Muhammad and Quran
(6) السيرة النبوية، الندوي، ص429.
(7) تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة، ص48.
(8) الإسلام كبديل، مراد هوفمان، تعريب: عادل المعَلّم، ص149.

ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ إذا بعث جيشا أوصاه بتقوى الله وعدم الاعتداء... فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا وَقَالَ: [اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ-أَوْ خِلاَلٍ- أَيَّتَهَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمُ: ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَالتَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُوا كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ مَا يَجْرِى عَلَى الأَعْرَابِ، لَيْسَ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ حِصْنًا فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَاجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَمَ أَصْحَابِكَ، لأَنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلاَ تُنْزِلُوهُمْ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ أَوَ نحو هذا][1].

إن هذه الوصية الغالية تكتب بمداد من ذهب، وهي من مميزات وخصائص هذا الدين العظيم، الذي لا يقاتل ولا يغزو من أجل الدنيا، أو الاستكثار من الناس، أو توسيع مناطق نفوذه، وإنما يغزو ويجاهد من أجل الدعوة الإسلامية، وإنقاذ الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، واستجابة لأمر الله تعالى الذي أمر بحماية الدعوة ونشرها والدفاع عنها. قال رسول عمرو بن العاص[2]

(1) سنن الترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في وصية النبي ﷺ في القتال، ح1618. وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

(2) هو: عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بالتصغير بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي أمير مصر يكنى أبا عبد الله وأبا محمد أمه النابغة من بني عنزة بفتح المهملة والنون، أسلم قبل الفتح في صفر سنة ثمان وقيل بين الحديبية وخيبر. ولما أسلم كان النبي ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته وولاه غزاة ذات السلاسل وأمده بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح= = ثم استعمله على عمان فمات وهو أميرها، ثم كان من أمراء الأجناد في الجهاد بالشام في زمن عمر وهو الذي افتتح قنسرين وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية وولاه عمر فلسطين. عاش بعد عمر عشرين سنة". الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ترجمة رقم: 5886، 4/ 650.

عبادة بن الصامت[1] للمقوقس-في إحدى المعارك التي فاوض فيها المقوقس-:"وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدواً ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن اللهﷻقد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره، وشملة[2] يلتحفها؛ وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى، واقتصر على هذه بيده، ويبلغه ما كان في الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء؛ إنما النعيم والرخاء في الآخرة؛ بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه"[3].

فالقتال في الإسلام له أهداف سامية، وضوابطه راقية، ليست كأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها على مر التاريخ الطويل. القتال في سبيل الله. " لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغانم والمكاسب؛ ولا في سبيل الأسواق والخامات؛ ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس.. إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام، القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإقرار منهجه في الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام" [4].

وبهذا يتضح أنه " لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنة، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

---

(1) هو: عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو الوليد، وأمه قرة العين بنت عبادة بن نضلة بن العجلان شهد بدرا وقال بن سعد كان أحد النقباء بالعقبة، وشهد المشاهد كلها بعد بدر، هو أول من ولي قضاء فلسطين، وهو ممن جمع القرآن في عهد النبيﷺ، ومات بالرملة سنة أربع وثلاثين وكذا ذكره المدائني وفيها أرخه خليفة بن خياط وآخرون منهم من قال مات ببيت المقدس وأورده ابن عساكر في ترجمته أخبارا له مع معاوية تدل على أنه عاش بعد ولاية معاوية الخلافة وبذلك جزم الهيثم بن عدي وقيل إنه عاش إلى سنة خمس وأربعين. الإصابة، ترجمة رقم: 4500، 3/ 624.

(2) شملة: الشَّمْلة كساءٌ يُشْتَمَلُ به. مختار الصحاح، باب الشين مادة شمل ص156.

(3) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، للأتابكي، 1/ 18.

(4) في ظلال القرآن، سيد قطب، م1/ ج2/ 187.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا. وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

وليس هنالك من راية أخرى، أو هدف آخر، يجاهد في سبيله من يجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد، فيحق له وعد الله بالجنة. إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف. من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألا يلبسوا برايتهم راية، ولا يخلطوا بتصورهم تصوراً غريباً على طبيعة العقيدة.

لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا. العليا في النفس والضمير. والعليا في الخلق والسلوك. والعليا في الأوضاع والنظم. والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة. وما عدا هذا فليس لله. ولكن للشيطان. وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد"[1].

فعَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري ﷺقَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ [ﷺ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ][2].

وللإشارة فكلمة "في سبيل الله" وردت مرتبطة "بالجهاد" في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة.

وعليه، فإن القتال في الإسلام "يحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيدة العدالة المطلقة لجميع الناس، فإذا هي لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة لم تكن حربا إسلامية"[3] ولا جهادا إسلاميا.

والقتال لحماية الدعوة الإسلامية، وإزاحة العقبات من طريقها، هو ما تؤكده الغزوات والسرايا والبعوث النبوية بطرائق مختلفة من دوريات القتال، إلى التعقب إلى

(1) في ظلال القرآن، م6/ ج26/ 3288.
(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ح1904،
(3) دراسات إسلامية، سيد قطب، ص44.

التمويه، حتى قامت قواعد الإسلام بعد فتح مكة المشرفة، فانتقلت إلى مرحلة أخرى لإزالة كل ما يمتُّ للوثنية بصلة، فبعث النبي ﷺ سراياه وبعوثه من مكة لهدم ما تبقى من أنقاض الوثنية، فانطلقت كتائب الحق لهدم مناة والعزى، واللات وسواع، وذا الخَلَصَة، وغيرها من الطواغيت الوثنية والأصنام التي عبّدت من غير الله جل وعلا.

ثم انطلقت هذه السرايا والبعوث النبوية إلى ربوع الأرض في كافة أرجاء الجزيرة العربية، تبلغ رسالة الإسلام للناس وتزيل العقبات من طريق الدعوة الإسلامية.

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الجهاد القتالي أن نشير إلى أمر مهم؛ وهو أن "الجهاد القتالي، إن تعيَّن، لا يقيل من الجهاد السياسي قبله وبعده، ولربما كان الجهاد السياسي التربوي البنائي أصعب منالا وأشقى طريقا وأحوج إلى خصال الصبر الطويل والمرابطة المستمرة والرفق من القتال الذي تهوِّنُ ريح الشهادة وكرامات التأييد الإلهي فيه صبر ساعة وصبر الإصابة.

كلا الجهادين مِرْقاة إحسانية ومدرسة تربوية وامتحان يوشِّح القرآن وتوشح السنة صدور مستحقيه بأوسمة الفلاح الأبدي. وقد أصبح العالم كله يُبصر ويسمع تميُّز الجهاد الإسلامي بالمضاء والعزيمة والقوة"[1].

ومما سبق ذكره يمكن إجمال مراحل تشريع الجهاد القتالي وأهدافه وضوابطه القرآنية فيما يأتي:

أ) مراحل تشريع الجهاد القتالي:

إن من سنن الله تعالى في عباده "سنة التدرج"، ولهذا فقد أخذ بها النبي ﷺ واقتفى أثرها، سواء في دعوته بمكة حيث كانت الدعوة، سرا ثم تدرج وانتقل من الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية إلى طلب النصرة من القبائل والبحث عن سند اجتماعي للدعوة، كذلك التدرج في تصحيح العقيدة.

(1) الإحسان، 2/ 488-489.

أما في المدينة فقد كانت هذه السنة الإلهية جلية لاحبة في بناء الدولة والتربية، وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يسير ويتحرك وفق سنن الله الاجتماعية.

ومما يؤكد الأخذ بسنة التدرج؛ تشريع الجهاد القتالي الذي مر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الكف والإعراض والصفح وإعداد النفس قبل خوض المعارك

وذلك حتى تستطيع الفئة المؤمنة الثبات في ساحة القتال، فكان الحبيب المصطفى ﷺ يوصي أصحابه بالصبر والتؤدة، وعدم مواجهة الكفار والمشركين، قال الحق تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[1]. أي:"﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ على ما يناله من أذى الخلق { وَغَفَرَ } لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه"[2].

وقال عز من قائل: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[3].أي:" أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين"[4].

وقال جل ذكره: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[5] أي:" يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين

(1) سورة الشورى:43.
(2) تفسير السعدي، ص760.
(3) سورة الزخرف:88-89.
(4) تفسير السعدي، ص770.
(5) سورة الجاثية:14.

به، الذين لا يرجون أيام الله أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم، ثوابا جزيلا" [1].

وعن خباب بن الأرت ﷺقال: أَتَيْتُ النبي ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهْوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ، فَقَعَدَ وَهْوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: [لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِه مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِه، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِه، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِه، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ[2] مَا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ] [3].

كما اتجه النبي ﷺ في هذه المرحلة إلى تربية النفوس وتصحيح العقيدة وتنقيتها مما شابها من رذائل ومنكرات...، ولعل الحكمة في هذا مراعاة سنن التدرج؛ التي تؤتي ثمارها في كل وقت وحين بإذن ربها، ولو أُمروا بالقتل قبل أن يشتد عودهم وتصفو نفوسهم وهم قلة تكالب عليهم الأعداء من كل حدب وصوب لكان ذلك سببا للقضاء عليهم، ولهذا كان النبي ﷺ على وعي تام وإدراك بأهمية التخطيط والتؤدة واستقراء الأحداث ومراعاة سنة الله في حركاته.

المرحلة الثانية: الإذن بالقتال من غير إلزام

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [4].

أبيح لهم القتال دفاعا عن النفس، فبدأ النبي ﷺ بإرسال السرايا والخروج للغزوات؛ فكانت السرايا الأولى -وهي ثلاثة- في شهر رمضان وشوال وذي القعدة،

---

(1) تفسير السعدي، 776.

(2) حضرموت: اسمان مركبان، ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر النبي هود عليه السلام، وبقربها بئر بَرَهُوت، وبين حضرموت وصنعاء اثنان وسبعون فرسخا، وقيل مسيرة أحد عشر يوما. معجم البلدان، لياقوت الحموي، باب الحاء والضاد حرف الحاء 2/ 270.

(3) صحيح الإمام البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ح3852.

(4) سورة الحج: 39.

وبعدها بدأت الغزوات في السنة الثانية من الهجرة، فكانت أول غزواته؛ غزوة ودان[1] وغزوة العشيرة[2].

المرحلة الثالثة: فرض عليهم قتال من قاتلهم أو اعتدى عليهم أو وقف في طريق دعوتهم أو ظهر منه قصد العدوان ببينة ثابتة

قال الله جل ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾[3]. وقال جلت عظمته وتقدست كلماته: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[4].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[5]، أي:"شرك وصد عن سبيل الله، ويذعنوا لأحكام الإسلام، { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان"[6].

وبعد كل ذلك "أمر الله ﷻ المسلمين بقتال المشركين لصد عدوانهم، وإزالة الفتنة عن الناس حتى يستمعوا النداء الحق من غير عائق، وحتى يروا نظام الإسلام مطبقا

---

(1) ودان: موضع بين مكة والمدينة قرية جامعة من نواحي الفُرْع، بينها وبين هَرْشَى ستة أميال، وبينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال قريبة من الجحفة، وهي لضمرة وغفار وكنانة. معجم البلدان، باب الواو والدال وما يليهما، حرف الواو، 5/ 365.

(2) العشيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع. مراصد الاطلاع، 2/ 943. معجم البلدان، باب العين والشين حرف العين 4/ 127.

(3) سورة النساء:90-91.

(4) سورة البقرة:190.

(5) سورة الأنفال:39.

(6) تفسير السعدي، ص321.

ليعرفوا ما فيه من عدل وإصلاح لحياة البشر"[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾[2].وقد سبق أن فصلنا في هذه الآية في المبحث الأول من هذا الفصل وقمنا برد كل الشبهات التي أثيرت حولها، وكل الإشكالات التي وجهت إليها.

وعلى هذه المرحلة الأخيرة استقر أمر القتال في الإسلام، ولهذا كتب الصديق أبو بكر[3] ﷺ إلى أهل اليمن يحثهم على الجهاد في سبيل الله، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:" سلام عليكم. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والجهاد فريضة مفروضة والثواب عند الله عظيم، وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وقد حسنت نيتهم، وعظمت حسنتهم، فسارعوا إلى ما سارعوا إليه، ولتحسن نيتكم فيه فإنكم إلى إحدى الحسنيين إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، فإن الله تبارك وتعالى لم يرض من عباده القبول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق، ويقروا لحكم الكتاب، حفظ الله دينكم، وهدى قلوبكم، وزكى عملكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين" [4].

ومجمل القول: فلكل حالة من أحوال الأمة حكمها، يفرق فيها بين حال القوة وحال الاستضعاف، فيقرر فقهاؤنا الأفاضل وعلماؤنا الجلَّة لكل حال ولكل مرحلة ما يوافقها وفق سنة الله في التدرج كما رأينا في مراحل تشريع الجهاد القتالي.

---

(1) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص248.

(2) سورة التوبة:29.

(3) هو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التميمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة خليفة رسول الله ﷺ، أمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابنة عم أبيه، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر، وصحب النبي ﷺ قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به واستمر معه طول إقامته بمكة ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها إلى أن مات، وكانت الراية معه يوم تبوك وحج في الناس في حياة رسول الله ﷺ سنة تسع، واستقر خليفة في الأرض بعده ولقبه المسلمون خليفة رسول الله وقد أسلم أبوه وروى عن النبي ﷺ...وكانت وفاته يوم الإثنين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشر من الهجرة وهو بن ثلاث وستين سنة. الإصابة، ترجمة رقم: 4820، 4/ 169.

(4) تاريخ فتوح الشام، أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي، ص8. تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ابن عساكر، 1/ 129.

ب)أهداف الجهاد القتالي:

1- **حماية الدعوة وتأمين انتشارها:** لقوله تبارك وتعالى:﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[1].

فالإسلام " لا يعرف حرب العدوان، ولا يزاولها لبسط السلطان، وإنما هو يعتبرها تأمينا لدعوته، وإباحة لحرية الاعتقاد، ويتخذ منها حصنا يقيه اعتداء المعتدين، ويرد كيد الكائدين الغاشمين، ليبلغ للناس كلمة التوحيد التي جاء بها الرسول، الذي بعثه الله ليعيد ما تناساه الناس من التوحيد الذي جاء به الرسل السابقون، ويهدم الوثنية عند المشركين، فكل من يمنعه من تبليغ دعوته، ويحول بينه وبين نصح الناس، يجب قتاله، ليفسح الطريق أمام الدعوة"[2].

فالغرض الأصيل من القتال هو حماية الدعوة، "لذلك فإن الإسلام لا يَقْهر. ولا يُجبر امرأ على دين يرفضه. وعلى هذا فالحرية مكفولة في أحكام ودستور الإسلام. ولو صح قول بعضهم أن الإسلام سلَّ سيفا وفرض نفسه جبرا لما وجدنا شيئا اسمه "الجزية" أو "ذميون" فالجزية لغير المسلمين الذي لم يرضوا دخول الإسلام. ولم يجبرهم الإسلام على اعتناقه، إنهم في حرية تامة، عقائدهم ومعابدهم محترمة يطبقون أحكام دينهم فيما بينهم"[3].

2- **حماية دار الإسلام:** من أهداف الجهاد القتالي الدفاع لرد اعتداء المعتدين على أرض المسلمين، يقول الله جل جلاله: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾[4]، أي "هذا حث من الله لعباده المؤمنين وتهييج لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه، فقال: {وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ومع هذا فقد

(1) سورة البقرة:193

(2) الفن الحربي، عبد الرءوف عون، ص65.

(3) الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو الخليل، ص104.

(4) سورة النساء:75.

نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة.

ويدعون الله أن يجعل لهم وليًّا ونصيرًا يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال والذب عن عيلاتكم وأولادكم ومحارمكم، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا وأكبر فائدة، بحيث يكون من باب دفع الأعداء"[1].

3- **المحافظة على العهود والمواثيق**: فيجب الحفاظ عليها والالتزام بها وعدم التلاعب بها أو نقضها...فالعهود التي أبرمت في عهد النبي ﷺ سواء كانت مع قريش أم اليهود... نقضها أصحابها ونكثوها، فلذلك قاتلهم رسول الله ﷺ، فقاتل يهود قريظة وقريشا لما نقضوا عهودهم.

وفي قتال من نكث عهده يقول الحق سبحانه وتعالى:﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾[2]، أي "يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ} أي: نقضوها وحلوها، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم، أو نقصوكم، {وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ} أي: عابوه، وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن، ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم، ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

(1) تفسير السعدي، ص187.
(2) سورة التوبة: 13-14.

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين، ناكثين للعهد، لا يوثق منهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالكم إياهم ﴿يَنتَهُونَ﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه،ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف، التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم"[1].

4- **درء الفتنة ومنع البغي في الداخل والخارج**: كالردة والحرابة والبغي، كذلك إذا بغت فئة وخالفت جماعة المسلمين وأرادت الفساد في الأرض وجب قتالها حتى ترجع إلى أمر الله تعالى.

ففي الفتنة: "والفتنة أنواع، منها: ما يمارسه الكفار من تعذيب المستضعفين من المؤمنين وتضييق الخناق عليهم ليرتدوا عن دينهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[2].

ومنها: الأوضاع والأنظمة الكفرية وما ينتج عنها من فساد في شتى مجالات الحياة؛ فإن هذه من شأنها أن تفتن المسلم عن دينه، وبهذا فسر بعض السلف قوله تعالى:﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَلَا ..﴿١٩٣﴾﴾[3]"[4].

ففي الحرابة: يقول الله تعالى:﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾[5].

---

(1) تفسير السعدي، 330.
(2) سورة النساء:75.
(3) سورة البقرة: من الآية193.
(4) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص248.
(5) سورة المائدة:33.

وفي بغي فئة على فئة يقول عز اسمه: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

وفي الردة: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ][2].

وقد أثيرت مجموعة من الشبهات حول الردة، بكونها تمنع الإنسان من حرية الاعتقاد واختيار الدين الذي يريد... لكن الأمر ليس كما يرى هؤلاء المغربون، إن عقوبة الردة الهدف منها هو حماية انحلال الأمة-التي يريد لها الله تعالى أن تبقى موحدة. ويريد لها أعداء الدين أن تنحل وتتمزق وتتشتت-، والمحافظة على وحدتها وتماسكها، لأن الردة خيانة عظمى، وليست حقا في الاعتقاد كما يرى اللائيكيون من بني جلدتنا.

ومجمل القول: فإن جهاد النبي ﷺ القتالي كان وفق تلك الضوابط والأهداف، "فكل سرية أو بعث أو غزوة في زمن النبي ﷺ إنما كانت ردا على عدوان وانتقاما منه، أو دفعا لأذى، أو تنكيلا بناكث أو غادر، أو تأديبا لبغاة أشرار، أو ثأر لدم إسلامي، أو ضمانة لحرية الدعوة والاستجابة المهددتين أو المعطلتين بغيا وعدوانا.

ولا يمكن أن يكون وقع من النبي ﷺ نقض للمبادئ التي قررها القرآن وبلغها النبي بطبيعة الحال، والتي استمرت تترى في الآيات القرآنية في مختلف أدوار السيرة النبوية في عهديها إلى آخرها"[3].

وهكذا تقرر الشريعة الغراء، أن الجهاد القتالي في الإسلام ليس "طاقة مادية، وقوة عسكرية، وتحركا ماديا، ابتغاء النصر كيفما كان الأمر؛ إنه في الإسلام عبادة، يتطوع بها المسلم بدمه وماله، لنصرة دين الله، وترسيخ شرعه ونظامه في هذه الدنيا.

---

(1) سورة الحجرات:9.

(2) صحيح الإمام البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة، ح2622.

(3) سيرة الرسول ﷺ؛ صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية، محمد عيسى دروزة، 2/ 278-279.

ليس القصد في الجهاد الانتصار ولا الغلبة والسيطرة على مناطق النفوذ، ولا بسط السلطان على أكبر مساحات من الخامات؛ كلا القصد فيه مرضاة الله، بنشر دينه وتطبيق شرعه.

حينما يرقى المسلمون في جهادهم إلى هذا المستوى، يصبحون جديرين بنصر الله، وإنجاز وعده. والقوة المادية المجردة، لا غناء للإنسانية فيها، إن لم يصنعها الإيمان، ويفجرها اليقين، وتثبتها إشعاعات من روح الله"[1].

جـ)الضوابط القرآنية للجهاد القتالي:

إن نجاح الجهاد القتالي يتوقف على انضباطه بالضوابط القرآنية المذكورة في كتاب الله تعالى،وهي كالآتي:

1- **الإيمان بكل أركانه**: إن الإيمان بكل شروطه وأركانه هو عقيدة المؤمن السليمة المستمدة من وحي السماء، هي رابطته، وهي قومه، وهي أهله، وهي كل شيء، عليها يجتمع البشر، لا على ما تجتمع البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج كما نرى في الحضارة الغربية الغارقة في أوحال الشركيات...

إن الإيمان بكل أركانه أو العقيدة الصحيحة هي أهم ضابط للجهاد ودعامته الرئيسة؛ على ضوئها وفي مضمارها يخطط المجاهد لعمله وفق ما تحدده العقيدة في دائرتها لا خارجها. فالعقيدة أو الإيمان له ارتباط وثيق بالجهاد؛ ففي القرآن الكريم ما ذكر التحريض على الجهاد إلا سبقه ذكر الإيمان والهجرة إلى الله، قال الحق تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾[2].

وقال جل ثناؤه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾[3].

(1) صور وعبر من الجهاد النبوي بالمدينة، محمد فوزي فيض الله، ص181-182.
(2) سورة البقرة:218.
(3) سورة الأنفال:72.

وقال جل جلاله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[1].

وقال الحق سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

وقال الحق جلت عظمته وتقدست كلماته: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[3].

فنلاحظ في كل الآيات السابقة تلازم الإيمان والهجرة[4] والجهاد في سبيل الله[5]، وهي دعائم ثلاث بها يكمل إيمان المرء.

نعود-والعود أحمد- لحديثنا عن العقيدة الصحيحة، ولهذا فمنذ "لحظات الفجر الأولى، كانت العقيدة بالنسبة للإنسان المسلم والجماعة المسلمة بمثابة الدافع والهدف.. فهي تحركهم من الداخل بعطائها الدائم ومطالبها المستمرة، وهي تناديهم من الخارج ليتحركوا إلى الأهداف الكبيرة التي جاء بها هذا الدين لكي يجعل العالم يتحقق بها، فيكون عالما جديرا بالإنسان الذي كرمه الله".

فالأساس الأول لهذا الجهاد بكل أبوابه هو التوحيد الذي جاء به الإسلام ليعيد إليه صفاءه الأول، وليأخذ بيد الناس إلى ربهم، وليخرجهم من ظلمات الشركيات وكهوف

---

(1) سورة الأنفال: 74-75.

(2) سورة التوبة: 20.

(3) سورة الحجرات: 15.

(4) الهجرة المطلوبة منا اليوم؛ هي أن نهجر ما حرم الله تعالى علينا، أن نهاجر من الصحبة السيئة إلى الصحبة الصالحة، أن نفر من عذاب الله إلى رحمة الله، أن نهاجر أهواءنا وطموحاتنا إلى اتباع كتاب ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام وإلى شريعته الغراء.

(5) الجهاد المقصود ليس الجهاد القتالي فقط، بل الجهاد بمفهومه الشامل، الذي يعني: كل وسائل الحركة المتاحة وسط الأمة ابتداء من جهاد النفس وجهاد المال ثم جهاد الأعداء والخصوم بالحجة الدامغة... انتهاء بجهاد لبناء ما تهدم من كيان الأمة.

العقائد المنحرفة الضالة إلى نور التوحيد والعقيدة السليمة ليعبد الناس ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم ولا يجعلوا معه أندادا، يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[1] [2].

إنها أروع صورة للعقيدة الإسلامية الصحيحة التي بها اهتدى الناس إلى سبيل الرشاد، وبها تبوؤوا المكانة الرفيعة في العالم قبل أن يزيغوا عن جادة الصواب. إنها الطاقة الخالدة للمجاهدين في سبيل الله.

ولهذا، "فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل، وكرمته، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة: تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى التوحيد، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الأحجار والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون"[3].

إن العقيدة روح الجهاد، وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم من تخلف وصَغَار، ومن نكبة قاصمة لظهرها، وتَتَابُع[4] الخطوب عليها، يرجع كل ذلك إلى غيبة تلك الروح من جسد الأمة، فتضعضع ذلك الكيان، وأصبحت الأمة خائرة جامدة متوعكة مريضة.

إن الإرادة القوية التي تهدف إلى البناء هي التي خارت وضعفت، بسبب الداء العضال الذي أصابها؛ الداء الذي أكل أحشاء الأمة ونخر كيانها، فأصبحت قصعة توكل وتداعت عليها الأمم من صهيونية حاقدة وصليبية كافرة وعدو لا يرعى فيها إلًّا ولا ذمة، فنكل بها وأفنى قوتها، وأزال استقلالها، وفرق شملها، وزرع الشقاق في أرضها، ومزقها شر ممزق.

إن كل هذه الأدواء والأمراض التي نراها في مجتمعاتنا راجعة إلى اختلال العقيدة روح الجهاد في سبيل الله .

2- **وحدة الغاية**: إن الإيمان الكامل والعقيدة الصحيحة تستلزم أن تكون غاية المجاهدين واحدة؛ هي القتال في سبيل الله نصرة لدينه وحمايته لدعوة الإسلام، لا القتال للغنيمة

(1) سورة الإخلاص.
(2) حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، عماد الدين خليل، ص72.
(3) مدخل إلى الحضارة الإسلامية، عماد الدين خليل، ص18.
(4) تتابعت المصائب على فلان: "نقول تتايعت (بالياء) لأن التتابع مختص بالخير والصلاح، أما التتايع فهو مختص بالشر والمنكر". انظر: تقويم اللسانين (مخطوط)، أحمد حدادي.

ولا لسمعة ولا للدنيا، خروج لله وفي الله، يجاهدون كالبنيان المرصوص قلبا وقالبا. قال الحق جل ذكره:﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1]، أي:" ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه-كما يجب الجهاد في النفس- يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه"[2].

3- **الصف المرصوص**: لأهمية وحدة الصف في الانتصار جعل الله سبحانه وتعالى سورة قرآنية باسمه، وهي سورة (الصف). فالصف المعوج لا يحقق نصرا ولا عزا ولا عدلا، والصف المعوج موهن للعزائم، ممكن للعدو من الظفر ببغيته، ومبدد للقوى.

فالتحام الصفوف ماديا ومعنويا، والتحام الأجساد والقلوب، شرط ضروري في الجهاد القتالي.يقول الله تبارك وتعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ ﴾[3].

والأمة لن تحقق هدفها إلا حين يكون أبناؤها "كالبنيان المرصوص ولاءً لله، واعتصاما به، وكراهية للكفر وأهله، والظلم وأعوانه، يتحصنون من أسباب الاختراق والبيع الرخيص لشرف الدعوة، وكرامة الموقف والانضمام لفريق أعداء الإسلام الذين يكيدون له ويمكرون بدعاته"[4].

---

(1) سورة التوبة:41.

(2) تفسير السعدي، ص338.

(3) سورة الصف:4.

(4) "بين المداراة والمراءاة"، افتتاحية مجلة الفرقان الأردنية، إبراهيم زيد الكيلاني، السنة السابعة، العدد57، رمضان1427هـ-تشرين أول2006م، [6-7]، ص7.

4- **التوكل على الله والاعتماد عليه**: فلا يغتر المجاهدون بكثرتهم، ولا بإعدادهم، ولا يغتروا بأنفسهم، إذ الاغترار بالنفس والاعتقاد في الأسباب من أبرز عوامل الخذلان ومسبباته، فالنصر من عند الله، ينصر عباده المتوكلين عليه المعتمدين على تأييده ومدده، قال الله عز اسمه: ﴿ ...وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[1]، وقال الله جل ذكره: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[2].

ولنا في غزوة حنين[3] خير دليل على من اغتر بعدده وعدته، فقد "أعطى الله للمسلمين درسا قاسيا حينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم وعلى أنفسهم وعدتهم وعتادهم وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة"[4].

ففر جل ذلك الحشد الكبير ولم يبق مع النبي ﷺ إلا فئة قليلة ثابتة، متواكلة على الله تعالى، وتطهر الصف مما علق به من ضعاف النفوس الذين كانوا سببا لتأخر النصر، فلما فر من فر منهم، ولم تبق إلا فئة مجاهدة صادقة، خالصة، أنزل الله نصره عليها، ليبين لهم أن النصر من عنده، وأن عليهم أن يعدوا العدة، ويأخذوا بالأسباب، لا أن يعتقدوا فيها، بل يتوكلوا على مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، قال الحق جل وعلا: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[5].

5- **إعداد القوة**: وهي سنة إلهية في الأخذ بالأسباب، فلابد من إعداد القوة، والأخذ مما عند الأمم من علوم وتكنولوجيا وتطوير السلاح وغير ذلك من العوامل المادية التي تدخل في سنة إعداد القوة.

---

(1) سورة آل عمران: من الآية126.

(2) سورة آل عمران:160.

(3) حنين: هو واد قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا. معجم ما استعجم، 2/ 471. مراصد الاطلاع، كتاب الحاء 1/ 432. معجم البلدان، باب الحاء والنون حرف الحاء 2/ 313.

(4) الجهاد والنصر، عبد الحليم محمود، ص65.

(5) سورة التوبة:26.

وعليه، فواجب على أمة الجهاد أن تعد ما تستطيعه من قوة مادية لقتال أعدائها، قال الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

وإلى جانب الإعداد المادي، هناك أنواعا أخرى تندرج ضمن سنة الإعداد؛

أ)الإعداد التربوي: إن سنة الإعداد لا تقتصر على القوة المادية فقط، "وإنما تتضمنها وتتسع دائرتها فتشمل التعبئة الروحية.

ومما لا شك فيه أن التعبئة الروحية هي قوة واقعة نحو الثبات في لقاء العدو والإقدام في شجاعة نحو تحقيق النصر.

والتعبئة الروحية إنما تُثَبِّتُ دعائمها، وتؤتى ثمارها حينما يكون الهدف من الجهاد واضحا سافرا"[2].

هذا، و"ويتضمن الإعداد-التربوي والسلوكي- تقوية الصلة بالله عز وجل، وإخلاص النية له، والتقرب له بالطاعات، كما كان النبي ﷺ يربي أصحابه في مكة من صلاة الليل وذكر الله وتلاوة القرآن، والتربية على الزهد في الدنيا والتخفف منها، والتطلع إلى ما عند الله ﷻ من الجنة والرضوان" [3].

ب) الإعداد العلمي: إن الجهاد في سبيل الله لا يقوم على الجهل بشرع الله ودينه، وما أعده الله لمن يجاهد في سبيله، ويذود عن حمى سنة نبي المصطفى ﷺ، بل لابد ليكون الجهاد تاما وكاملا، أن يكون على بصيرة وعلى العلم والفقه بأحكامه وفضائله وغايته.

جـ) الإعداد المالي: القوة المادية "عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها على مر العصور مقهور لا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يُحَكم إليه.

(1) سورة الأنفال: 60.
(2) الجهاد والنصر، عبد الحليم محمود، ص62-63.
(3) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص46.

وليس معنى هذا جعل الدعوة شركة تجارية؛ لكنه ينبغي الاعتماد على الذات بموارد ثابتة؛ وهذا من النفرة التي أمرنا الله ﷻ بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين، والاستغناء عن مد يد الاستجداء" [1].

هـ) الإعداد العسكري: من سلاح وتدريب جنود...، ورباط الخيل إذ هو من أهم القوى الحربية، والمرابطة في الثغور.

عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: [﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ... ﴾[2] أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ][3].

وفي هذا الحديث الشريف " إشارة إلى الرمي بهذه القنابل والصواريخ الحالية، وأنها القوة الحقيقية لا غيرها من كثرة الجنود والأسلحة الخفيفة، فإن الرمي بهذه القنابل والصواريخ يكون بواسطة الطائرات، والدبابات البرية، والبواخر الحربية البحرية وغيرها مما لا تبقي ولا تذر، ويتولى شخص واحد أو اثنان... قتل الألوف من البشر وتدمير مدن بأتمها، فيجب على الدول الإسلامية -إن وجدت- أن ينافسوا الكفار في اتخاذ هذه الأسلحة المتطورة والمدمرة ويصنعوها بأيديهم ولا يكونوا عالة على غيرهم وذلك ليرهبوا بها أعداء الإسلام والدين من سائر الأمم والشعوب والأجناس، وأن يتدربوا على جميع الأسلحة الخفيفة والثقيلة وكل وسائل الحرب والجهاد"[4].

وعليه، "فعلى المسلم أن يُعد العُدة ويأخذ الأُهْبة، ويشهر سيف الحق وليقاوم الباطل، ويحمل معول التطهير، ليهدم صروح التأله في الأرض، ويثل عروش الطغيان والاستكبار ويرسي دعائم الحرية للعقائد كلها"[5].

---

(1) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص47.

(2) سورة الأنفال: من الآية60.

(3) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، ح4946. سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال، ح 3083. سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، ح2813.

(4) الجواهر واللآلئ المصنوعة في تفسير القرآن العظيم بالأحاديث الصحيحة المرفوعة، عبد الله التليدي، 1/ 382.

(5) شمول الإسلام، يوسف القرضاوي، ص99.

6- **طاعة القائد**: إن عاقبة العصيان وخيمة وجزاؤه فظيع، ذلك أن التنازع في الأمر وعصيان القائد أو الأمير، من أسباب الهزيمة الكبرى، وما وقع للمسلمين يوم أحد نتيجة مخالفة أمر قائدهم ﷺ درس بليغ للأمة المحمدية لتعض بنواجذها على الطاعة.

فغزوة أحد عبرة وتمحيص للمؤمنين ليعلموا قدر الطاعة واتباع أوامر النبوة، وأن لا يركنوا إلى الدنيا الفانية بل يطلبوا ما عند الله من النعيم المقيم والفوز الخالد، كما بينت لهم هذه الغزوة أن السنة الإلهية التي غفلوا عنها لا تحابي أحدا وليست طوع يد أحد، فما كانت لترحمهم لكونهم صحابة مؤمنين، فكيف ترحمنا ونحن مشتتين وممزقين قطعا وأشلاء!! وصدق الله الذي يخاطبنا معشر المسلمين بقول: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[1].

وإذا قارنا مخالفة أولئك الجنود القلة لأمر أميرهم وقائدهم بأخطاء ومخالفات المسلمين اليوم-الذين يزيد عددهم عن 1.3 مليار نسمة-، في جميع النواحي السياسية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية... لخُسفت بنا الأرض من جراء ما اكتسبت أيدينا. ومع ذلك لطف الله بهذه الأمة ولم يعجل لها العذاب لعلها تستيقظ من سباتها، وتنهض من كبوتها، وترجع إليه، فيرفعها مقاما عليا ويستخلفها كما استخلف من سبقها بإيمان ومكن لهم في الأرض.

ويكفي ما نعيشه في واقعنا المعاصر وما وصل إليه حال الأمة من التردي والارتكاس، وتكالب الأعداء عليها، وخيانة أبنائها...لنتيجة لتلك المخالفات.

إنه واقع تتقطع منه الكبد حسرة وأسًى، نقف من خلاله على مدى عدالة سنة الله في عباده، وأنه تبارك وتعالى لا يظلم أحدا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وصدق الله: ﴿ ...فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[2].

وعلى هذا، فإن العصيان والتنازع ليس من شيم حملة رسالة الجهاد ومن أخلاقهم، خاصة وأنهم يمثلون خير أمة أخرجت للناس. قال جل وعلا: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[3].

---

(1) سورة آل عمران:137.

(2) سورة النور: من الآية63.

(3) سورة آل عمران:132.

7- **الشورى**: لأهمية الشورى في الإسلام نجد القرآن الكريم يحض المسلمين عليها لما فيها من توحيد الكلمة والسلامة من الخلاف والتنازع، يقول الحق جل ذكره: ﴿ ...وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[1].

"شاورهم كان أمراً لا جدالَ لهُ والـــــرأيُ بالنُّـــصـــح دوَّارُ

والعزم من حضرة المختار مُحْتكمٌ إليه؛ إن قال: سيروا للوَغَى ساروا"[2]

ويقول الحق جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[3]، "{ وَأَمْرُهُمْ } الديني والدنيوي { شُورَى بَيْنَهُمْ } أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموما، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية"[4].

ولذلك فإن الشورى مبدأ عظيم من مبادئ الحكم الإسلامي، ولأهميته ومكانته سمى القرآن الكريم سورة باسمه وهي (سورة الشورى)، وقد طبق النبي ﷺ هذا المبدأ في غزوة بدر الكبرى قبل خوض المعركة، وأثناءها وبعدها، كتحديد مكان المعركة، وحيال الأسرى.

وطبق كذلك هذا المبدأ في غزوة أحد[5]، والخندق[6] وباقي الغزوات، كما أخذ برأي

(1) سورة آل عمران: من الآية159.
(2) قطوف (2)، ديوان شعر، قطف79، ص8.
(3) سورة الشورى:38.
(4) تفسير السعدي، ص759.
(5) انظر: المغازي النبوية، محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهري، ص76. محمد رسول الحرية، عبد الرحمن الشرقاوي، ص215-216.
(6) انظر: الشورى في معركة البناء، ص93-94.

أم المؤمنين أم سلمة[1] رضي الله عنها يوم الحديبية[2] بعد استشارتها[3].

هذا، ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان "هو القائد العام في المعركة، وكان مثال القائد الناجح، يستشير أصحابه، ويأخذ بالآراء السليمة، ويتقدم قواته عند الضرورة في القتال.. وتولد عن ذلك انضباط رائع في صفوف المسلمين، وتقيد كامل بالتعليمات، قابله انقسام في الرأي في صفوف جيش المشركين"[4].

إن الشورى هي الأصل لكل أمر جامع للمسلمين، "وإن الشورى تربي الشعور بالوحدة، وتحمل التبعة، وإنه بالشورى يحس كل واحد بحق الجماعة عليه، وحق الإسلام الذي أوجبه في غير شطط، ولا مجاوزة للحد، (...) فالشورى كتب الله فيها التوفيق. والاستبداد أيا كانت صورته كتب الله فيه إضعاف النفوس، وفساد المآل، ولا يمكن أن ينهض الاستبداد بأمر لا تنهض به الشورى"[5].

---

(1) هي: أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية أم المؤمنين؛ اسمها هند وقال أبو عمر يقال اسمها رملة وليس بشيء واسم أبيها حذيفة وقيل سهيل ويلقب زاد الركب، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية من بني فراس وكانت زوج بن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة فمات عنها، فتزوجها النبي ﷺ في جمادى الآخرة سنة أربع وقيل سنة ثلاث، وكانت ممن أسلم قديما هي وزوجها وهاجرا إلى الحبشة فولدت له سلمة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة فولدت له عمر ودرة وزينب.
قال الواقدي ماتت في شوال سنة تسع وخمسين وصلى عليها أبو هريرة وقال ابن حبان ماتت في آخر سنة إحدى وستين بعد ما جاءها نعي الحسين بن علي وقال بن أبي خيثمة توفيت في [إمارة] يزيد بن معاوية قلت وكانت [إمارته] في أواخر سنة ستين، وقال أبو نعيم ماتت سنة اثنتين وستين وهي من آخر أمهات المؤمنين موتا قلت بل هي آخرهن موتا". الإصابة في تمييز الصحابة، ترجمة رقم:12061، 8/ 221.

(2) الحديبية: هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. معجم البلدان، باب الحاء والدال حرف الحاء، 2/ 229.
وسميت الغزوة بالحديبية لأن قريشا منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية. المجتمع المدني في عصر النبوة، أكرم ضياء العمري، 2/ 127.

(3) انظر: السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، محب الدين الطبري، ص139. تراجم سيدات بيت النبوة رضي الله عنهن، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص275.

(4) قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، أحمد راتب عمروش، ص50.

(5) الوحدة الإسلامية، ص249.

وعن الحسن قال: "والله ما استشار قوم قط إلا هدوا لأفضل ما بحضرتهم ثم تلا: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[1]"[2].

8- **الذلة**: الذلة من صفات المؤمنين الخاشعين، ومن صفات الفئة المؤمنة المنصورة بالله المجاهدة في سبيل الله، قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[3]، فالله] جعل"الأشياء كامنة في أضدادها، فمن أراد العز والنصر فليتحقق بالذل والمسكنة، ومن أراد الغنى فليتحقق بالفقر، ومن أراد الرفعة فليتحقق بالضعة وإسقاط المنزلة، ومن أراد القوة فليتحقق بالضعف، وهكذا: تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه"[4].

وقال الحق جل في علاه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾[5]، أي "فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله- أعزة، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم"[6].

9- **شدة البأس في القتال**: وذلك لأن إظهار القوة، وشدة البأس ترعب العدو، وتملأ كيانه رعبا وهلعا، وذلك أنه متى وجد الخوف سبيل إلى قلوب المجاهدين انهارت قواهم، وثبطت عزائمهم، وفتحت منافذ الفرار والاستسلام للعدو.قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[7]، أي:

(1) سورة الشورى: من الآية38.
(2) الأدب المفرد، البخاري، باب المشورة، ح258، ص78.
(3) سورة آل عمران:123.
(4) البحر المديد، 1/ 367.
(5) سورة المائدة:54.
(6) تفسير السعدي، ص235.
(7) سورة الأنفال:57.

"فإما تصادفنهم وتظفرن بهم ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم، من وراءهم من الكفرة، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتباراً بهم واتعاظاً بحالهم"[1].

10- **الصبر والتقوى**: وعد الله تعالى الفئة المؤمنة، الصابرة الثابتة، بالنصر والظهور، قال الله سبحانه وتعالى:﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2]،وقال الحق جل وعلا: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾[3]، أي:"إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.{ فإن ذلك من عزم الأمور} أي: من الأمور التي يعزم عليها، وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية"[4].

وقال جل جلاله:﴿ مَعَ ..وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[5] وأي فضل للصبر أبلغ من إثبات معية الله مع الصابرين.

"وبالصَّبْرِ يُبْنَى كلُّ مجدٍ ويُرْتَقَى وبالصبر يَعْنُو كلُّ صَعْب من الأمر"[6].

وفي هذا الصدد أسوق وصية غالية من أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب

(1) تفسير الكشاف، ص 417.
(2) سورة آل عمران:125.
(3) سورة آل عمران:186.
(4) تفسير السعدي، ص160.
(5) سورة الأنفال: من الآية46.
(6) البيت لأحمد سحنون ذكره عبد الفتاح أبو غدة، في كتابه: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص15.

ﷺإلى قائد جيشه سعد بن أبي وقاص[1]ﷺ، الذي أرسله لفتح القادسية [2] يأمره ومن معه بتقوى الله وطاعته، يقول في الوصية: "أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل، لما عملوا بمساخط الله، كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم" [3].

فالصبر إذن،ضروري لكل تواق للمعالي يريد الوصل إلى هدفه وغايته، كما أن التقوى هي السلاح الأقوى، "وهي الزاد، وبها المعاد، زاد مبلغ، ومعاد مُنجِحٌ، دعا إليها أسمع داع، ووعاها خير واع فأسمع داعيها، وفاز واعيها"[4].

---

(1) هو: سعد بن مالك بن أهيب ويقال له بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري أبو إسحاق بن أبي وقاص، أحد العشرة وآخرهم موتا، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبي سفيان بن حرب بن أمية روى عن النبي ﷺ كثيرا روى عنه بنوه إبراهيم وعامر ومصعب وعمر ومحمد وعائشة ومن الصحابة عائشة وابن عباس وابن عمر وجابر بن سمرة ومن كبار التابعين سعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وقيس أي أبي حازم وعلقمة والأحنف وآخرون. وكان أحد الفرسان وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وهو أحد الستة أهل الشورى. وقال عمر إن أصابته الإمرة فذاك وإلا فليستعن به الوالي وكان رأس من فتح العراق وولي الكوفة لعمر وهو الذي بناها ثم عزل ووليها لعثمان وكان مجاب الدعوة مشهورا بذلك مات سنة إحدى وخمسين وقيل ست وقيل سبع وقيل ثمان والثاني أشهر وقد قيل إنه مات سنة خمس وقيل سنة أربع". الإصابة، ترجمة رقم: 3196، 3/ 73.

(2) القادسية: موضع شرقي نهر الفرات جنوبي الكوفة، على سيف الصحراء، جرت فيه معركة القادسية 14 هـ.

(3) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، 1/ 117.

(4) نهج البلاغة، ص301.

فتقوى الله ﷻ "مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل مَلَكَةٍ، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتنال الرغائب"[1].

ولله در القائل: "الصبر أجدرُ في الخطُوبِ وأليق والحزم أوفق بالنفوس وأرفق

والحرّ؛ يأبى أن يميل مع الهوى وبغير تقوى الله؛ لا يتعلق"[2].

11- **ذكر الله تعالى والثبات في الميدان وعدم تولية الأدبار**: إن الله تعالى أمرنا بالإكثار من ذكره عند لقاء العدو وأثناء القتال، فقال عز من قائل:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ ﴾[3]؛ "أراد إذا لقيتم فئةً من المشركين فاثبتوا. والثباتُ إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة، والتحقق بالله، وشهود الحادثات كلها منْهُ، فعند ذلك يستسلم الله، ويرضى بحكمه، ويتوقع منه حُسْنَ الإعانة، ولهذا أحالَهم على الذكر فقال: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾.

ويقال إنَّ جميعَ الخيراتِ في ثبات القلب، وبه تَبينُ أقدارُ الرجال، فإذا وَرَدَ على الإنسان خاطرٌ يزعجه أو هاجسٌ في نفسه يهيجه... فَمَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ تَوَقفَ ريثما تَتَبَيَّنُ له حقيقةُ الوارد، فيثبُتُ لكونه رابطَ الجأش، ساكنَ القلب، صافيَ اللُّب.. وهذا نعت الأكابر"[4].

ذلك أن الثبات في الميدان وذكر الله تعالى من طبيعته أنه يشل عزائم الأعداء ويفل من عدوانهم، ويُيئس العدو من النصر والظفر، وبذلك تنهار قواهم، ويفضلوا الفرار والنكوص على المقاومة والقتال.فأصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب، ولا يولون الأدبار، قال الله جلت عظمته:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾[5].

---

(1) المصدر نفسه، ص524.

(2) من قصيدة:"نفثة الوجد والغرام" لمحمد بن محمد المبارك الجزائري في رثائه للأمير عبد القادر الجزائري، من كتاب: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، محمد بن عبد القادر الجزائري، شرح تعليق: ممدوح حقي، 2/ 889.

(3) سورة الأنفال:45.

(4) تفسير القشيري، 2/ 317.

(5) سورة الأنفال:15-16.

ونلمح من هذه الآية الكريمة، أن الله تعالى يأمر "بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم"[1].

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ، قال النبي ﷺ: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ][2].

وعليه؛ فذكر الله تعالى والثبات في الميدان هما من أكبر الأسباب المعنوية أو الروحية للفلاح والفوز والانتصار في المعركة في الدنيا، ثم نيل الثواب الجزيل في الآخرة.

12- **اتقاء الأشر البطر ومراءاة الناس**: فالأشر[3] والبطر [4] من العراقيل التي تعرقل مسيرة المجاهدين، ومن العقبات الكبيرة في طريق النصر، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [5]. والآية الكريمة " نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغي وفخر"[6]؛ أي: لا تكونوا ككفار قريش الذين خرجوا إلى غزوة بدر الذين خرجوا من ديارهم "لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم. والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل اللّه من أراد سلوكه، {وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

---

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 2/ 319.

(2) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والمر بالصبر عند اللقاء، ح1742.

(3) الأشر: (أَشَرًا) فهو (أَشِرٌ) من باب تعب بَطِرَ وكفر النعمة فلم يشكرها. والأشر المتكبر.المصباح المنير، كتاب الألف مادَة أشر، ص14. التحفة القُلَيبية في حل الحمولية في غريب القرآن الكريم، موسى القُلَيبي العُمَري المالكي، ص32.

(4) البطر: الطُّغْيان عند النّعْمة وطُول الْغِنَى. النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، باب الباء مع الطاء، مادة: بطر.

(5) تفسير البغوي، 3/ 365-366.

(6) سورة الأنفال: 47.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصل لجنات النعيم"[1].

ولذلك كان النبي ﷺ يتعوذ من الأشر والبطر، ويعلم أمته كيف تتعوذ منهما، فعَنْ أَبي سَعيد الْخُدْري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِه إِلَى الصَّلاَة فَقَالَ:اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، فإني لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا وَلاَ بَطَرًا،وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً، وَخَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيذَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ- أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ][2].

فيتحصَّل من كل ما سبق ذكره من الضوابط؛ أن المستجمع لها من المستبعد جدا أن يصاب في وقت من أوقاته بالتخاذل أو الضعف أو الوهن، وذلك لأنه على يقين بأن الله معه وممده بعونه وحفظه، ووعده للصادقين المخلصين المجاهدين في سبيله حق، فهو منجز وعده وناصر لمن نصر دينه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾[3].

من أجل ذلك ترتفع روحانية المقاتلين في سبيل الله وقوتهم بنسبة ما وقر في قلوبهم من الإيمان والصبر والتقوى، والصدق مع الله، والثبات في ساحة الوغى، حتى يكون الواحد منهم كفؤاً للعشرة من العدو في الحد الأعلى، وكفؤاً لاثنين من العدو في الحد الأدنى، كما أخبر سبحانه وتعالى في سنته في الغلبة والانتصار:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن

(1) تفسير السعدي، ص322.

(2) سنن ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعة، باب المشي إلى الصلاة، ح778. قال المنذري: "رواه ابن ماجه بإسناد فيه مقال وحسنه شيخنا الحافظ أبو الحسن رحمه الله" الترغيب والترهيب، ح 2486، 2/ 304-305.

(3) سورة محمد:7.

يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1].

وخلاصة القول: إن الموت في سبيل الله "كالحياة في ظل شرع الله، أمر خطير. فلا نجاة إلا في اتباع المصطفى ﷺ في الحرص على تصحيح النية والاتجاه، وفي الاعتماد على الله تعالى قبل الاعتماد على العدد والعدد. ثم في تطبيق أحكام القتال والسلم لكيلا يكون قتالا جاهليا، ثم استيحاء الرجولة والشهادة والشجاعة التي برزت في صفوف المهاجرين والأنصار وفي شخص الرسول ﷺ"[2].

(1) سورة الأنفال: 65-66.

(2) المنهاج النبوي، ص442.

المبحث الرابع

بغية الأمجاد في غايات الجهاد

بغية الأمجاد في غايات الجهاد

1-تحقيق سنة الاستخلاف في الأرض:

إن لواء الجهاد في سبل الله ﷻ، حمله رسل الله -عليهم السلام- هادين مهتدين، ومبشرين ومنذرين، وتَعَاوَرَهُ من بعدهم أهل الخير والرشاد، الذين أعدوا الزاد، وأخذوا بيد العباد، وأصلحوا البلاد، ثم ذبلت كلمة الجهاد على شفاه أجيال الغثاء، الذي عاشوا تحت قهر السيوف ولهبت ظهورهم عصا الطواغيت والجبارين. وتعطلت سنة رسول الله ﷺ الذي جعل الجهاد ذروة سنام الإسلام، وبه يقام صرح العمران، فرضيت بعده النفوس بالصَّغَار والخناعة، والتقاعس عن الفريضة العظمى.

إن من على عينيه غشاوة الشك أنَّى أن يبصر تباشير الصباح، ومن في آذانهم وقر لا يغني فيهم النداء والصياح. شمس الإسلام در شعاعها، وقافلة الجهاد يتوالى سيرها وإسراعها. وعلى الطريق لابد من رفيق. في كتاب الله الهدى، وفي سنة رسوله ﷺ نفسي له الفدا.

وبتتبع سيرة الصحابة ﷺ نجدهم بعد التربية -جهاد النفس- التي تربوها على يد الحبيب الأكرم ﷺ، قاموا برفع راية الجهاد بأيديهم المتوضئة، وجباههم الساجدة، وأعينهم الدامعة، وألسنتهم الذاكرة، وأقدامهم المتورمة، وأجسادهم الخاشعة، فهموا وتدبروا حقا قوله جل ذكره: ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾[1]. ففازوا بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، أو الحسنيان معا، فصادقوا ما عاهدوا الله عليه ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[2].

(1) سورة النساء:74.
(2) سورة الأنعام:90.

وبهذا، فلا سبيل إلى تحقيق ما حققه أولئك الرجال الكبار رضي الله عنهم، من أهداف الجهاد وغاياته، ولا سبيل إلى استعادة ما فقدناه من عزة وكرامة وعمران أخوي إلا بالتخلق بما تخلقوا به والتحلي بما تحلوا به من صفات الخير والفضل، والسير على نهجهم، واقتفاء أثرهم، حتى يدركنا الله بفضله ويشملنا برحمته، وينصرنا نصرا عزيزا مؤزرا كما نصرهم وأعزهم ورفع شأنهم في الدنيا والآخرة، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[1].

ولا ريب أن ما آلت إليه بلاد المسلمين من التدهور والخراب وظهور الأعداء عليها... إلا بتقاعسها عن واجبها، وتركها لمنهاج نبيها ﷺ ومن سار عليه من بعده من الخلفاء الراشدين المهديين ﷺ، قال خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق:ﷺ "ألا وإنه لم يترك قوم الجهاد في سبيل اللهﷻإلا ضربهم الله بالذل"[2].

فبالجهاد في سبيل الله بمعناه الشامل-وليس السيف فقط كما فهمهم الجاهلون بتعاليم الإسلاح-، ينتشر نور الإسلام في الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله، ويتوج المسلمون آنئذ بإكليل الاستخلاف ووراثة الأرض.

لذلك جُعل "الهدف الأسمى من الجهاد هو إقامة مجتمع خير، يسوده القانون والنظام"[3]، والعمل على نشر دعوة الإسلام بين الناس؛ "آمنت بها أمة، ودعاها إيمانها بها إلى أن تسعى في نشرها وتعميمها على الناس، حبا للخير، وغيرة على بني الإنسان، وطاعة لله، وهي أيضا تمكين المؤمنين بها من إقامة الحق والعدل بين الناس والحكم بينهم بما أنزل الله والسعي في جلب الخير لهم، على حب ورحمة وإخاء.

---

(1) سورة التوبة:100.

(2) كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، محمد بن عمر بن واقد الواقدي، ص48.

(3) الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامي، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية (9)، أحمد شلبي، ص24.

هذه هي غاية الجهاد المقدس في أصول تعاليم الأديان الربانية كلها، وليست غايته الأساسية طلبا لثراء المؤمنين، أو رغبة بانتصارهم أو غلبتهم، أو سعيا وراء السلطان والعلو في الأرض، إلا أن تكون هذه الأمور وسيلة للغاية الأساسية"[1].

إن الجهاد في سبيل الله هو "جهاد لتحقيق الخير والسلام والسمو والعدل في المجتمعات، وسبيل الله طريقه، والطريق إلى الله لا يكون إلا عن طريق الخير والحب والتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان"[2].

ولا غَرو إذن، أن يكون "تبليغ الرسالة للناس كافة هو الغاية التي من أجلها بعث الله رسله للخلق، وحملها وراثة الدفاع عنها وتبليغها للأمة وللناس كافة"[3].

فالجهاد في سبيل الله "أساس ركين تقوم عليه الدعوة، يضاف إلى أسسها المعروفة في مصطلح الدعاة، بل يأتي الجهاد في قمتها وذروتها، بل لا تنجح الدعوة إلا به"[4].

ولذلك بالجهاد الشامل ندعو الناس لهداية الناس إلى طريق الهداية والحق، وإصلاح ما اعوج في حياتهم، وإقامة نظام الإسلام وحكم الله في الأرض والتمكين لدينه، وإعلاء كلمته لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى، والتحرر من كل العبودية لطواغيت الأرض ومن كل باطل، ومن كل ما يبعد الناس عن دينهم وشريعتهم.

ومن ثَمَّ فإن "ترك الجهاد يفوت مصالح عظيمة للمسلمين؛ منها الأجر والثواب والشهادة والمغنم والتربية الإيمانية التي لا تحصل بدون الجهاد ودفع شر الكفار وإذلالهم ورفع شأن المسلمين وإعزازهم وإدخال أناس في الإسلام. وفي الجملة فترك الجهاد يفوت سائر الأهداف النبيلة للجهاد"[5].

---

(1) أجنحة المكر الثلاثة، ص698-699.
(2) السيرة النبوية، مصطفى السباعي، ص124.
(3) المنهاج النبوي، ص450.
(4) في فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا: ركن الجهاد أو الركن الذي لا تحيا الأمة إلا به، علي عبد الحليم محمود، ص162.
(5) أهمية الجهاد، علي نفيع العلياني، ص253.

هـذا، ومـن المعلوم أن كل أبـواب الجهاد ما هي إلا وسائل لتحقيق الغاية الاستخلافية الـواردة في قوله عز شأنه:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]، هذه الغاية هي وسيلة لغاية أكبر هي تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى كما جاء في كتابه الحكيم وسنة نبيه الكريمﷺ، والسعي لنيل رضاه في الدنيا والآخرة.

ولذلك فإن الحديث عن الاستخلاف في الأرض، ونهضة الأمة من وهدتها، وإعادة عزتها وكرامتها ومجدها، والحديث عن مطلب العدل والشورى، وعن الأهداف الدنيوية، وعن الغاية الأخروية، لن تكون إلا شعارات زائفة، إن لم يشتد قلب الأمة باشتداد قلوب المؤمنين، على عزمة إيمانية، وإرادة ربانية، تتذلل أمامها العقبات وتنفتح أبواب الأرض والسماء.

ومن ثَّم "كان المقصد الأسمى من بعثة الخلاق العظيم سبحانه رسله إلى خلقه جليا مجتمعا كاملا متكاملا في الصحابة على عهد النبوة والخلافة على منهاج النبوة التي لم تدم أكثر من ثلاثين سنة بعد انتقال المصطفىﷺ إلى الرفيق الأعلى. كان ذلك المقصد الجليل جليا في العقول والقلوب والنيات والعمل الجهادي بجلاء القرآن ونصاعة بيانه وحيويته الدافقة. هذا المقصد هو أن يكون الدين كله لله، وأن لا تكون فتنة في الأرض، وأن يدخل الخلق جميعا في طاعة الله ليحققوا الغاية التي من أجلها وجد العالم، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[2] أمة واحدة تحمل رسالة العالمين تبلغها وتجاهد وتتوحد عليها وتحكم بمقتضاها"[3].

(1) سورة النور: 55.
(2) سورة الذريات: 56.
(3) نظرات في الفقه والتاريخ، ص57.

وبإجمال: فإن إيقاظ همم الأمة وشحذ ذممها وتوجيهها وجهة صحيحة تخدم الإسلام، ضرورة من الضروريات، على تحقيقها يتوقف نجاح العمل الإسلامي والانبعاث الإسلامي الجديد.

وصدق الله: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾[1].

2- عبادة الله تعالى ومحبته والسير لنيل رضاه:

إن غاية الجهاد في سبيل الله ليس تحقيق الغاية الاستخلافية؛ أي بناء المجتمع الإسلامي الأخوي، وتحقيق العدل والشورى، واسترجاع ما سلب من الأمة من حقوقها وبناء ما تهدم من كيانها فقط. بل "الغاية الاستخلافية" وسيلة لبلوغ الغاية الكبرى التي من أجلها خُلق الإنسان وهي "الغاية الإيمانية"؛ أي غاية ممهدة لغاية عظمى: ليعرف العبد ربه، ويسعى إلى تحقيق مرضاته ويتهيأ للقائه بعد الموت.

هذه الغاية الإيمانية هي رسالة لأنفسنا وللإنسان بأن يكون الله ﷻ"غاية كل فرد من العباد. أن يكون ابتغاء رضـاه، والسباق إلى مغفرته وجنته، والسير على مدارج الإيمان والإحسان لمعرفته، والوصول إليه، والنظر إلى وجهه الكريم، منطلق الإرادة، وحادي المصارعة وقبلة الرجاء. هذا معنى أن الإسلام دعوة إلى الله، دعوة إلى الاستسلام بين يديه، نحب لقاءه، ونطيع أمره، ونقبل حاكميته.

الغاية الإيمانية إذن، هي كلمة الإسلام، واقتراحه، وثمرته الموجهة لكل فرد. والأهداف الجماعية للأمة، من تحرر عن الجاهلية، ونجاح في الاقتصاد، وظهور في الأرض، شروط ضرورية ليسمع الإنسان تلك الكلمة، ويقبل ذلك الاقتراح، ويجني تلك الثمرة. فذلك السباق الذي عرضه الله على كل منا إلى مغفرته وجنته ورضاه والنظر إلى وجهه هو رسالة أمة الإسلام للعالم الشقي بحضارته المادية، المهدد بالعنف الجاهلي النووي، المتخبط

(1) سورة التوبة: 105.

بزعامة الجاهلية وكيدها وجهلها بالله في مشاكل تؤذن بسقوط الحضارة الغربية السائرة إلى أفول.

وصدق ربنا تبارك وتعالى القائل في كتابه الحكيم: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1]، ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ ﴾[2].

فتحقيق العبودية لله ﷻ، والتحرر الكلي من سلطان الهَوى هو الشرط الأول والضروري لتأهيل الفرد المؤمن للانخراط عن كفاءة في صف جند الله. وإن جندَ الله لا يكون جندا لله إلا إن سلمت القلوبُ فصَلَحت لتكون وِعاء لرحمة اللهﷻالجامعةِ المؤلفة.

(1) سورة آل عمران:133.
(2) سورة الإسراء:19.

فضائل الجهاد والاستشهاد

فضائل الجهاد والاستشهاد

إن الجهاد في سبيل الله نتائجه لاحبة ومُبصرة في الحياة الدنيا منتظرة في الدار الآخرة. وسنة الله ﷻ في تمييز الخبيث من الطيب "فرز في الدنيا للدنيا، وفرز في الآخرة للآخرة. جزاء الخبثاء في الدنيا الخزي وفي الآخرة هم ركام جهنم. وللطيبين إحدى الحسنيين، أو الحسنيان معا، دنيا وآخرة، عزة في الدنيا وكرامة في الجنة"[1].

ولذلك فإن الجهاد في سبيل الله تعالى "باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنَّتَهُ الوثيقة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشملةَ البلاء، ودُيِّث[2] بالصَّغَار والقَمَاءة[3] وضرب على قلبه بالأسدادِ[4]، وأُديل[5] الحق منه بتضييع الجهاد"[6].

والجهاد في سبيل الله تعالى "هو العطاء الذي لا ينقطع للثمن الذي بايعنا الله على أدائه نظير ما يدخره لنا في دار الجزاء"[7].

ومن ثَمَّ فلن "نصبح مستحقين لخلافة الله ورسوله في الأرض، إلا إن أصبحت غاية كل مجاهد من أهل الإيمان أن يموت في سبيل الله، وإلا إن نهضنا للجهاد المستميت في صف منتظم مرصوص يحب الله من يرصه وينصر إلى جنابه الكريم من يقاتل فيه ويبذل فيه

---

(1) سنة الله، ص167.

(2) دُيِّثَ بالصَّغَار: ذلل، وهو مديث. أساس البلاغة، حرف الدال مادة: ديث، ص 272.

(3) القماءة: قمأ هو صاغرٌ قميءٌ، وقد قمؤ قماءةً وقمأ قماً إذا ذلّ وصغر في الأعين. أساس البلاغة، (م،س)، حرف القاف مادة: قمأ ص702.

(4) الأسداد: ضُرِبَتْ عليه الأَرضُ بالأَسْداد: أَي سُدَّتْ عليه الطُّرْقُ وعَمِيَتْ عليه مَذَاهِبُهُ وواحد الأَسدادِ: سُدٌّ ومنه أُخذ السُّدُّ بمعنى ذَهابِ البَصَرِ. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، مادة: سدد.

(5) أديل: من الدولة، يُدالون علينا الإدالةُ الغَلَبة يقال أُدِيل لنا على أَعدائنا أَي نُصرْنا عليهم وكانت الدَّوْلة لنا والدَّوْلة الانتقال من حالَ الشدَّة إلى الرَّخاء. لسان العرب، مادة: دولَ.

(6) نهج البلاغة، ص140.

(7) الإسلام بين الدعوة والدولة، ص187.

المال والنفس. ذلك المؤمن المجاهد لن يكون إلا نتاج تربية، وذلك الصف لن ينتظم إلا إن كان المنهاج المنظم نبويا وهمة رجاله ربانية"[1]، فالتربية والربانية هي مقدمة الجهاد وشرطه ودعامته، وقوامه وروحه.

وملاك الأمر في الجهاد أنه فريضة من الله ﷻ على كل مسلم فريضة لازمة حازمة " لا مناص منها ولا مفر معها، ورغب فيه أعظم الترغيب، وأجزل ثواب المجاهدين والشهداء[2]، فلم يلحقهم في مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم ومن اقتدى بهم في جهادهم. ومنحهم من الامتيازات الروحية والعملية في الدنيا والآخرة ما لم يمنح سواهم، وجعل دماءهم الطاهرة الزكية عربون النصر في الدنيا وعنوان الفوز والفلاح في العقبى، وتوعد المخلفين القاعدين بأفظع العقوبات، ورماهم بأبشع النعوت والصفات ووبخهم على الجبن والقعود، ونعى عليهم الضعف والتخلف، وأعد لهم في الدنيا خزيا لا يرفع إلا إن جاهدوا، وفي الآخرة عذابا لا يفلتون منه ولو كان لهم مثل أحد ذهبا، واعتبر القعود والفرار كبيرة من أعظم الكبائر وإحدى السبع الموبقات المهلكات.

ولست تجد نظاما قديما أو حديثا دينيا أو مدنيا، عني بشأن الجهاد والجندية واستنفار الأمة، وحشدها كلها صفا واحدا للدفاع بكل قواها عن الحق، كما تجد ذلك في دين الإسلام وتعاليمه. وآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول العظيم ﷺ فياضة بكل المعاني السامية داعية بأفصح عبارة وأوضح أسلوب إلى الجهاد والقتال والجندية وتقوية وسائل الدفاع والكفاح بكل أنواعها من برية وبحرية وغيرها على كل الأحوال والمناسبات"[3].

وفي فضل الجهاد والاستشهاد أذكر مجموعة من الآيات الكريمة التي تبين لنا ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم:

---

(1) المنهاج النبوي، ص9.

(2) قال صديق القنوجي:"اعلم رزقك الله الشهادة وجعلك من أهل السعادة أن الشهيد مأخوذ من الشهادة لأنه مشهود بالجنة، أو من الشهود لأن ملائكة الرحمن تشهده وتبشره بالفوز العظيم والكرامة، أو لأنه يشهد أي يحضر عند ربه ويلقاه كما قال سبحانه:{بل أحياء عند ربهم يرزقون}(آل عمران:169)، ولا مانع من حمله على جميع المعاني وهي بحسب اللغة وفي الشرع من قتل في سبيل الله حتى قُتل لتكون كلمة الله هي العليا". العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ص182.

(3) مجموعة رسائل الإمام حسن البنا، ص263.

- الجهاد في سبيل الله تعالى مفتاح الخير وباب الفلاح: قال الحق جل وعلا: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ ﴾[1].

- الجهاد في سبيل الله تعالى سبيل الهداية: قال الخالق جلت حكمته:﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾[2].

- الجهاد في سبيل الله باب الشهادة، والشهادة ثوابها الجنة، والشهيد حي عند ربه: وقال الله تبارك وتعالى:﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ ﴾[3].

- المجاهد في سبيل الله أفضل من القاعد المتقاعس، له درجات عند الله وفضل عظيم: فالله تبارك وتعالى جعل الجهاد ذروة سنام الإسلام تشريفا له وإعظاما، وفضل المجاهدين على القاعدين من المؤمنين ولو كانوا سجدا وقياما، يقول ربنا العزيز:﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ ﴾[4]

- الجهاد مدرسة لفرز الصادق من المدعي: قال الحق جل في علاه: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١ ﴾[5].

وقال مولانا سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾[6].

---

(1) سورة التوبة:88.
(2) سورة العنكبوت:69.
(3) سورة آل عمران:169.
(4) سورة النساء:95.
(5) سورة محمد:31.
(6) سورة البقرة:218.

وقال عز اسمه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

- المجاهد في سبيل الله تعالى كمل إيمانه وغفرت له ذنوبه، وله عند ربه منزلة عظيمة: قال عزت عظمته: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[2].

وقال تقدست كلماته: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[3].

- الجهاد بيعة معقودة مع الله، ثمنها النجاة من عذاب الله ودخول الجنة: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[4].

و يقول الحق جل وعلا: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[5].

يسلط الشهيد سيد قطب بعض الأضواء على هذه الآية الكريمة أنقل نصه على طوله لما يحويه من العبر وكنوز الحكم. يقول رحمه الله: "إنه نص رهيب! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله؛ وعن حقيقة البيعة التي أعطوها- بإسلامهم- طوال الحياة. فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان.. وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق!

---

(1) سورة الحجرات:15.
(2) سورة الأنفال:74.
(3) سورة التوبة:20.
(4) سورة الصف:10-11.
(5) سورة التوبة:111.

حقيقة هذه البيعة- أو هذه المبايعة كما سماها الله كرماً منه وفضلاً وسماحة- أن الله- سبحانه- قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم؛ فلم يعد لهم منها شيء.. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله. لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا.. إنها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنة.. والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال.. والنهاية: هي النصر أو الاستشهاد..(...)

من بايع على هذا. من أمضى عقد الصفقة. من ارتضى الثمن ووفى. فهو المؤمن.. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا.. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال. ولكنه كرم هذا لإنسان فجعله مريداً؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها- حتى مع الله- وكرمه فقيده بعقوده وعهوده؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة:.. شر البهيمة.. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾[1].

كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة- بلا شك- ولكنها في عنق كل مؤمن- قادر عليها- لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه. ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون}.

عونك اللهم! فإن العقد رهيب.. وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم "مسلمين" في مشارق الأرض ومغاربها، قاعدون، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد. ولا يقتلون. ولا يقتلون. ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال!

(1) سورة الأنفال: 55-56.

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها.

{فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم}:استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله، وأخذ الجنة عوضاً وثمناً، كما وعد الله.. وما الذي فات؟ ما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ والله ما فاته شيء. فالنفس إلى موت، والمال إلى فوت. سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل سواه! والجنة كسب. كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذه الطريق أو ذاك!

ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله. ينتصر- إذ انتصر- لإعلاء كلمته، وتقرير دينه، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه. ويستشهد- إذا استشهد- في سبيله، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة. ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة- أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض، والإيمان ينتصر فيه على الألم، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب. كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة؛ وانتصار الإيمان فيه على الألم، وانتصار العقيدة فيه على الحياة.. فإذا أضيفت إلى ذلك كله.. الجنة.. فهو بيع يدعو إلى الاستبشار؛ وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال:﴿ ...فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[1].

وقال الحق جل ذكره:﴿ ...وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[2].

فالله جل وعلا بهذا يخبر بأن وعده للمجاهدين في سبيله "وعد ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن، فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى جعل وثيقة هذا الشراء في كتبه الثلاثة

(1) في ظلال القرآن، ج-3م11/ 1716-1718.
(2) سورة التوبة: من الآية111.

فقال: في التوراة والإنجيل والقرآن. والشراء واحد؟ قيل له: إن المشتري ثلاثة أشياء هي النفس والمال والروح. فهم مجاهدون بالأنفس وينفقون الأموال ويبذلون الأرواح. فلأجل هذا جعل الوثائق ثلاثا في ثلاثة كتب؛ فبذل النفس يورث الجنة، قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ مِن..﴿١١١﴾ ﴾[1]. وبذل المال يورث النصر والفتح، قال الله تعالى: ﴿ بَيْنَ..نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[2]، وبذل الروح يورث الحياة الباقية، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[3]"[4].

قال الشيخ القشيري[5]-رحمه الله- في تفسيره للآية التي سبق ذكرها من سورة التوبة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ...﴿١١١﴾ ﴾، قال: أنفسهم "ولم يقل قلوبهم؛ لأن النفس محل الآفات فجعل الجنة في مقابلتها، وجعل ثمن القلب أجلَّ من الجنة، وهو ما يخص به أولياءه في الجنة من عزيز رؤيته.

ويقال: النفس محل العيب والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره. ويقال: اشترى منهم نفوسهم فرهبوا على قلوبهم شكرا له حيث اشترى نفوسهم، وأما القلب فاستأثره قهرا، والقهر في سنة الأحباب أعز من الفضل"[6].

---

(1) سورة التوبة: من الآية111.

(2) سورة الصف: من الآية13.

(3) سورة آل عمران:169.

(4) كنز العباد في بيان فضائل الغزو والجهاد، أبو القاسم بن عبد العليم بن أبي القاسم بن عثمان بن إقبال، مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، القاهرة، رقم عام: 53395، رقم خاص: 1860، ص8.

(5) هو: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد، الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري. أحد العلماء بالشريعة والحقيقة. أخذ الطريقة عن الشيخ أبي علي الدقاق وأبي عبد الرحمن السلمي، ودرس الفقه على أبي بكر الطوسي حتى فرغ من التعليق وقرأ الكلام على أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الاسفرايبني وبرع في ذلك، وحج مع البيهقي وأبي محمد الجويني. قال ابن خلكان: صنف أبو القاسم التفسير الكبير، وهو أجود التفاسير، وصنف الرسالة في رجال الطريقة، وذكر له الذهبي مصنفات أخرى. ولد في ربيع الأول سنة 376 هـ، وتوفي في ربيع الآخر سنة 465هـ عن 89 سنة، ودفن إلى جانب أستاذه أي علي بالمدرسة". طبقات الشافعية، ترجمة رقم: 217، 1/ 254-255.

(6) تفسير القشيري، 3/ 64.

وفي هذا المضمار أسوق باقة عطرة من الأحاديث النبوية الشريفة، التي تبين لنا فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قِيلَ للنبي:ﷺ" مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: [لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ]. قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: [لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ]. وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: [مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ، لاَ يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ،حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى]" [1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : [إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ][2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:[تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِه، لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سبيلي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه! مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه! لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ] [3].

إن الله تبارك وتعالى "ضمن الرَّجعة والرِّضوان والغُفران لمن جاهد في سبيله ابتغاء مرضاته ونُصرةً لدينه، فإنَّ الله لا يقبلُ من الأعمالِ إلاَّ ما أريدَ به وجهُه"[4].

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، ح4869. كتاب الأربعين في الجهاد والمجاهدين، (من الأجزاء الحديثية) عفيف الدين أبي الفرج محمد بن عبد الرحمن المقرئ، ومعه كتاب الأربعين العشارية، لأبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ح1، ص21.

(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، ح2790.

(3) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ح4859.

(4) أحكام الجهاد وفضائله، عز الدين بن عبد السلام، تحقيق: إياد خالد الطباع، ص33.

وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: [أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ،لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا يَا رَبِّ! نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا][2].

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ][3].

إنها جوائز عظيمة كل جائزة خير من الدنيا وما فيها، مكافأة من أرحم الراحمين، وأعدل العادلين لمن بذل روحه في سبيل الله.

ويعضد ما أوردناه من الفضائل، أن الجهاد صفقة رابحة، وتجارة منجية من عذاب الله تعالى، والقعود خسارة وسبب للهلاك العظيم، وللجهاد ثمرات باهرة، ونتائج فاخرة، وخيرات ظاهرة، مثل رفع الدرجات والمقامات، ومغفرة الذنوب والزلات، ودخول الجنات، والنظر إلى الله تعالى خالق الأرض والسموات، إضافة إلى النصر والشهادة والحسنى وزيادة.

وعلى ما سبق؛ فإن الجهاد في سبيل الله من الصفات المميزة لهذه الأمة وطريقها نحو المعالي، وهو الإيمان العملي، الذي لا يكمل الدين إلا به.

---

(1) سورة آل عمران:169.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، ح4885.

(3) سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، ح2799. قال الشيخ الألباني المعلق على هذه الطبعة من الكتاب: حديث صحيح.

وصدق ربنا تبارك وتعالى القائل في محكم التنزيل يوبخ المتقاعدين عن الجهاد:﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].والقائل أيضا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

(1) سورة التوبة:24.

(2) سورة التوبة:38.

المبحث السادس

تحذير العباد من المحاذير
التي تعترض طريق الجهاد

تحذير العباد من المحاذير التي تعترض طريق الجهاد

بعد تتبع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الجهاد نستطيع أن نتبين أن غالب المحاذير التي تحول دون تحقيق الجهاد يمكن أن تدرج على وجه الإجمال في النقاط الأساسية الآتية:

1- الخلاف والتنازع.

2- عصيان القائد أو الأمير.

3- حب الدنيا.

4- الفشل والهزيمة المعنوية.

5- الغفلة عن الله

6- الاستعلاء بغير حق.

7- حب الرئاسة.

8- الاتكال على الأسباب الظاهرة.

9- العناصر المريضة.

10- القائد الجبار.

لنتحدث بشيء من التفصيل عن هذه المحاذير التي تعترض سبل الجهاد في سبيل الله.

أولًا: الخلاف والتنازع:

إن الخلاف والتنازع لا يعط ثمارا ولا يحقق نصرا ولا يرهب عدوا، فهو مرض خطير عاقبته سيئة ونتائجه وخيمة، ولهذا حذرنا الله تبارك وتعالى من هذا الجرثوم الخبيث، وقدم الأمر بطاعة الله ورسوله على النهي عنه، مما يجعلنا نلمح أن العاصم من هذا المرض الخطير هو الطاعة لله ﷻ ولرسوله الكريم ﷺ، هذه الطاعة التي تستلزم طاعة أمير رسول الله

أو خليفته فيما يأمر به من معروف أي في غير معصية الله تعالى، وطاعته في هذه الحالة في حقيقتها وجوهرها طاعة لله ولرسوله، قال جل ذكره: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

ويقول عز من قائل يقص علينا ما وقع يوم أحد من اختلاف وتنازع وسط المعركة لنعتبر ونتعظ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[2].

فلا أضر على المؤمنين المجاهدين من التنازع أو الاختلاف، ولهذا فكلما "أشجر بين المؤمنين خلاف، ونشب نزاع، وهبت رياح الهوى، وماجت مظلمات بحر الأنانية، فليعلم المؤمنون أن إيمانهم نقص بمقدار ما ابتعدوا عن الأخوة واللين بينهم.

الولاية بين المؤمنين قرب وتحاب وتناصر، والخلاف الغضبي بعد ووحشة وتخريب للأخوة المؤلفة والطاعة الجامعة"[3].

ومن ثم فإن "الموافقة بين المسلمين أصل الدين. وأول الفساد ورأس الزلل الاختلاف. وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة"[4].

بيد أن رسالة الإسلام "لن تؤتي أكلها طيبة يانعة إلا إذا كان من ورائها نظام كامل يشد من أزرها، ويمهد السبيل أمامها، ويظلها بظله"[5].

ولهذا فطن الأعداء إلى أهمية الوحدة، فأخذوا يتوحدون "خشية الاستضعاف ويتكتلون رجاء الانتصاف ويواجهون أعداءهم الأقوياء بمثل قوتهم وبما هو أكثر منها،

(1) سورة الأنفال:46.
(2) سورة آل عمران:152.
(3) المنهاج النبوي، ص103-104.
(4) تفسير القشيري، 2/ 318.
(5) نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية، محمد عمارة، ص239 بتصرف.

ولكن المسلمين لا يزالون في غمرتهم ساهين، يتفرقون ولا يتوحدون، والأصل فيهم التوحد، ويتمزقون ولا يتكتلون، والأصل فيهم التكتل، كل وحدة من وحداتهم تؤول إلى وحدات، وكل دولة إلى دويلات، وكل جماعة إلى جماعات، وكل حزب إلى أحزاب، حتى ضيعوا قوتهم وأهلكوا أنفسهم، ومكنوا لأعدائهم بأيديهم"[1].

وقد استغل الأعداء هذا الشرخ الكبير في جسد الأمة، "فراحوا يبعثون من قبور التاريخ أسباب العداوة والبغضاء، وينفخون في نار قد خمد أوارها وانطفأ لهيبها، لأن أكثر هذه الأسباب قد أصبحت غير ذات موضوع، كل هذا لتبقى لهم الكلمة النافذة في بلاد الإسلام التي حباها الله بخيرات لا تكاد توجد في غيرها من بلاد الله"[2].

ويأتي في غضون حديثنا عن التمزق القاتل والخلاف المذموم، أننا "كلما أطلنا النظر في صفحات تاريخنا رأينا أن العنصر القوي في هذه الأمة، وخيرها، وانتصارها هو القلوب المجتمعة والأرواح المؤتلفة، والنفوس الصافية، وكلما نظرنا إلى تخلخل بناء الأمة رأينا أن المعول الأول الذي يعمل في هدم بنائها هو الفرقة والاختلاف والتعصب المذهبي، بدون تبصر، ومن غير رؤية، فإذا عاد إلى المسلمين رشدهم، وحرك الإيمان موات قلوبهم فألف بينهم عاد إلينا بناء الإسلام شامخا، فالحب والوحدة أساس القوة والعظمة... والخلاف والفرقة أساس الذل والهوان"[3].

وكلما توحدت أمة الإسلام انتصرت، وكلما تفرقت وتشتتت انهزمت وذلت، هذه هي سنة الله المطردة التي لا تحابي أحدا مع الأمة المحمدية التي أراد لها أن تبقى دائما وأبدا متحدة ومتماسكة كالجسد الواحد، لأنها الأمة الوحيدة التي تحمل نور الله في أرضه إلى يوم القيامة.

ولا يفوتني هنا أن أجمل الأسباب التي مزقت الأمة شيعا وقطعتها زُبرا وعمقت الخلاف بين أبنائها؛ فالسبب الرئيس يرجع إلى إفلات حبل الفطرة من يد المسلمين، وإلى ارتخاء أيديهم عن عروة القرآن، فالنبي ﷺ ربى أصحابه الجماعة الأولى على الأخوة والمحبة،

(1) الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، ص285.
(2) إسلام بلا مذاهب، مصطفى الشكعة، ص524.
(3) حديث الثلاثاء، حسن البنا، إعداد: أحمد عيسى عاشور، ص413.

"وألف الله ﷻ بين قلوبهم رحمة منه جُلَّى. ثم سار المسلمون على منهاج النبوة مع الخلافة الراشدة. ثم انتقضت العروة العليا من عُرا الإسلام، وهي عروة الحكم، بالانقضاض الأموي. فبدأ المسلمون يتمايزون عربا وموالي، عجما وفرسا. وتمزقت العقيدة القرآنية الموحدة في صدور الناس فظهرت الثلاث والسبعون فرقة. وتركبت على العصبية الطائفية أنظمة حكم حايدت الحكم العاض المركزي وقاتلته واحتوته"[1].

هذه مجمل مظاهر التشتت والفرقة في صف الأمة المسلمة وهذا موجز خبرها عن انفراط عقدها، والأمر القرآني موجه إلينا لنرص الصفوف، ونجمع الشمل، نقرأه بشارة في قوله جلت عظمته وتقدست كلمته: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[2].

وقد تحدثت في المبحث الثالث من هذا الكتاب عن أبواب الجهاد وذكرت من بين أبوابه جهاد التَّوحد، ففصلت فيه وبينت الحاجة الملحة إلى ضرورة الوحدة والصف المرصوص، وجمع الشمل والكلمة.

ثانيًا: عصيان القائد أو الأمير:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل غزوة أُحد عبرة وعظة على مر التاريخ، فقد سجل القرآن أحداثها بدقة وبصورة مشرقة، كان العامل البارز فيها هو الطاعة؛ لما خالف المسلمون أمر قائدهم ابتلوا ابتلاء شديدا وامتحنوا امتحانا عسيرا، فقد نزلت فيها الآيات الطوال فياضة بالعبر الغوالي، لما حدث يوم أحد، فكانت مخالفة أمر القائد سببًا لما حل بالمسلمين يومها؛ ورب ضارة نافعة، وربما صحت الأجسام بالعلل، ورب نقمة في طيها نعمة، إن ما حدث كان درسا خالدا سجله التاريخ، أن سنة الله لا تحابي أحدا ولو كانوا صحابة سيدنا رسول الله ﷺ، وأنى لأمتنا اليوم أن تصل إلى ما وصلوا إليه، يكفيهم أنهم فازوا بالصحبة المباشرة لسيدنا رسول الله ﷺ.فكيف تنتظر الأمة نصرا بلا اتخاذ الأسباب!

(1) سورة آل عمران:110.
(2) العدل، ص219.

وكيف تنتظر نصرا وهي مخالفة لأمر قائدها الأعظمﷺ في كل المجالات السياسية والاجتماعية الاقتصادية...!!

وجدير بنا أن نمعن النظر في غزوة أحد لنلاحظ أسباب ذلك الابتلاء الذي حل بالمسلمين يومذاك، السبب المباشر هو عصيان أوامر القائد ومخالفته؛ ويمكننا أن نجمل هذه المخالفات فيما يأتي: المخالفة الأولى كانت في المدينة، والثانية في الطريق، والثالثة أثناء القتال:

1-في المدينة المنورة: "كان رأي النبي ﷺ البقاء فيها، ولكن حماس من لم يشهد بدراً، ظهر عندما طبّق النبي ﷺ مبدأ الشورى، وكان من حقه ﷺ أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة الشورى، ولكنه أمضاه، وهو يدرك ما وراءه من الآلام والخسائر والتضحيات، لأن إقرار المبدأ وتعليم الجماعة، وتربية الأمة، أكبر من الخسائر الوقتية"[1].

2- في الطريق إلى المعركة:"ظهرت المخالفة في تغليب الاعتبارات الشخصية، أو الكرامة الفردية على العقيدة، عند زعيم المنافقين عبد الله بن أبي سلول، فزعزع وحدة الصف، وأحدث خلخلة في الموقف، وأحدث انسحابه هبوطا في درجات الروح المعنوية، حتى الأنصار استأذنوا حينئذ رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة"[2]، فرفض رسول الله ﷺ ذلك.

3- أثناء المعركة: كان ذلك العصيان لأمر القائد العامل الرئيس لذلك الامتحان العسير والابتلاء الكبير، والخطب الجليل الذي أصاب المسلمين، حيث أن المخالفة الأولى والثانية كانتا سببين ممهدين وغير مباشرين لما حل بهم، أما المخالفة الثالثة والكبرى فكانت السبب الرئيس للهزيمة في ميدان المعركة.

فما جرى في غزوة أُحد ناموس ثابت وسنة لا تتبدل ولا تتغير، فمن سنن النصر الرئيسة الطاعة، والرماة قد عصوا قائدهم وخالفوه[3]، فكانت خطيئة أفراد قليلين سببا

(1) عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، شوقي أبو الخليل، ص39.
(2) عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، ص39.
(3) وقد فصل في ذلك الحدث وفيما تضمنه من الدروس الكثير من العلماء في كتبهم، انظر مثلا: محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ص 222 وما بعدها. فقه السيرة، محمد الغزالي، ص 288. المنهاج النبوي، ص 107. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري بك، ص148، ظهور الإسلام وسيادة مبادئه، عبد الحميد بخيت، ص182.

لذلك الوبال العظيم وتلك المقتلة الكبيرة المليئة بالدروس والعبر، ولم يصب العقاب الذين خالفوا أمر قائدهم وأميرهم فقط، بل أصاب كافة المسلمين الذين حضروا المعركة، وصدق الله تعالى القائل في محكم التنزيل: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

فكان ذلك درسا لنا لنعلم أن لا نصر مع خرق شروطه، ولذلك أدرك الصحابة رضوان الله عليهم جميعا ذلك الدرس القاسي الذي أصيبوا فيه، من جراء مخالفتهم وعصيانهم لأميرهم وقائدهم، فما لبثوا أن سمعوا نداء الجهاد لملاحقة كفار قريش إلى حمراء الأسد إلا واستجابوا وسارعوا الخطى، رغم ما أصابهم من جروح وقروح.

ومما لا ريب فيه "أن الطاعة هي قوام النظام في كل جيوش العالم، وعلى أساسها يضع القائد خطته في المعركة ليحقق النصر، فإذا ما انعدمت الطاعة، فسدت الخطة، وصار الأمر فوضى وخسران.

وهذا ما حدث في أحد، فقد خالف الرماة أمر سول الله ﷺ وهو القائد الأعلى، وخرجوا على أميرهم عبد الله بن جبير[2] وهو قائد كتيبتهم، واندفعوا مع رغباتهم في حيازة الغنائم، ففسدت الخطة التي وضعها القائد، ورتب خطواتها على أساس الطاعة التامة من الجنود، فكانت مخالفة الجنود سببا في فساد الخطة"[3]. وبهذا الحدث أدرك المسلمون سنة من سنن الله في خلقه، أن للنصر أسبابا وللهزيمة أسبابا، فمن أسباب النصر طاعة القائد.

وما وقع يوم أُحد " لا يقدح فيهم رضي الله عنهم فالرماة ظنوا أن المعركة قد حسمت بعد أن رأوا سقوط راية الشرك وقتل حاملها ومعه نفر من زعماء قريش وأشرافها الأمر

---

(1) سورة الأنفال:25.

(2) هو: عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري أبو عبد الله وأبو صالح أخو خوات بن جبير، قال البخاري حديثه في أهل المدينة شهد العقبة وبدرا واستشهد بأحد وكان أمير الرماة يومئذ، ثبت ذكره في حديث البراء بن عازب في الصحيح وفيه أن المشركين لما انهزموا ذهبت الرماة ليأخذوا من الغنيمة فنهاهم عبد الله بن جبير فمضوا وتركوه. الإصابة، ترجمة رقم: 4585، 4/ 35.

(3) عوامل النصر والهزيمة، ص41-42.

الذي دفعهم للتخلي عن أماكنهم، لم يتخلوا جُبنا ولا فراراً من لقاء العدو، لذلك عفا الله تعالى عنهم"[1].

فكان الأمر "ابتلاء واختبارا للجماعة المؤمنة بأن يلتزموا أمر الله ورسوله دائما وألا تنصرف همتهم أبداً إلى الدنيا وزخرفها وقد وعى المؤمنون الدرس جيدا، فبعد أُحُد لم تحدث هزيمة أبداً طيلة عهد رسول الله ﷺ معهم"[2].

ومجمل القول: فإن مرض العصيان خاصة في وقت الضرورة والساعة الحرجة هو الوبال الكبير والطامة الكبرى. ولهذا فإن الطاعة معيار للإيمان، قال الحق جل جلاله: ﴿ ...وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾[3].

ثالثًا: حب الدنيا:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:[مَنْ أَشْرِبَ قَلْبَهُ حُبَّ الدُّنْيَا الْتَاطَ[4] مِنْهَا بِثَلاثٍ: شَقَاءٍ لا يَنْفَدُ عَنَاهُ، وَحِرْصٍ لا يَبْلُغُ غِنَاهُ، وَأَمَلٍ لا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ، فَالدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَتْهُ الآخِرَةُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَيَأْخُذَهُ، وَمَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ] [5].

فحب الدنيا أصل كل مصيبة ومذلة، فالراكض وراء سراب الدنيا، "والمنهزم باللذات المشتغل بإرضاء شهواته لا يفيد ولا يحمل أيضا مسؤولية الجهاد في سبيل الله. المُغْرَى بجمع الأموال والادخار شبيه بهؤلاء"[6].

---

(1) غزوات الرسول ﷺ، محمد متولي الشعراوي، ص117.
(2) غزوات الرسول ﷺ، الشعراوي، ص118.
(3) سورة الأنفال: من الآية1.
(4) التاط: أي التصق. انظر: أساس البلاغة، مادة: لوط، حرف اللام، ص773.
(5) المعجم الكبير، للطبراني، 10/ 162. قال أبو محمد عبد العظيم المنذري:"رواه الطبراني بإسناد حسن". الترغيب والترهيب، كتاب التوبة والزهد، 4/ 85.
(6) اقتحام العقبة، ص23.

والحاصل: أن "النفس تحب الدنيا وتكره الموت. وحبُّ الدنيا والحِرص عليها، على لذاتها المادية ورئاستها، سدٌّ حاجز للإيمان أن يدخل القلب، وسبب الغثائية، (...) وداع أبديٌّ للفُرقة والتفتُّتِ والخلاف العِدائيِّ"[1].

وهذا ما نراه اليوم، "حيث تزايد عدد المسلمين فأصبحوا يمثلون نحو ربع من سكان المعمور ولكن هذا الامتداد في الرقعة، وهذا التزايد في السكان، وهذه الثروات المتكاثرة، كل ذلك لم يفد الأمة الإسلامية في شيء، إذ أصبح المسلمون غثاء السيل، يساقون كالأنعام، ويتقرر مصيرهم في غير ديار الإسلام، وما النكبة التي حلت بالمسلمين باحتلال القدس الشريف، وتدنيس المسجد الأقصى إلا برهان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"[2].

ولهذا فإن الله تعالى جمع لنا في سياق آية من سورة آل عمران أربعة أمراض وأدواء مترابطة بعضها يغذي بعض؛ مما يكون سببا للهزيمة والوبال،قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[3].

هذه الأمراض كما هي مذكورة في الآية هي:

1 – الفشل.

2 –التنازع في الأمر.

3 – العصيان.

4 – حب الدنيا؛ أصل البلاء ومناطه، وسبب كل خطيئة.

---

(1) العدل، ص57.

(2) في سبيل مجتمع إسلامي توجيهات في الفكر والحياة، عبد القادر القادري، ص34.

(3) سورة آل عمران:152.

فلما توفرت هذه الأمراض في فئة قليلة يوم أُحُد، كانت سبب الهزيمة التي لحقت بالمسلمين آنذاك، ولو كان سيد الخلق وحبيب الحق -ﷺ- بينهم، ليدرك المسلمون، أن لا نصر مع خرق شروطه ودعائمه.

فدواء حب الدنيا؛ هو حب الله تعالى ورسوله والمؤمنين، وحب لقائه جل في علاه، والنظر إلى وجهه الكريم.

رابعًا: الفشل والهزيمة المعنوية:

الفشل والهزيمة مرض خطير، سببه كثرة الهواجس، والأنانية النفسية، ودواؤه ذكر الله تعالى والحضور معه في كل الأحوال، وقد أدرجه الله سبحانه وتعالى في سياق الأمراض الأربعة التي ذكرتها قبل قليل.

خامسًا: الغفلة عن الله تعالى:

يقول الله تبارك وتعالى يحذرنا من مغبة الغفلة عنه جل وعلا: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

ولذلك فإن المؤمن المجاهد عندما يذكر الله تعالى ولا يغفل عنه يأتيه النصر من كل مكان، ويمده الله بمدده. وعندما ينسى ربه، يوكله إلى نفسه، ويجعل تدميره في تدبيره. يقول الله تعالى يصف المنافقين: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2].

فضد الغفلة اليقظة، أي أن نستحضر الله تعالى وقدرته وحفظه، ومعيته، وما أعده للمتوكلين عليه الراجين رحمته وعونه ونصره، الذاكرين له في السراء والضراء، والمنشط والمكره.

---

(1) سورة الحشر: 19.
(2) سورة التوبة: 67.

سادسًا: الاستعلاء بغير حق:

الاستعلاء مرض، دواؤه الذلة على المؤمنين والتواضع لهم وخفض الجناح لهم، والابتعاد عن الأنانية الفردية،وبمعنى آخر نكون كما قال الله تعالى في أصحاب نبيه المجتبى ﷺ: ﴿ ...رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ... ﴾[1]، أو نكون من الذين أثبت لهم محبته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾[2].

وبهذا فإن الوصاية على الناس بغير حق والاستعلاء الخبيث، موهن للعزائم ومدعاة للشحناء والكراهية، فمن ديننا أن يوقر صغيرنا كبيرنا، ويرحم كبيرنا صغيرنا، "لكن الكبير إذا لم يكن في قلبه رحمة بها يرقب وجه الله في رعيته، وينتظر أن تصيبه بمحبته لهم رحمة من الله كفاء حسن رعايته، يوشك أن يكون طاغوتا مستبدا"[3].

سابعًا: حب الرئاسة:

إنه ليس هناك ضرر على قلب المرء ودينه من حبه الرئاسة والجاه، ولنا في تاريخ الأندلس دليل على ما ينتج عن هذا المرض من نتائج وخيمة وعواقب سيئة. لما دبت روح حب الرئاسة في قلوب أمراء المسلمين بالأندلس وتركوا أمر دينهم وراء ظهورهم، انقسموا إلى طوائف وتفرَّقوا شذَرَ مذَرَ، ففتك بهم عدوهم بما تشق له المرائر، وتفتت الأكبدة، وتقشعر من هوله الجلود والأبدان.

هذا ومن المعلوم، أن خطورة هذا المرض قد تصل إلى سفك الدماء، وانتهاك الحرمات، واتهام الأبرياء، وهذا ما وقع في تاريخ المسلمين، فكم من أخ قتل أخاه أو أباه أو عمه أو خاله...من أجل حطام الدنيا الفانية، وحرصا على مغرياتها الزائلة، وصفحات كتب التاريخ مليئة بذلك وشاهدة على خطورة هذا الداء العضال.

(1) سورة الفتح: من الآية29.
(2) سورة المائدة:54.
(3) المنهاج النبوي، ص109.

ثامنًا: الاتكال على الأسباب الظاهرة:

إن من سنن الله تعالى؛ سنة اتخاذ الأسباب، فأُمرنا باتخاذ الأسباب لا الاعتقاد في الأسباب، ولهذا "انهزم المسلمون في حنين، بسبب خلل أصاب النفوس، ألا وهو الإعجاب بالكثرة، ونسيان الله عز وجل. لقد تناست القلوب في حنين مسبب النصر، وأعجبت بالكثرة وأخذت بها، فكان الدرس القيم.

حنين.. أول معركة يجتمع فيها للمسلمين جيش عدده اثنا عشر ألفا، فأعجبتهم كثرتهم. لقد غفلوا عن مسبب النصر، عن منزل النصر، عن مثبت القلوب.. فأراهم الله ﷻ في أول المعركة نتيجة غفلتهم عنه، ثم نصر نبيه بقلة مؤمنة ثبتت معه، والتصقت به، وتفانت في الجهاد في سبيل الله، وفي نصرة رسول الله.

إن الإعجاب بالكثرة، هزيمة روحية، سبقت الهزيمة في ميدان المعركة" [1].

وهكذا فإن الاتكال على الأسباب الظاهرة مرض؛ دواؤه التوكل على الله عز وجل، والاعتماد عليه، مع إعطاء الأسباب حقها، "بإعداد ما استطعنا من قوة. وإنما الأسباب الظاهرة من وضع الله تعالى، فادعاء تخطيها رفض للعبودية المضروبة علينا وعلى كل البشر على سواء في هذا الميدان"[2]. فمن جَدّ وَجَدَ، ومن لَجَّ وَلَجَ، ومن سار على الدرب وصل.

تاسعًا: العناصر المريضة:

إن وجود المنافقين في صف المجاهدين لا مناص منه، وكتاب ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام مليئان بتحذيرنا من هذه العناصر المريضة، واجبنا أن نأخذ حذرنا منهم وإذا ظهر منهم ما يسوؤنا وجب أن نطهر صفوفنا منهم حتى لا يكونوا منفذا للهزيمة والوبال.

وهنا تجدر الإشارة إلى قصة طالوت التي تحدث عنها القرآن الكريم؛ إذ العبرة منها: أنه ما دام في الصف المسلم عناصر مريضة أو المنافقون فإن النصر مستبعد. لذلك لابد

(1) عوامل النصر والهزيمة، ص49.
(2) المنهاج النبوي، ص109.

من اختبار وامتحان حتى يتبين الصادق من الكاذب، وحتى يتم تمحيص العناصر المريضة في الصف المجاهد وفرزهم. وهذا ما وقع في القصة المذكورة؛ لما تم فرز المنافقين -وفق سنة التمييز-وبقي أهل الإيمان والثبات والصدق، رفرفت عليهم رايات النصر، وحفتهم أمداد الله بالرعاية والعون، يقول الله تعالى يقص علينا تلك القصة لنعتبر ونتعظ ونستنبط منها الدروس، لنأخذ حذرنا من تلك الفئة ونعمل ما في وسعنا لتطهير الصف منها: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾[1].

عاشرًا: القائد الجبار:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "[إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ]. قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: [إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ]"[2].

(1) سورة البقرة: 247-251.

(2) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه، فأتم الحديث ثم أجاب السائل، ح59/ وذكره في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، ح6497.

ويعلم الله ربنا الكريم ﷻ قصد نبيه المصطفى ﷺ بهذه الكلمة الجامعة. " لكن مما لا شك فيه أن ما يسمى في لغة العصر بعبادة الشخصية، أي تجبر القائد الأمير وتألهه، يؤذن بساعة هوي التنظيم إلى دركات الجاهلية.

سرعان ما تغلب النفس ومغريات الدنيا الأمير الذي وسد إليه الأمر وهو ليس من أهله، فيخلط ما بين شخصه ومصلحته وما بين كيان الجماعة والأمة ومصالحها، فيسبق شخصه ومصلحته الدنيا، ويسيء استعمال السلطة، ويتأله على الناس. وعندما يصبح بابا لإيواء الانتهازيين المستعدين لعبادته فيرفعهم ويقدمهم، ويؤخر الصالحين. وبعدها يصبح أمير الجماعة مرتعا للاستغلال"[1].

خطر ذلك لا حد له، وعواقبه لا تحمد، ومن تحته من جنده لا يستقيم له، والجهاد بدون إخلاص وخضوع لله تعالى والرحمة بخلقه ليس بجهاد.

وخلاصة المرام في هذا المقام: هذه مجمل المحاذير التي تعترض طريق الجهاد، وتكون سببا للدمار والبوار والخسران. أما الجهاد الحق فما كان لله وفي سبيله، وباتخاذ أسبابه المبثوثة في آيات الكتاب وأسفار السنة المطهرة.

(1) المنهاج النبوي، ص110-111.

المبحث السابع

الجهاد ومستقبل الأمة

الجهاد ومستقبل الأمة

في هذا المبحث أتحدث عن ثمار الجهاد، في واقعنا المعاصر، وأجمل ذلك في محورين:

الأول: حول الصحوة الإسلامية المباركة؛ التي كانت نتاج جهاد طويل المدى قام به الدعاة إلى الله منذ أمد بعيد، وها نحن نرى ثمار ذلك الجهاد الشامل اليوم.

والثاني: حول بشائر انتصار الإسلام ومستقبل الأمة الزاهر الذي يتحقق بولوج أبواب الجهاد كلها.

أولا: الصحوة الإسلامية:

إن الصحوة الإسلامية فجر جديد يراه أهل البصيرة مقتحما عقبة ليل طويل، أما الذين استمرؤوا الصَّغار فإن قلوبهم غلف، وآذانهم صم، وأعينهم عمي، ﴿...فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وإن الحقيقة التي لا تقبل التمويه مهما كانت الأمة تعاني من الضعف والاستضعاف، فإن الله جل وعلا "يبعث وهو المحيي المميت أملا جديدا في القلوب، وعزما أكيدا في الهمم. يلتئم علماء الدين وصالحوا المسلمين وكل ذي غيرة على دين سيدنا محمد ﷺ وملة سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ في رابطة تجمع الشمل وتنادي بالحق وتتعاقد على الوفاء لله ولرسوله بعهد التعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف وفعله والنهي عن المنكر وطرده"[2].

لقد أكرم الله تعالى هذه الأمة المحمدية في هذا الوقت الذي ادلهمت فيه ظلمات الكفر والضلال، بصحوة إسلامية مباركة، ليس في العالم العربي والإسلامي فقط، بل امتدت إلى العالم الغربي أيضا.

ومن توفيق الله جل جلاله لهذه الصحوة الإسلامية حملها لهذا الإسم الذي يحمل في طياته مؤشرات ومبشرات بمستقبل الإسلام، فهو من جانب لا يدعي أن الأمة قد ماتت

(1) سورة الحج: من الآية 46.
(2) العدل: الإسلاميون والحكم، ص577.

وخمدت فيها جذوة الحياة، بل الأمة-من جانب آخر- في نظر الصحوة الإسلامية لم تمت أبدا ولم تفقد إحساسها، وإنما غفلت وأصابها السبات العميق وخدر وعيها بالمرض الذي أصاب قلبها وهو:"داء الأمم" مما جعلها عرضة لكل هجين، ومستسلمة لكل فكر غريب.

"لقد جاءت الصحوة الإسلامية على قدر من الله ليخرج هذه الأمة من حالة الضياع التي تكتنفها وتجعلها غثاء كغثاء السيل إلى الاستقامة على الطريق، ومد الجذور مرة أخرى، والقيام بدور جديد في حياتها تنقذ به نفسها مما وقعت فيه من الذل والهوان والشتات والتيه وتطلق في الوقت ذاته بصيصا من النور للبشرية الحائرة لعلها تهتدي إلى الطريق" [1].

وعليه فالصحوة معناها اليقظة، وهذا ما يؤكده المدلول اللغوي؛"الصحو:ذهاب الغيم والسُّكر وترك الصبا والباطل" [2].

وإن ظهور هذه الصحوة المباركة التي تسعى لتعيد للأمة الثقة بشرعها ودينها، وتبشرها بمستقبلها المشرق، أقلقت أعداء الإسلام وأيقظت مضاجعهم في الداخل والخارج، لكن الله متم نوره، وناصر دينه، إن تولى قيادة هذه الصحوة الكبيرة مرشدون راشدون، ومربون مصلحون، من أهل الله الذين يتأسون بجهاد سيدنا رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ. وهذا ما تنتظره الأمة في ربوع الأرض كلها، ليصبح حزب الله هم الغالبون، ويصبح حزب الشيطان وأعوانه زبدا طائشا يلفظه بحر الأمة، وهشيما تذروه رياح الصحوة الميمونة.

وشباب الصحوة الإسلامية، "هم الثمار الطيبةُ لشجرة الإسلام المباركة، الذين يُقبلون على الإسلام بجدية، ويلتزمون به بصدق، ويجاهدون به الصليبيين واليهود، جهادا كبيرا مبرورا، ويقفون المواقف الإيمانية الجهادية العظيمة، التي يغيظون بها الكفار" [3].

إن "تيار الصحوة الإسلامية هو وحده القادر -إن تهيأت له الظروف- أن ينفخ في الأمة روح الحياة، وأن يمنحها من الحوافز والقدرات ما يعجز عنه أي تيار آخر، (...) ويمدها بالوقود اللازم في غدها الحافل بالمخاوف والآمال" [4].

---

(1) المعاصرة في إطار الأصالة، أنور الجندي، ص80.
(2) القاموس المحيط، فيرزوآبادي، مادة: صحا، فصل الصاد، ص 1308.
(3) وعود القرآن بالتمكين للإسلام، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص110.
(4) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، يوسف القرضاوي، ص226.

وإن ظهور هذه الصحوة التي أزعجت الأعداء، ما هي إلا تباشير بصبح قريب، وعهد جديد، ووعد البشير النذير، أن بعد العض والجبر خلافة ثانية على منهاجه المنير.

فبعد "النومة الطويلة أو الإغماءة الطويلة التي أصابت المسلمين في الأعصار الأخيرة، جاءت يقظة مرجوة الخير، وشرع العامة والخاصة يمسحون عيونهم، ويحركون أعضاءهم، ويعملون على استئناف المشوار العتيد" [1].

لقد كانت هذه الأمة الإسلامية رحمة وخيرا للعالم قبل أربعة عشر قرنا. وإن في الصحوة الإسلامية المباركة التي نعيشها اليوم في القرن الخامس عشر الهجري لبشارة عظمى بأن آخر هذه الأمة سائر على منهاج السابقين بإحسان من الأولين.

فبجود الله تعالى وكرمه ومن خزائن رحمته أظهر أجيال الصحوة المباركة التي تنبذ عبدة الطاغوت لتتوجه بقلوبها وآمالها إلى رب الأرض والسماوات.

تكون هذه الأجيال صنوا للنموذج الخالد الأول جيل الصحابة جيل القرآن، ومن أهل الخير والفلاح والنور، إن كان كل فرد من أفراد هذا الجيل-ذكرا أو أنثى- تمثلت فيه الرجولة التي تمثلت في السابقين الأولين، وقد وصفت آيات من سورة النور صفات الرجولة الكاملة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مِن .. يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [2].

رجال أهل مسجد وأهل تسبيح وذكر بالعشي والإبكار والغدو والآصال، وأهل صلاة وزكاة، وأهل خشية وخوف من الآخرة، وأهل رجاء في الله تعالى، وأهل ترقب لفضله وجوده ليزيدهم من فضله وكرمه.

(1) الطريق من هنا، محمد الغزالي، ص75.
(2) سورة النور:35-38.

فإذا تنكرت هذه الأجيال لهذه الصفات وهجرت المساجد، وغفلت عن ذكر الله وتسبيحه بالغدو والآصال، وغابت عنها التربية الصحيحة، فلن تكون تلك الرجولة التي تحدث عنها القرآن في الآيات السابقة.

إن المَهمة الأولى- بعد التربية – المنوطة بجيل الصحوة اليوم وغدا، أن يكون روحا سارية في الأمة موصولة بأجيال بعدها إلى آخر الزمان ترتفع همتها وتسمو روحانيتها الإحسانية جيلا بعد جيل، تنتشر في الأمة ويعم خيرها المجتمع.

وإن من شروط نجاح هذه الصحوة الإسلامية؛

1- القطيعة مع الماضي (الجاهلية) [1]، وإعادة التركيبة على منهاج سيد الوجود عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

2- توطيد العلاقة مع الله تعالى فرادى وجماعات.

---

(1) وردت لفظة "الجاهلية" في القرآن الكريم أربع مرات في أربع آيات تحيط بمفهومها وتجليه، جامعة وشاملة لمعانيها.

- الأولى: في قوله تعالى: ﴿ ...وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ قَدْ ..﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران: من الآية154).
- الثانية: في قوله عز من قائل:﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المائدة:50).
- والثالثة: في قوله جلت عظمته:﴿ ...وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ...﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحزاب: من الآية33).
- والأخيرة:﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ...﴿٢٦﴾ ﴾(الفتح).

إذاً، فللجاهلية أربع خصائص وردت في الآيات السابقة:

- الخصِّيصَة الأولى: "ظن الجاهلية": فراغ في العقيدة، وفقدان الثقة بالله جل وعلا، وجنوح عن الحَق، وغيرها من الأدواء.
- الخصيصة الثانية: "حكم الجاهلية": الاستبداد والطغيان والظلم والسَّفاء، والحكم بغير ما أنزل الله، والعض والجبر وبيع الذمم، وبيعة الإكراه.
- الخصيصة الثالثة: "تبرج الجاهلية": فالخصائص السابقة جاءت في صيغة الاستنكار. أما الخصيصة الثالثة "تبرج الجاهلية" فجاءت بنهي مباشر وخطاب مباشر، وهنا إشارة واضحة، إلى مكانة النساء ومَهمتهن في إصلاح المجتمع، فصلاح النساء هو القاعدة الأولى في بناء المجتمع الصالح، وهو المنطلق الضروري لاعتقال الجاهلية وسد منابعها وخنقها والقضاء عليها في مهدها.
- الخصيصة الأخيرة: "حمية الجاهلية" (أم الفتن)، النُّعرة القبلية، والعصبية، والعنف، والقومية، والتمالؤُ على الباطل، وهي فتنة عظيمة. وهذه نظرة موجزة حول معاني الجاهلية في القرآن الكريم.

3- الإخلاص لله وحده والتخلص من رق الدنيا واستعبادها.

4- التطهر من شوائب الفتنة ما ظهر منها وما بطن وداء الأمم.

5- التعلق بصاحب الرسالة العصماء سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه والمحبة الشديدة له.

وعليه؛ فإيماننا بالله تعالى وتطبيقنا لأركان الإيمان يتطلب منا:

أ) المطلب القلبي: إن أصل الجاهلية والفتنة و"داء الأمم" والغثائية وما ينتج عنه هذه الأدواء والأسواء إنما هو مرض القلوب وفسادها، فبصلاح القلب تصلح الأمة، وبفساده تفسد الأمة، لقول الحبيب المصطفى ﷺ في الحديث الذي رواه سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنه:[أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ] (1).

وصلاح القلب لا يكون إلا بالتربية الإيمانية الإحسانية، التي لها في كتاب الله تعالى وفي سنة سيدنا محمد ﷺ أصول وقواعد، فالقلب مكمن الداء، فإن سلم فهو مركز النور الذي يعيد للأمة انبعاثها ووجودها وعزتها وكرامتها.

ب) أن يصبح معظم أفراد الأمة قرآنيين وسنيين، عقيدة، وخطابا، وعملا صالحا في القلوب والعقول، ونظام الحكم وأجهزته، والقدرة على صناعة وسائل القوة، والقضاء على التخلف في كل ميادين الحياة، وتحقيق العدل، وتوزيع الأرزاق، وتدبير التكنولوجيا، وتحقيق كل مقومات الكرامة والتقدم والازدهار والرفاهية، والعطاء الثقافي والفني. ومواجهة كل التحديات.

وعليه؛ فوجب على أفراد الأمة أن يتمسكوا بالقرآن الكريم وسيرة سيدنا رسول الله ﷺ العطرة، فهما "قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت [قومة] عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة، منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقا على الجاهلية وسخطا على النظم الجائرة" (2).

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ح52، صحيح مسلم، كتاب المساقاة والمزارعة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ح1599.

(2) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أبو علي الحسن الندوي، ص384.

فالله جل وعلا جعل صلة المسلمين بإسلامهم هي الميزان الذي يوزن به تاريخهم، وجعل عزتهم وكرامتهم وتاريخهم المشرق مرتبطا تماما بقوة إسلامهم... ولهذا فإذا ضعف ارتباطهم بالإسلام، نزلوا عن القمة السامقة والدرجة الرفيعة والمكانة العالية، وارتكسوا في الصَّغَار والجبن والهوان، لا يعودون لمكانتهم ثانية إلا إذا عادوا إلى ذلك الارتباط القوي بالإسلام.

بقي أن نشير بإيجاز، أنه يجب على الصحوة الإسلامية أن "تراعي سنن الله في خلقه، وهي سنن ثابتة لا تتبدل، صارمة لا تجامل. فلا تلتمس حصادا بغير زرع، ولا تستعجل ثمرة قبل أوان نضجها، وتعلم أن لكل شيء في الكون قانونه المطرد، فمن صادم قوانين الكون صدمته، ومن غالبها غلبته، ومن عمل من خلالها مهتديا بهدي الله كان نصيبه الفلاح في الأولى والآخرة"[1].

نعمل وفق سنة الله في الجهاد إذن، ونتأسى بإمامنا وقِدوتنا سيدنا وسندنا محمد في الجهاد، ونأخذ للجهاد أُهْبَتَه، ونُعِدُّ له عدته، لنستحق النصر كما استحقه جند الله في القرون الخيرية الأولى، الذين عضوا على سنته بالنواجذ، وأسندوا ظهرهم إلى الله، وفزعوا إليه، وتحرروا بالمسارعة إلى الموت واقتحام حماها من عبودية لغير الله، فاستحقوا النصر والرحمة والتمكين: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾[2].

فلا نضق ذرعا فمن المحال دوام الحال، وأفضل العبادة انتظار الفرج، الأيام دول، والدهر قُلّب، والليالي حبالى، والغيب مستور، والحكيم كل يوم هو في شأن، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾[3].

وإن "يوم الخلاص لقريب. وإن الفجر ليبعث خيوطه. وإن النور سيتشقق به الأفق. ولن ينام هذا العالم الإسلامي بعد صحوته، ولن يموت هذا العالم الإسلامي بعد بعثته. ولو كان مقدرا له الموت لمات. ولن تموت العقيدة الحية التي قادته في كفاحه، لأنها روح الله، والله حي لا يموت" [4].

---

(1) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي، ص240-241.
(2) سورة غافر:51.
(3) سورة الشرح:5-6.
(4) في التاريخ.. فكرة ومنهاج، سيد قطب، ص10.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (1).

ثانيا: من الشكوى العاجزة إلى الوعود الناجزة:

إن ربنا تبارك وتعالى أخبرنا في القرآن الكريم عن السابقين بإحسان المقربين المحبوبين عنده ذوي الدرجات العُلى في مقعد الصدق. فهل نهضنا لطلب الزلفى لديه كما نهض من سبقنا بالإيمان ؟ هذا أعظم تحد مستقبلي بين يدينا. إن لم نستيقظ لهذه المَهمة المنوطة بنا، إن لم نشمر على ساعد الجد لنسلك سبل السلام لنيل الأوطار وبلوغ المرام، إن لم نقم لنقتحم إلى اللهﷻالعقبة، فالخبر صيحة في واد، ونفخة في رماد.

فبين يدينا تحد عظيم، يقول ربنا الكريم: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ (2).

ويقول عز من قائل: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (3).

نداء اللهﷻيُؤَيِّه بنا، وبشرى سيدنا رسول الله ﷺ تبشرنا بعودة الإسلام وانتشار الإسلام في العالمين، فهي وعد من الصادق المصدوق ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (4)، وهي كائنة بحول الله ﴿ ...ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾(5).

وبشرى أخرى عظيمة لكل تواق للمعالي، ساهر لليالي، يهتز لها كيان الإنسان، ويهتز لها كل ذي لب وشأن، تخبرنا أن لحبيبنا محمد ﷺ في آخر الزمان إخوانا، على دين الله أعوانا. ويسعى إليها بالصدق والإخلاص والجهاد المستمر من رفع الله تعالى همته

(1) سورة يوسف:110.
(2) سورة الحديد:21.
(3) سورة آل عمران:133.
(4) سورة النجم: الآيتان 3-4.
(5) سورة هود: من الآية65.

ليكون من الذين﴿ ...ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺأَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ ﷺ:"[السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا]. قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: [أَنْتُمْ أصحابي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ]. فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: [أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ[2] بُهْمٍ[3] أَلاَ يَعْرِفُ خَيْلَهُ]. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: [فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ،أَلاَ لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلاَ هَلُمَّ. فَيُقَالُ:إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا]" [4].

والحديث البُشرَى يفسر الآية الكريمة من سورة الحشر: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[5].

إن عالمنا اليوم وغدا" ينتظِر رَوْحَ الرحمة التي تنفس عنه كرْب الحضارة المادية الهائمة بلا غاية.الوسائل فيها تعملقت، وتعملق الاختراع والتكنولوجيا، وتقزم الإنسان، وأصبح دابة استهلاكية لا تعرف لنفسها معنى ولا لسعيها الحثيث على الأرض قرارا. الإنسانية تنتظر دين الله الحقَّ يَبْلُغُها خبرُه وسط ضوضاء العالم وجنونه، تنتظر وجه الربانيين تتوسم قسمات الآمال المكبوتة عليه فتستجيب الفطرة المردومةُ المطمورة لنداءِ الشاهدين بالقسط.

التحدي المستقبلي الثقيل في حق الدعوة هو حمل الرسالة لعالم متعطش. وزنُنا السياسي، ولو ثقُلَ بعد زوال وصمة الغثائية، لا يوازي وزننا الأخلاقي الروحي بوصفنا

(1) سورة المائدة: الآية 93.
(2) دهم:الدُّهْمَةُ السواد والأَدْهَمُ الأَسْود يكون في الخيل والإبل وغيرهما فَرس أَدْهَمُ وبعير أَدْهَمُ. لسان العرب، مادة: دهم.
(3) بهم: والبَهِيمُ من الخيل الذي لا شِيَةَ فيه الذكَر والأُنثى في ذلك سواء والجمع بُهُم. لسان العرب، مادة: بهم.
(4) صحيح الإمام مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل، ح249.
(5) سورة الحشر،الآية 10.

حملة الرسالة الخالدة. بوصفنا مبلغين عن رب العالمين وعن رسوله الأمين. وهو تحدّ لا تقوم له الأمة إن لم يكن التحدي الفردي الذي يُهيب بالمؤمن والمؤمنة أن يتجردا من عبودية النفس والشيطان، وأن يتحررا من سلطان الهوى فيبرَآ من مرض الغثائية وداء الأمم وما ينجر إليهما من آفات، وينبريا تلبية لنداء]سابقوا[ليكونا من المقربين، من [إخواننا]" [1].

وهذا لا يأتي بحسن الظن بالنفس الأمارة بالسوء، ولا بالخطب الرنانة، ولا بالأماني المعسولة. هذا يأتي بذكر الله تعالى وهو المفتاح الذي يضع في الجهاد سره وكنهه، وهو وقوده الذي يدفع الإنسان إلى الاستشهاد في سبيل الله.﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[2] يأتي بالافتقار والانكسار والاستغفار، والتفكر الدائم مع أولي النهى ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[3]. يأتي بصحبة الأخيار، والتمسك بسنة النبي المختار، يأتي بالتأسي بالجهاد النبوي الشامل بمكة والمدينة.

ولذلك فلن "يضير المسلمين مكر غيرهم، إنما يضيرهم ما يترتب في القلوب تُراثا وما يعتريها نائبةً من فساد القلوب وغلبة العصبيات وقلة الإيمان وذكر الله الذي به تطمئن القلوب وتطهر وتزكو" [4].

إن "الأمة مجموعة متماسكة من الأفراد، وكلما كان الفرد سليما كان بناء الأمة سليما، وكلما كانت أخلاق الأمة قوية نقية كانت اتجاهاتها سليمة وهدفها مستقيما.." [5].

والأمة "التي لا تعرف لها هدفا قد تتحرك في موضعها، أو تتحرك في اتجاه مضاد، أو تصيب نفسها وهي تريد إصابة غيرها، إن الطيش يحكمها لا الرشد" [6].

---

(1) العدل، ص62.
(2) سورة الرعد، الآية 28.
(3) سورة آل عمران: من الآية191.
(4) سنة الله، ص207.
(5) أخلاقنا الاجتماعية، مصطفى السباعي، ص5.
(6) الطريق من هنا، ص75.

وعليه؛ فلابد من تغيير نفوس أفراد الأمة الذين يحملون مشروعها في التغيير، والذين يسعون لتحقيق البشارة النبوية الموعودة، فالتربية "بداية السير، فمتى كانت متينة على هدى من الله كان الجهاد ممكنا، وإن أخللنا في التربية فلا يصح أن ننتظر نصرا من الله"[1].

وإن شمولية جهادنا اليوم لن تقوم إلا بتغيير الأنفس، وعقيدة لا تعطل قدر الله بتعظيم الأسباب، ولا شرع الله باحتقارها وإهمالها. وإن الذي يناجي ربه بالليل يطلب حسن المعاد والزلفى عند الله فذلك الطلب لبُّ حياته وغايتُها.

إن مستقبل المحسنين المصلحين مرتبط في غد الإسلام بمصير أمتهم المستضعفة، المغلوبة على أمرها، حظهم من الله جل وعلا مرتبط بقوة أمتهم وعزتها ومكانتها بين الأمم، رتبتُهم بين أهل الله الصالحين المصلحين، العارفين المحبوبين رهن بما بذلوه من جهود ومساعي، لنصرة دين الله حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة أهل الباطل السفلى، وما قدموه من جهاد لتستعيد الأمة المسلمة خيريتها، ولتكون الوارثة في الأرض.

لقد زاغ القطار الإسلامي عن سكته بعد ثلاثين سنة من وفاة سيدنا رسول الله ﷺ، فتحول ذلك البناء الشامخ من خلافة راشدة على منهاج النبوة، إلى ملك عاض وجبري، ومن شورى الأمة إلى بيعة الإكراه، ومن العدل إلى الظلم، ومن الأخوة والمحبة إلى الطائفية والقومية وحمية الجاهلية، فوقع انحراف خطير وميل عظيم في سير القطار الإسلامي على مدى قرون الفتنة.وزاد انحرافه وميله تماما،إبان الصدمة الاحتلالية الاستخرابية.

لكن مع كل هذا لابد أن يعود القطار إلى سكته يوما ما، يقول الله جل اسمه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[2]، إنها سنة الله في وراثة الأرض لمن وفر الشروط.

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾[3]، فتح إلهي

(1) المنهاج النبوي، ص14.
(2) سورة الأنبياء:105.
(3) سورة الفتح: 1-3.

رباني، غير مقيد بزمان ولا مكان، مستمر إلى يوم القيامة، فكل مرحلة من مراحل التجديد وبشائر النصر، وكل الفتوحات الإسلامية، كلها تندرج في هذا الوعد الرباني.

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:[بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ][1].

وعَنْ ثَوْبَانَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ:ﷺ[إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا...][2].

وعليه، فإن التجديد الذي تحتاجه الأمة المحمدية عملية شاملة جامعة لمعاني الأحاديث النبوية الشريفة[3] الداعية إلى تجديد الإيمان في قلوب الناس، وإلى تجديد دين الأمة المحمدية استجابة للموعود النبوي الذي تشرئب إليه أعناق المستضعفين، بانتشار نور الإسلام في العالمين.

---

(1) المسند، الإمام أحمد، كتاب مسند الأنصار، باب حديث أبي العالية الرياحي عن أبي بن كعب رضي الله عنه، ح21258.

(2) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ح2889. سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء سؤال النبي ﷺ ثلاثا في أمته، ح2176.

(3) ذُكر التجديد في ثلاثة أحاديث نبوية شريفة، أذكرها هنا لنستضيء بنورها الشريف في تحليلنا لقضية التجديد:

- الحديث الأول: روى الحاكم في مستدركه (كتاب الإيمان) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم". قال الحاكم:" هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات".
- الحديث الثاني: رواه أبو داود (سبق تخريجه) والحاكم في مستدركه (كتاب الفتن والملاحم) بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".
- الحديث الثالث: روى الإمام أحمد في مسنده (مسند أبو هريرة رضي الله عنه) والحاكم في مستدركه (كتاب التوبة والإنابة) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "جددوا إيمانكم"، قيل: "يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟" قال: "أكثروا من قول لا إله إلا الله". قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

تحصل لنا من هذه الأحاديث النبوية الشريفة أن الإيمان يبلى فيجب السعي إلى تجديده وإزاحة أسباب البلى عنه باستعمال الوصفة النبوية التي لا غموض فيها ولا لبس، يضعف فتتعين تقويته بكل الوسائل التي تزيد المرء إيمانا كما جاءت في الكتاب والسنة وعلى رأسها الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله" التي لا لبس في كنهها وماهيتها، وأن الأمة تكلؤها عناية الله فيبعث عليه السلام لها القائد الرباني والوارث المحمدي-على رأس كل مائة سنة- الذي يجدد لها الحياة في قلبها حتى تقبل على دينها وشرع ربها، فتعبده شكرا ومحبة.

فالتجديد الإيماني الذي ينتشل الأمة من مستنقعات الفتن ما ظهر منها وما بطن، ويخرجها من كهوف الحكم العاض والجبري؛ لا بد أن يكون تجديدا من أعالي الأمور، على مستوى إيماني يتحول فيه اهتمام أفراد الأمة من عادات دنيوية إلى ما يتطلبه من الشرع من بذل الجهود والاستغناء عن الكماليات الدنيوية حتى يتحقق الوعد الرباني، ولابد لهذا من رجال دعاة من أهل الصدق والإحسان لا يخافون في الله لومة لائم، كما كان الصحابة رضي الله عنهم في خلواتهم وجلواتهم، وهذا الفهم العميق للموعود النبوي ولحقيقة التجديد يدفعنا إلى ضرورة الفهم الشامل والأصيل للإسلام الذي تترتب عليه خطة شاملة لتنزيل أحكامه في الواقع، من حيث المعنى ومن حيث تطبيق الأحكام في القضايا العينية، فردية كانت أو جماعية.

وهنا لا يفوتنا القول: أن حقيقة التجديد ليس ما يدعيه دعاة على أبواب جهنم الذين يريدون تغيير الثوابت الشرعية، والتملص من أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية.

إنما التجديد أن يبعث الله ﷻ من يجدد للأمة دينها، ويحيي جذوة المحبة في قلبها، هذا رغم اختلاف العلماء منذ القديم في تعيين مجدد كل قرن، ومع ذلك فقد اتفقوا أو كادوا أن مجدد المائة الأولى هو سيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ، والمائة الثانية الإمام الشافعي ﷺ...

وهذا ومن المعلوم؛ أن التجديد ليس كلاما تلوكه الألسن الغافلة، أو قضية عابرة، إنما تجديد يقرر مصير الأمة وينقذها من غفلاتها وينتشلها من أوحال الفتن والجهل، بالتربية والجهاد، والاعتصام بحبل الله المتين واللجوء إلى ركنه الشديد.

وعليه؛ فهذه" طبيعة الأمة الإسلامية، فهي قادرة على تجديد نفسها، وهي وإن كانت يعتريها من الأسقام ما يُضعف فيها الإيمان ويبعد بها عن المنهج الحق؛ إلا أن رحمة الله تعالى يقيض لها من المجددين والمصلحين من يجدد لها أمر دينها"[1].

قال الحق جل وعلا: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم

(1) التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، (دار السلام-القاهرة)، ص290.

مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1].

هذا وقد وردت كلمة استخلف[2]في القرآن الكريم بصيغة فعلية تتضمن حرفي السين والتاء. وصيغة استفعل تدل على الطلب كما هو معروف عند النحاة. ففعل استخلف في قوله تعالى:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾أي طلب الله منكم أيها المؤمنون المجاهدون أن تكونوا خلفاء في الأرض.

كلمة "(الاستخلاف) في الأرض تحدد وظيفة الإنسان المومن بالله الكامل الإيمان الراقي في ذرى الإحسان كما تحدد مرتبة الأمة المكونة من المومنين، العابدة لرب العالمين عبادة جماعية بتحزُّبها لله، وحملها رسالة الله، وحفظها لأمانة رسول الله"[3].

شروط الاستخلاف:

أولا: الإيمان القلبي:

1- المحبة الشديدة للحبيب عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

2- التعلق بالسماء.

3- ارتفاع الهمم لطلب المعالي.

4- تعظيم أمر الله تعالى في القلوب.

5- تقديم محبة الله وحب لقائه على حب الدنيا وزخرفها.

6- تقديم حظ الآخرة على حظ الدنيا.

7 - التجرد من عوائق الارتقاء في مدارج اقتحام العقبة الإيمانية الإحسانية إلى الله ﷻ.

هذه الأمور تتعلق بالإيمان القلبي.

---

(1) سورة النور: الآية 55.

(2) وقد وردت كلمة أخرى على صيغة "استفعل" وهي كلمة "استعمر" كما في قوله جل شأنه حكاية لخطاب نبيه صالح عليه السلام قومه:﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ ﴿٦١﴾ ﴾(سورة هود: من الآية 61)، يدل فعل استعمر هنا على طلب الله تعالى وتقدس من عباده المؤمنين أن يعمروا الأرض ويصلحوا فيها ويبتغوا فيها من فضل الله ورحمته.

(3) سنة الله، ص171.

ثانيا: العمل الصالح العقلي الجوارحي التنظيمي السياسي

1- إعداد القوة للإجابة على التحديات الجاهلية إجابة مسلمة مؤمنة محسنة شاملة في كل الميادين، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدبلوماسية، والتكنولوجيا. بالأخذ بأسباب الأرض.

2- دعوة أهل الأرض إلى الله تعالى والدار الآخرة.

فبعد نصر الله لعباده المؤمنين، لابد أن يأخذوا بأسباب تمكين دين الله في الأرض تأسيا بجهاد سيدنا رسول الله ﷺ، فسنة الله لا تحابي أحدا، "فما المؤمنون موعودون بالاستخلاف، وهو طلب، إلا بشرط أن يقرنوا الإيمان القلبي بالعمل الصالح العقلي الجوارحي... وما المؤمنون موعودون بالنصر في وعد الآخرة إلا إذا كانوا (عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ). فالعبودية معنى قلبي روحاني والبأس الشديد له وسائل اتخاذه الأسبابية الأرضية الكونية. ثم إن الله تعالى لا يريد منا إن استخلفنا في الأرض أن يمتعنا بزهرة الدنيا للدنيا، لكنه يريد أن يصطنعنا لنمكن لدينه. يريد أن نتمكن في الأرض لنعمل للآخرة في حق أنفسنا فرادى وفي حق كل جن وإنسان نُبلغه رسالة الله ليعبد الله ويعرف الله" [1].

هذا ومما لا ريب فيه أن القدرة الإلهية تخرج من عموم الفتنة وكآبة الحال وحضيض الانحطاط والتدهور الفتنوي رجالا يأتي على أيديهم النصر والتمكين والفتح المبين، كما أخرجت في ظهور الإسلام في فجره الأول: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [2].

فمن محراب الجهاد إذن، تنطلق رواحل المجاهدين والشهداء وقوافلهم، وبالجهاد تردّ عاديات الطغيان فيكون الدين كلّه لله، جهاد بالمال والنفس وجهاد التعليم والبناء والتعبئة، وجهاد الكلمة والحجة، والجهاد السياسي، وجهاد الاقتصاد، وجهاد التوحد، وجهاد لحماية دعوة الإسلام، ويبقى دين سيدنا رسول ﷺ مصدقًا لما بين يديه من الحق ومهيمنًا عليه، ولقد كان انهزام جيوش الكفر والشرك والنفاق أمام جند الله في عهد النبوة

(1) سنة الله، ص174.
(2) سورة الأنفال، الآية: 37.

دليلا على أن قوافل المجاهدين المحسنة الصادقة المخصلة منصورة بإذن الله، ولهو أكبر دليل على أن أيّ قوة لعدو المسلمين مهما عظمت فلا تقف في طريقهم ما داموا سائرين على المنهاج النبوي وما داموا متمسكين بالمحجة اللاحبة.

فالله تعالى وتقدس أنجز وعده لمن اتبعوا رسله-عليهم السلام-، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبذلوا جهودهم ومساعيهم في سبيل الله، ووفوا ببيعتهم، وجعلهم أئمة في الأرض، وجعلهم الوارثين، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. أوفى لهم وعده بما شرطه عليهم من شروط وعقود.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾[1]؛ "خطاب لنا معشر الأمة المحمدية لننظر في سنة الله في الذين خلوا من قبل ونتأسى بالرسل، ونزداد ثقة بما نقرأ في الآيات البينات من وفاء الله بوعده لرسله وبما يُعرض علينا من أمثلة تاريخية لهذا الوعد وذلك الأمر غير المخلوف.(...)

هناك انتظار بليد لأمر الله وهو انتظار المتواكلين الذين يبررون قعودهم وجبنهم وجهلهم بعقيدة جبرية. وهناك من يشرك الأسباب مع الله، أو يعزل الله عن كل قدرة، فيسلك المسلك القدري لا ينتظر خيرا إلا من جهوده وحذقه وتدبيره. هؤلاء وأولئك يكلهم الله إلى عقيدتهم السوء، فهم مع كافة البشر تقلبهم الأقدار الإلهية جزاء وِفاقا وقدرا مقدورا.

أما أمر الله ونصرته فتخص أهل العدل والاعتدال، عقيدة وسلوكا، يتخذون الأسباب وينتظرون وعد الله لا يستعجلون. كل ذلك في محاذاة تامة لكلمات اللهﷻوتلمذة ذكية لسنة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

أمر الله ونصرته بعد عصر النبوة، مرصود للمؤمنين القائمين لله على النمط القرآني والمنهاج النبوي"[2].

---

(1) سورة النحل:1.

(2) سنة الله، ص293-294.

ولعلنا لا يفوتنا أن نقول؛ أن التبتل الفردي لا يكفي بحجة أنه الجهاد الأكبر، للهروب من فريضة الجهاد، لا يكفي الخشوع والبكاء في المحراب الفردي، لكن يجب أن نجمع بين التبتل الفردي، والاهتمام بمصير أمتنا المستضعفة المغلوب على أمرها، أن نكون كما كان الصحابة ﷺ رهبانا بالليل فرسانا بالنهار.

فالأمة مستضعفة في الأرض، تكالب عليها الأعداء من كل حدب وصوب، والصف الإسلامي مشتت، والحكام يعبثون بأمر الأمة الذي أمرنا الله أن يكون شورى بيننا، وأمر الحكام بأن يكون وراثة بين الأبناء والآباء... هل نبقى أمام كل هذا مكتوفي الأيدي نبكي وننوح على عزنا المفقود ومجدنا التليد؟! ونبرر قعودنا وتقاعسنا أننا ضعفاء، فنتعرض لنقمة الله وغضبه في الدنيا والآخرة أعاذنا الله من ذلك؟ وصدق الله تبارك وتعالى القائل في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [1].

ماذا نفعل إذن؟ أين نذهب؟ من أين نبدأ؟ هل نعزي أنفسنا وأمتنا؟... نذكر مجدنا ثم نبكي على ماضينا! كل هذا مرفوض! هذا لا يقبله منا الله ﷻ!

لكن المطلوب منا أن ننظر في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ أسوة وقدوة؛ في جهاده بمكة والمدينة، وفي تربيته ودعوته، مواقفه وغزواته وسراياه وبعوثه، في مواجهته لغطرسة الأعداء، وفي بنائه لأمته، وفي دعوته لقومه، في حكمته وتؤدته وسمته وقصده. وننظر كذلك في سيرة المجاهدين من بعده من الصحابة ﷺ وخصوصا الخلفاء الراشدين، فبجهادهم الطويل المدى فتحت البلاد والعباد، وفتحت مغاليق القلوب، ودانت لهم الجبابرة. فعلى المنهاج النبوي كان سيرهم، فأكملوا مسيرة نبيهم ﷺ، فحرروا العباد من عبودية الطواغيت والاستبداد والظلم، وأوصلوا للناس هدي نبيهم، فدخل الناس بذلك في الدين أفواجا، وعلى نهجهم سار المؤمنون من بعدهم، إلى أن تخلت الأمة عن فريضة الجهاد، ونكصت عن حقيقته، فابتلاها الله جل وعلا بالويل والثبور وعظائم الأمور، وسلط عليها أعداءها، فخربوا البلاد، ومزقوا العباد، وعاثوا في الأرض الفساد.

ولن تقوم لنا قائمة حتى نسير على المنهاج النبوي الذي ساروا عليه، ونبلغ رسالة الإسلام إلى العالمين، ونتمسك بذلك النموذج الخالد القوي، لنستقبل ما وعدها الله ورسوله.

(1) سورة النساء: 97.

خاتــمة

{نسأل الله الحسنى وزيادة}

كان الجهاد النبوي بعهديه المكي والمدني جهادا شاملا استوعب كل مجالات الحياة والإنسان وفق شمولية السنن الإلهية، وسار على المنهاج النبوي الصحابة ﷺ، فكانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار، وولجوا أبواب الجهاد كلها بدءا بجهاد النفس وانتهاء بالجهاد القتالي.

هذا، وإن من أشد الآفات التي أصابت بعض الاتجاهات الإسلامية، جزئية النظر والفهم للدين، كلٌّ أَخَذَ جانباً واستغرق فيه حتى صار لا يرى غير هذا النوع، فمنهم من اختار جهاد النفس[1]، ومنهم من اختار جهاد الدعوة واعتبر بذل الجهد في طلب العلم ترفاً ومشغلة عن الدعوة إلى الإسلام، وانغلقوا على ما عندهم ولم يعودوا يرون غيره، ومنهم من اختار الجهاد السياسي وأصبح هَدَفَهُم الوحيد، ورأوا في ذلك حلاً لجميع مشكلات الأمة، فعلقوا آمالهم على هذا النوع، وحصروا فيه برامجهم...، ومنهم من اختار جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من اختار الجهاد العلمي، ومنهم من اختار القتال في سبيل الله، واستغرق فيه حتى صار لا يرى غيره، وظن أن القتال هو الحل لكل المعضلات التي حلت بالأمة وأنه الواجب الأساس،... وكل اتجاه تعصب لتصوره واعتبره المهيع الصحيح الذي يجب سلوكه والسير عليه، وحشد لرأيه مجموعة من النصوص الشرعية.

(1) وإن كان هذا النوع من أخطر أنواع الجهاد، الذي نجده في كل أنواع الجهاد، ففي الجهاد القتالي مثلا، هناك جهاد النفس، وفي جهاد البناء هناك جهاد النفس، وفي الجهاد العلمي هناك جهاد النفس...
ومع ذلك فإن انتقاء هذا النوع من الجهاد وترك باقي الأنواع نكوص عن فريضة الجهاد وهروب من الجهاد الكلي... وتنكبا عن سنن الله وسيرة سيدنا رسول الله ﷺ.

إن تلك الاتجاهات الإسلامية المعاصرة؛ لما تنكبت طريق سنة الله[1]، أصبح تصورها للجهاد تصورا تجزيئيا؛ مما فقدها القدرة على فهم الدين فهماً شاملاً كاملاً، مع جمودها على ما عندها، وفقدانها الرغبة في المراجعة والتقويم.

نحن لا نعيب أن يختار كل اتجاه ما يشاء وما توصل إليه، لكن نعيب عليهم أنهم يعتبرون تصورهم هو التصور الصحيح الذي أقرته نصوص الشريعة واجتهادات العلماء، وتصور غيرهم ناقص.

لكن سنن الله الثابتة والمطردة هي الحَكَم بيننا، وسيرة سيدنا رسول الله ﷺ هي الفيصل وهي التي تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وتكشف اللبس، وتبين الحقيقة البلجاء للجهاد. حتى تتوحد المفاهيم والتصورات التي يتوقف عليها نجاح كل عمل.

هذا، وبعد تدبرنا في الجهاد النبوي بمكة والمدينة اتضح لنا: أن الجهاد كلٌّ لا يتجزأ، وأن من ينتقي من أنواع الجهاد نوعا دون نوع ويشيح عن الأنواع الأخرى خيانة لدين الله ولسنة رسول الله ﷺ.

وكتاب الله تعالى منذ فجر الإسلام وهو يحض على الجهاد والمسلمون لا يزالون بمكة، ولم يفرض عليهم الجهاد القتالي بعدُ، ولم يهاجروا بعد، يحضهم على الجهاد عندما يأمرهم بزيال الشرك والوثنية، ويحضهم على الجهاد عندما يأمرهم بتغيير ما بالأنفس، وببذل الغالي والنفيس في سبيل الله ومحبة رسول الله ﷺ، وبالصبر على شظف العيش وعلى استهزاء المستهزئين، وشتم المستكبرين، وتحمل الأذى في الله، ويحضهم على الجهاد عندما يأمرهم على تطهير قلوبهم من كل ما يبعدهم عن الله، وعلى التعالي عن الشهوات والأهواء.

ثم يحضهم على الجهاد لما يأمرهم بالهجرة -إلى الله- إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وبناء دولة الإسلام، والعمل والكسب لبناء صرح اقتصاد المسلمين، يحضهم على الجهاد عندما

(1) سنة الله: قدر على مقتضاه يدبر الله هذا الكون، وبتعبير آخر: سنة الله: هي قدر الله وعهوده الثابتة وكلماته التامات، ووعوده الحقة، التي لا تبديل لها ولا التحويل يعتريها ولا التغيير يشملها، ولا تحابي أحدا مؤمنا كان أم كافرا.
إنها عهود الله التي وعدها لكل شيء في هذا الوجود حتى يستقيم على نسق يضمن استمرارية الحياة ودوامها. {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: 122].

يأمرهم بالتفقه في دينهم، وبالمعروف والنهي عن المنكر، يحضهم على الجهاد عندما يأمرهم بالحفاظ على مجتمعهم والذود عنه من كيد الكائدين ومكر الماكرين، يأمرهم بالجهاد بإزاحة العراقيل من طريق دعوة الإسلام، وفتح المجال أمام المستضعفين ليختاروا لأنفسهم الدين الذي يريدون... ولذلك فإن أي محاولة للهروب من حقائق الجهاد لا يقبلها الله تعالى حتى ولو كان الهروب إلى باب الدعوة.

هكذا فالجهاد كلٌّ لا يتجزأ، ونحن مكلفون بالجهاد في حالتي السلم والحرب، ففي حالة السلم مكلفون بالجهاد العلمي والجهاد البنائي والجهاد الاقتصادي وجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وفي حالة الحرب نحن مكلفون بالجهاد القتالي وصد المعتدي على دعوة الإسلام أو أرض المسلمين... أما جهاد النفس فهو في حالتي السلم والحرب.

أما من ينتقي ما يطيب له من أنواع الجهاد، أو من يجلس في صالونه الفخم، متحدثا عن الجهاد، ثم يسيل لعابه على المشتهيات الفانية، فإذا استنهضته لذلك أخلد إلى الأرض وتقاعس ونكص على عقبيه، فإنه ما أدرك للجهاد معنى، ولا لحقيقته كنها!

لقد تلاعب الناس بشريعة الله، وتقاعسوا عن فريضة الجهاد، وتنكبوا سنن الله، وأفتى المفتون على غير هدى من الله؛ وأصبحت الأمة ممزقة أوصالها بين المفتين،وأصبح المسلم يلاحق أخاه المسلم ويقتله بدعوى أنه كافر، كل هذا تحت مظلة "الجهاد في سبيل الله" وتحت شعار "العمل الإسلامي"، كما يحدث في العراق اليوم الذي يقتل فيه كل يوم العشرات من المسلمين الأبرياء، وفي باكستان والجزائر...،في حين تجد هذا يدير ظهره للصهاينة الذين دنسوا القدس الشريف، وقتلوا الشيوخ، وذبحوا الأبرياء، ويتموا الأطفال، ورملوا النساء، وهدموا المنازل!

تلك إذن، هي الطامة الكبرى التي أصابت أمتنا اليوم، الله تبارك وتعالى يأمرنا بقتال المعتدي على أرض المسلمين، وعلى دعوة الإسلام،ولا نخوض القتال حتى نحاور هذا العدو وندعوه إلى الإسلام ونقيم عليه الحجة، فإذا ازداد عداوة وحنقا وتعديا قاتلناه... وإن قبل الدعوة أمسكنا سيوفنا عنه.

هذا ما يمكن تسجيله في حديثنا عن الجهاد في سبيل الله: عن معانيه والشبهات التي أثيرت حوله، وعن أبوابه وغاياته، والمحاذير التي تعترض طريقه، ثم عن أهمية الجهاد للتمكين لدين الله، ولاستقبال البشائر النبوية بانتصار الإسلام وانتشار دعوته في أرجاء المعمورة.

فبعد هذه الرحلة المباركة في راحلة هذا الكتاب التي قصدت الحقيقة على نور الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال علماء الشريعة، قد حان موعد وصولها إلى الغاية التي يَمَّمَتها في رحلتها، ولا أقول أني وفيت الموضوع حقه فلعل الجهود تتظافر من أجل تعميق النظر ومزيد بيان والإلمام أكثر حتى نرد بضاعة أهل الزيغ والضلال إليهم ونفسد عليهم رأيهم وندرأ كل الشبهات عن أحكام شريعتنا الغراء، ونزيل الغبار عن العقول.

وأما عن حصيلة هذا الجهد، فيمكن رسم معالمه عبر النقاط الآتية:

1- بينت المفهوم الشامل للجهاد عكس المفهوم العالق بالأذهان اليوم الذي يحصرونه في القتال بالسيف ثم انتهى الجهاد، أو الترجمة المشوهة له إلى اللغات الأخرى التي تسميه ب"الحرب المقدسة"، وهذا مفهوم خاطئ وبعيد عن التصور الإسلامي للجهاد،فكلمة الجهاد في الكتاب والسنة لا تومئ إلى معنى لغوي واحد في كل ترددتها، بل تعني بذل الجهد في حصول المقصود، أما معناه الاصطلاحي: فهو بذل الجهد في إعزاز كلمة الله ونصر دينه وتبليغ رسالة الإسلام للناس جميعا بكل وسائل الحركة المتاحة وسط الأمة، وبذل المساعي والجهود لنيل رضى الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة.

ولذلك فلو كان الجهاد يقصد به القتال فقط ما استغرق فصولا كثيرة من الكتاب والسنة، فالقتال وسيلة ضرورية من وسائل حفظ الكيان الإسلامي والدفاع عن الكرامة الإنسانية والعقيدة الصحيحة، فإذا تيسر حفظ هذه القيم من دون إراقة الدماء يتعين ذلك:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾[1].

(1) سورة الأنفال.

كما أكدت على أهمية الجهاد في بناء صرح الأمة، وتحقيق العزة والكرامة، وكونه السبيل الوحيد إلى الرقي والازدهار، والاستخلاف في الأرض، ولذلك لما تخلى المسلمون عن الجهاد بمعناه الشامل أصبحوا مطمعا للغزاة؛ فكانوا أسهل مَسَاغًا، وألين أخذا، وأسرع في الهضم.

2- ثم فصلت في أبواب الجهاد -أنواعه- لإزالة تلك الصورة القاصرة واللاصقة بالأذهان حول الجهاد؛ فذكرنا أهم أبواب الجهاد: جهاد النفس، جهاد المال، جهاد التعليم، جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جهاد الكلمة والحجة، جهاد البناء، الجهاد السياسي، جهاد الكفر والفقر، الجهاد الاقتصادي، جهاد التَّوَحُد، الجهاد القتالي وقد فصلنا في هذا الباب من الجهاد كثيرا؛ حيث بينا مراحل تشريعه، وأهدافه، وضوابطه الربانية.

هذا، كما بينت حقيقة كل باب من أبواب الجهاد المذكورة-أو نوع من أنواعه- ومقتضياته والسبيل إليه.

3- ثم انتقلت إلى الحديث عن غايات الجهاد؛ وأجملتها في غايتين؛ الأولى: الغاية الاستخلافية: أي استرجاع مجد الأمة التليد، وكرامتها المغصوبة، وعدلها وشُورَاها، ومنهاجها النبوي، وبناء كيانها الإسلامي القرآني، وتحقيق ذلك الوعد الرباني باستخلاف المؤمنين في الأرض ووراثتهم إياها. وهذه الغاية هي وسيلة إلى غاية أعظم وأجل وهي الغاية الثانية: الغاية التعبدية؛ أي أن تحقيق العدل في الأرض هو وسيلة ليعبد الله في الأرض حق العبادة.

4- واستعرضت بعض النصوص القرآنية والحديثية التي تتحدث عن فضائل الجهاد والاستشهاد، وحاولت أن أسلط عليها بعض الأضواء.

ثم انتقلت إلى الحديث عن المحاذير التي تعترض طريق الجهاد في سبيل الله، وتحدثت عنها بصورة مقتضبة.

وأنهيت كتابي بهذه الخاتمة التي بينت فيها شمولية سنن الله، والنظرة التجزيئية لدى بعض الاتجاهات الإسلامية للجهاد.

تلكم إذن، هي حقيقة الجهاد في سبيل الله وأبوابه والسبل المؤدية إليه، ومحاذيره، ونبينا ﷺ يبشرنا بفجر جديد، وخير عميم، وصبح قريب؛ إن أخذنا بسنة الله في جهاده، وأمامنا كتاب الله ينطق بالحق، ويهتف باستخلاف المؤمنين في الأرض:﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾[1].

اللهم إني أسالك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم. وأسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل. وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك سيدنا محمد ﷺ، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك سيدنا محمد ﷺ. وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين.

الله ارحم أمة سيدنا محمد، واجبر كسرها، وتولى أمرها، وأيدها بنصرك، ومكن لها، واستخلفها، يا الله، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي وأزاوجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

(1) سورة النور.

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة
إهداء	3
تقديم	5
مقدمة	7
خطة الموضوع	9
المبحث الأول: الإرشاد إلى معاني الجهاد	15
1- تعريف الجهاد لغة	15
2- تعريف الجهاد اصطلاحا	17
المبحث الثاني: فقه الجهاد من منظور الجيل المعاصر	51
الاتجاه الأول: المتشددون التكفيريون	53
الاتجاه الثاني: المستسلمون للواقع	59
المبحث الثالث: سبل الهدى والرشاد في أبواب الجهاد	73
الباب الأول: جهاد النفس	76
الباب الثاني: جهاد المال	83
الباب الثالث: جهاد التعليم	86
الباب الرابع: جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	87

الباب الخامس: جهاد الكلمة والحجة 89
الباب السادس: جهاد التعبئة والبناء 94
الباب السابع: الجهاد السياسي 96
الباب الثامن: جهاد الكفر والفقر 97
الباب التاسع: الجهاد الاقتصادي 99
الباب العاشر: جهاد التَّوحُد 106
الباب الحادي عشر: الجهاد القتالي 116
المبحث الرابع: بغية الأمجاد في غايات الجهاد 149
المبحث الخامس: فضائل الجهاد والاستشهاد 157
المبحث السادس: تحذير العباد من المحاذير التي تعترض طريق الجهاد 169
أولًا: الخلاف والتنازع 171
ثانيًا: عصيان القائد أو الأمير 174
ثالثًا: حب الدنيا 177
رابعًا: الفشل والهزيمة المعنوية 179
خامسًا: الغفلة عن الله تعالى 179
سادسًا: الاستعلاء بغير حق 180
سابعًا: حب الرئاسة 180
ثامنًا: الاتكال على الأسباب الظاهرة 181

تاسعًا: العناصر المريضة 181

عاشرًا: القائد الجبار 182

المبحث السابع: الجهاد ومستقبل الأمة 185

أولا: الصحوة الإسلامية 187

ثانيا: من الشكوى العاجزة إلى الوعود الناجزة 193

خاتـمة 203

هذا الكتاب

يبين هذا الكتاب حقيقة موضوع من أخطر الموضوعات التي جعلها أعداء الدين في قفص الاتهام، ووجهوا إليها سهامهم الملوثة، وأثاروا حولها شبهات وافتراءات وأباطيل...

إنه موضوع الجهاد، لكن ليس الجهاد ما علق بأذهان الجاهلين بالإسلام اليوم بأنه حمل السيف وقتال العدو والتهي الجهاد، بل الجهاد أعظم من أن يُخَنْدَق في خَنْدَق ضَيِّق؛ هو أن يكون كل فرد من أفراد الأمة المسلمة في بذل جهد مستمر صباح مساء ليحيا الإسلام وتقوى أمة خير الأنام، وتنتشر دعوة القرآن في العالمين، وينالوا رضى الله يوم الوقوف بين يديه بتزكيتهم لنفوسهم واهتمامهم بمصير أمتهم.

إنه عمل دءوب، وجهد مستمر، ومجالات مختلفة، وأبواب متنوعة، من جهاد النفس إلى جهاد العلم إلى جهاد الاقتصاد إلى جهاد الوحدة إلى جهاد حماية الأوطان والثغور... من أجل غاية واحدة؛ تحقيق سنن الاستخلاف لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى.

هذا هو الجهاد الذي أخبر الصادق المصدوق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه ماض إلى يوم القيامة، وهو الذي يثبته في محاور هذا الكتاب ومباحثه، عسى أن ينكشف اللبس وتتضح الحقيقة البلجاء التي تندثر أمامها كل التهم والأباطيل والأراجيف والافتراءات.

المؤلف

الدكتور أبو اليسر رشيد كُهُوس، أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويين المغرب.

- إجازة في الدراسات الإسلامية.
- ماجستير في الفقه الإسلامي وأصوله، تخصص "فقه الأسرة والتحولات المعاصرة"، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة.
- دكتوراه في تاريخ الإسلام، جامعة محمد الأول.
- إجازات في رواية السنة النبوية.
- درع تكريمي من جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالأردن: 2011.
- عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
- عضو مجلس أمناء رابطة كُتَّاب التجديد في الفكر الإسلامي.
- عضو شرفي بمجمع الفقه الإسلامي بالهند.
- عضو شرفي برابطة أدباء الشام.
- عضو دائم برابطة الفقه الإسلامي (الحجاز).
- عضو رابطة علماء المغرب (سابقا).

– صدر له:

1 – تأملات سريعة في واقع الأمة الإسلامية، (نشر: مؤسسة الندوي للدراسات والأبحاث العلمية، المغرب، 2003).

2 – الشراكة الزوجية بين العقل والعلم والشرع، (مؤسسة الندوي، 2004).

3 – مقاصد ولاية الزواج في التشريع الإسلامي، (مؤسسة الندوي، 2005).

4 – القوامة والحافظية رؤية شرعية ونظرة معاصرة، (دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان 2007).

5 – القوامة في القرآن الكريم والسنة النبوية، (جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالأردن، 2007).

6 – سنة الله في اليهود ومستقبل الأمة الموعود، (دار الحكمة – مصر 2012).

7 – مختصر تواريخ الأحداث المشهورة في السيرة النبوية، (دار الحكمة – مصر 2012).

8 – السنن الإلهية في السيرة النبوية، (دار الكتب العلمية، 2010).

9 – العبر من سيرة خير البشر صلى الله عليه وسلم (دار الحكمة – مصر 2012).

10 – نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية: سنة الله في جهاد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، (دار الحكمة، مصر، 2012).

11 – تهذيب ومراجعة: "التلوث البيئي: قضايا ومزايا" أعمال الندوة الفقهية السابعة عشرة لمجمع الفقه الإسلامي بالهند في الفترة 30-28 ربيع الأول 1429هـ الموافق 5-7/ أبريل 2008م، بـ"دار العلوم" بمدينة برهانفور الهند.

12 – تحقيق: "رسالة في الطريق إلى الله"، للشيخ العلامة نجم الدين الكُبْرى (618هـ/1221م)، مجلة آفاق للثقافة والتراث، الصادرة عن مركز جمعة ماجد للثقافة والتراث، دبي–دولة الإمارات العربية المتحدة، السنة: 19، العدد: 75، شوال 1432هـ–سبتمبر–أيلول 2011م.

إضافة إلى مشاركات علمية وتربوية مختلفة، والعشرات من المقالات والبحوث المنشورة في مجلات ودوريات وصحف وطنية ودولية.